قصص

إدوار الخراط

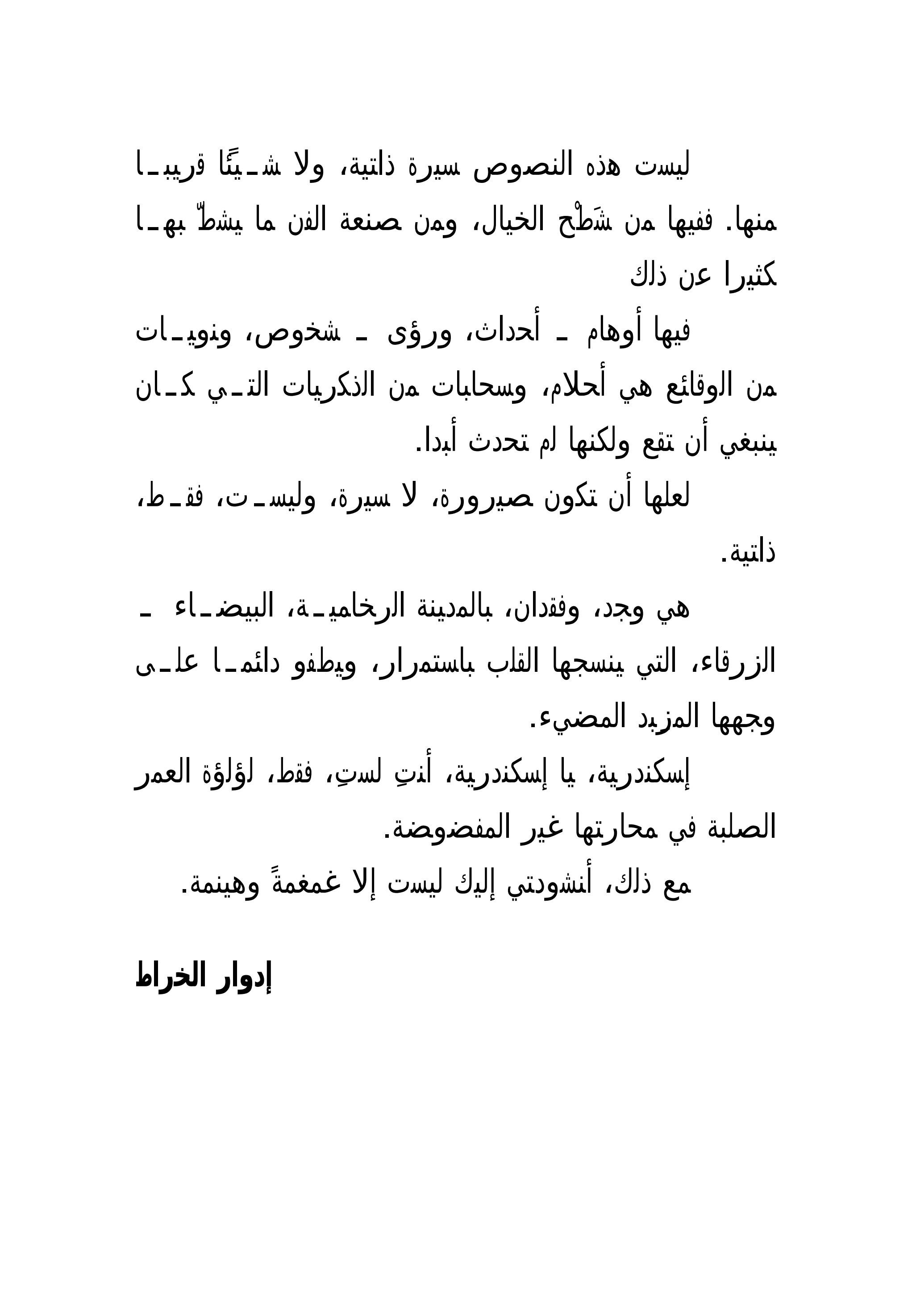


ترابها زعفران

إدوار الخراط

ترابـــــها زعفران

رواية



ليست هذه النصوص سيرة ذاتية، ولا شيئًا قريبا منها. ففيها من شَطْح الخيال، ومن صنعة الفن ما يشطّ بها كثيرا عن ذلك

فيها أوهام ـ أحداث، ورؤى ـ شخوص، ونويات من الوقائع هي أحلام، وسحابات من الذكريات التي كان ينبغي أن تقع ولكنها لم تحدث أبدا.

لعلها أن تكون صيرورة، لا سيرة، وليست، فقط، ذاتية.

هي وجد، وفقدان، بالمدينة الرخامية، البيضاء ـ الزرقاء، التي ينسجها القلب باستمرار، ويطفو دائما على وجهها المزبد المضيء.

إسكندرية، يا إسكندرية، أنتِ لستِ، فقط، لؤلؤة العمر الصلبة في محارتها غير المفضوضة.

مع ذلك، أنشودتي إليك ليست إلا غمغمةً وهينمة.

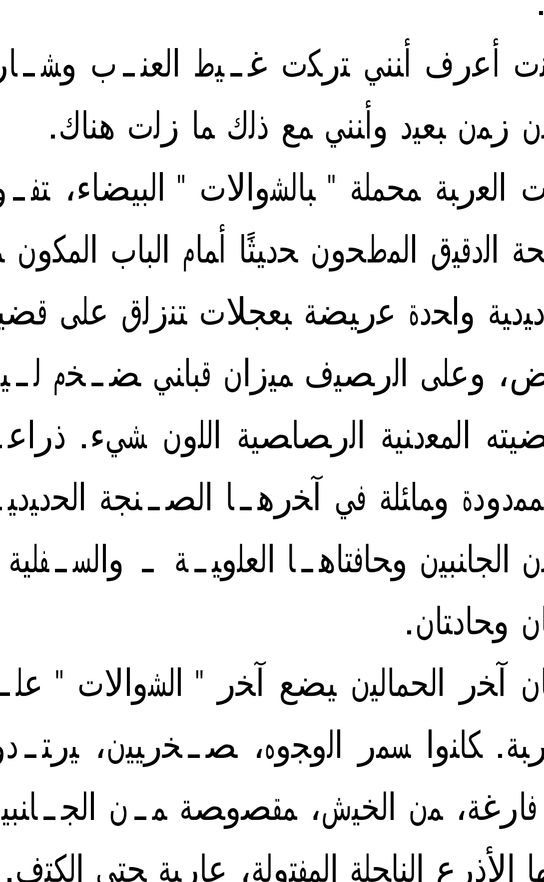
إدوار الخراط

١)   السحاب الأبيض الجامح

عدت إلى شارع راغب باشا. كان الكوبري الصغير مفتوحا، ومياه ترعة المحمودية تحته حمـراء، وكنـت أعرف أنها تدور حول قوائم الكوبري في دوامات متقلبة. كنت أقف في أول عربة من عربات الكـارو الطويلـة، قدماي متشبثتان بالخشب، خلف الحصانين القويين بينهما قائم التعريشة الطويلة، أرى الذيول المقوسة مليئة بالشعر الأشقر، والكفلين الدائريين بلونهما الأصهب عليهما ندى لامع من العرق، الرأسان بعيدان، محنّيان، في الأمـام، أسمع الحمحمة الغضوب المكتومة بجهد.

من كان إلى جانبي يمسك بالأعنّة؟ وجهـه ملـيء بالسيطرة والتحكم، لكني لا أكاد أراه مع ذلـك، أعـرف فقط أنه إلى جانبي في نـور الصـبح تحـت سـحاب الإسكندرية الوضيء الرقيق الذي ينساب بسـرعة فـي السماء الصافية.

كنا نقف أمام وابور الدقيق، أحجار جداره العـالي باللون الأحمر الكابي، تقطعه شبابيك طويلة عليها قضبان



حديدية رفيعة سوداء من ورائها عتمة الداخل التي تصدر عنها أصوات الماكينات تدقّ دقّات مسدودة الصدى بإصرار.

وكنت أعرف أنني تركت غيط العنب وشارع راغب من زمن بعيد وأنني مع ذلك ما زلت هناك.

كانت العربة محملة " بالشوالات " البيضاء، تفوح منها رائحة الدقيق المطحون حديثًا أمام الباب المكون من ضلفة حديدية واحدة عريضة بعجلات تنزلق على قضيب في الأرض، وعلى الرصيف ميزان قباني ضخم ليس على أرضيته المعدنية الرصاصية اللون شيء. ذراعه الطويلة ممدودة ومائلة في آخرها الصنجة الحديدية مدورة من الجانبين وحافتاها العلوية ـ والسفلية ـ مقطوعتان وحادتان.

وكان آخر الحمالين يضع آخر " الشوالات " على آخر العربة. كانوا سمر الوجوه، صخريين، يرتدون شوالات فارغة، من الخيش، مقصوصة من الجانبين، تبرز منها الأذرع الناحلة المفتولة، عارية حتى الكتف.

كنت أعرف أن الباب يفضي إلـى طرقـة طويلـة مبلطة تقف إلى جانبها الغرابيل الأسطوانية الضخمة، في الظل، تحت سقف مائل من الحديد المموج، وأن أشـعة الشمس تسقط في أعمدة مخروطية تتسع إلى أسفل وتقطع العتمة. وتطير داخل هذه المخروطات من النـور ذرات الدقيق الدقيقة المتقلبة لا تنقطع عن الصـعود والهبـوط والدوران. وإلى اليسار كنت أرى الماكينات والتـروس الدائرية الكبيرة والأقماع المفلطحة الفوهـات والسـيور الجلدية العريضة التي تتوتّر مشدودة ممتدة في الفـراغ حتى تصل إلى الطارات الدوارة فتحتضنها وتدور معها، والمواسير الضخمة فوق الطرقة تربط بين البناء الرئيسي وبين الغرابيل التي تهتز في عتمة العنبر المستطيل.

كانت أمي ترسلني إلى الوابور أشتري كيلة دقيـق ونصف كيلة ردة، من كشك خشبي أخضر اللـون مـن داخل الباب، فيه صعيدي عجوز مكسور الأسنان يضـع على رأسه الجافّ عمامة وحول رقبته كوفيـة صـوف، صيفًا وشتاء على السواء. وكان يكيل لي الدقيق والردة، بجاروف حديدي كبير كلاً منهما في صندوق خشبي عالٍ

مائل الفتحة، ويضعهما في كيسين من الـورق الأصـفر الداكن، أحس بثقلهما على ذراعي، وأنا أحملهمـا إلـى صدري، وبقليل من الخجل.

ولكن الكوبري كان مقطوعا والترام يلفّ القضـبان الدائرية ويعود، وعلي أن أنتظر حتى يقوم حسين أفندي بإغلاقه، فأعبره، وأسير قليلاً في شارع الترام، وأنعطف يمينًا على بيتنا في شارع الكروم.

وكان يسحرني دائمـا دوران التـروس الحديديـة، المعشّقة تحت جسم الكوبري، وانطباق أرضية الكوبري، إذ تنزلق ببطء حتى تلتقي بأرضية الشارع، بإحكـام، لا يبقى بينهما إلا خط دقيق جدا كالشعرة، أرى منـه مـاء المحمودية يبرق وينساب بسرعة.

وكانت بائعات الفجل اليانع العريض الورق برؤوسه الباهتة والليمون البنزهير والمِشّ فـي قِصـاعه البنيـة الصغيرة والبصل الأخضر والكرات المرشوش بالمـاء، يجلسن على رأس الكوبري، على التـراب، بملابسـهن السوداء، والطرح المقْبرة التي تنتهي بربطـة عمامـة مربعة على الرأس، ويرضعن أولادهن الذين ينامون وقد

انطبقت أفواههم على أثداء مكشوفة متهدلة من شقّ طولي في جانب الجلابية الواسعة.

كنا نسكن في الدور الثالث من البيت، وأمامنا السطح الذي كانت أمي تربي فيه البطّ والفراخ، وتربط خروف العيد. وكان للسطح سور قصير أشب براسي فوقه لكي أطلّ على حديقة كثيفة مستطيلة الشكل، ضيقة، بين بيتنا وحائط البيت المجاور، وفيها نخل ترتفع شواشيه حتى تستند على الحائط العالي المقابل، وتحته زرع غامض وأصص ريحان وعتر متزاحمة، وكان للجنينة باب داخلي يفتح على الشقة التحتانية، وليس لها باب على الشارع.

وكان حسين أفندي يسكن في الشقة التي تحتنا مباشرة، في أول كاط، وكان أحمر الوجه دائما، قصيرا ومدمكا وله كرش صغير، ويلبس الطربوش المكوي على الزاوية الصحيحة دائما، ويمسك بعصا من خشب الجوز اللامع ذي العقد. وكنت أراه في بيتهم أحيانًا بالجلابية البيضاء النظيفة وكان يضحك معي ويعاكسني، بطيبة قلب، بصوته الأجش المرح.

لم يكن عنده أولاد، وكانت زوجته الست وهيبة صديقة أمي جدا، وكانت تقول لها أحياناً إن نبيهم أوصاهم بنا، وإن عيسى نبينا هو أيضا رسول من عند ا مثل موسى وإبراهيم، وكانت أمي تحلف لها أحياناً بالمسيح ابن ا الحي، وكانتا تضحكان معا على أشياء لا أعرفها يقولانها بهمس، وتنتهي زيارتها اليومية لنا بأن تقبل أحداهما الأخرى، وكنت أستغرب قليلاً لأنهما يضعان الخد بإزاء الخد، ويمصمصان بالشفتين يضمانهما على شكل التقبيل تماما لكنها ليست قبلة بالفعل.

وسمعت أمي وست وهيبة تتحدثان همسا عن السكان الجدد الذين جاءوا في الشقة التحتانية المطلة على الجنينة وسمعت الست وهيبة تقول إن ذلك في وجهنا ويجب أن نفعل شيئًا.

كانت الشقّة التحتانية دائما مغلقة الشبابيك، وكنت وأنا أعود من المدرسة أرى الباب مواربا قليلاً وألمح وراءه حسنية.

كنت أراها، نحيلة، شعرها الحالك مربوط بمدورة بيضاء، وصغيرة الجسم ولا تكبرني ربما إلا بسنين قليلة، وأحس أن فيها شيئًا ما يجذبني وأحبه جدا.

كانت تجلس على كرسي خيزران أمام مائدة رخامية واسعة القرص عليها مفرش أبيض مخرم ومشغول، وهي في قميص نوم واسع عليها وقصير لا يصل إلى ركبتيها، مفتوحة الرجلين تمدهما أمامها بتعب واسترخاء. وعندما تحس بي تستدير بوجهها إلي من العتمة الخفيفة التي فيها نور خافت كأنه أخضر اللون يأتي من باب الجنينة الداخلي، وأنا في الفسحة الرطبة البلاط بعد الباب الخارجي، أمام الدرجة العريضة الأولى من السلّم، أرى عينيها الواسعتين في وجهها الحاد المخروطي العظم منتفختين ولكن حاجبيها كانا مقوسين ورفيعين جدا على محجري العينين.

وكنت أرى أمها الكبيرة في السن، قوية الجسم وسمينة جدا تخرج من البيت بعد الظهر، لا تلبس ملاية بل دائما بفستان مشجر واحد وفي إحدى ساقيها خلخال

غليظ من الفضة يحبك كاحلها المتورم على الشـكربينة القماشية ذات الكعب المنخفض.

كانت حسنية، في الأول، تومئ لي برأسـها علـى سبيل التحية، فأجري أصعد السلالم ووجهي أحسه ممتلئًا بالدم لا أعرف إن كنت قد رددت عليها التحية أم هربت.

وفي مرة أشارت إلي تدعوني بإصـبعها، برفـق، فخطوت إليها متردداً ووقفت خارج باب شقّتها، وكانـت في قميصها الواسع القصير، من نسيج حريري أبيض له وبرة ناعمة ممسوحة من القدم وكثرة اللبس.

قالت لي: تعال يا حبيبي، تعال. بصـوت مبحـوح كأنه مدعوك قليلاً.

وقالت: تروح تشتري لي باتنين مليم كراملـة مـن عند حسني البقال؟

أومأت برأسي موافقًا، وكان ريقي قد جفّ، وجريت بسرعة، ومعي كتب المدرسة، وفي غمضة عين كنت قد عدت، فقامت علي وأعطتني حبة كراملة برتقالية اللون، سداسية الأضلاع، وعليها وجه " أبو الهول " فتيـا ولـه لحية، بارزا ونصف شفاف. وفجأة مدت ذراعها الرفيعة

وضمت رأسي عليها، ووقع وجهي تحت ثديها الحر الذي أحسسته لدنًا ومتماسكًا وصغيرا وضغطت رأسـي إلـى أضلاع صدرها اليابسة من فوق القميص اللين النسيج.

وأفلتّ منها، وقلبي يدقّ وأنا أصعد السلّم جريا.

فقالت أمي ضاحكة مني وهي تفتح الباب" مالك؟ هو أنت شفت عفريت في عز الضهر ولا إيه؟ ادخل اغسـل وشك ادخل...

واحتفظت بالكراملة، لففتهـا فـي ورقـة فضـة، ووضعتها في علبة دخان الغزالة الذي كان جدي يصـنع منه سجائره اللفّ، وكنت أحتفظ فيها بكنـوز طفـولتي: عظمة كعب بيضاء، وقوقعـة ملفوفـة الطبقـات مـن الشاطبي، وخمس بليـات رقراقـة الألـوان كـالجوهر المخطّطة المشلّلة بالأزرق والأصفر، وزلطـة رماديـة ناعمة الجسم، وشرائح من فيلم أسود أحبها عليه صـور متعاقبة لتوم ميكس على حصانه لا تكاد تتغير مـع أنـه يجري. وظللت أحتفظ بقطعة الحلوى حتى بعد أن ذهبت حسنية، وبعد أن بهت لونها البرتقالي وسـاحت حـوافّ صورة أبي الهول، ثم أكلتها غاضبا.

كنت أحبها وكنت أيضا أخاف من شيء ما مكتوم في همود جسدها الرفيع المهدود.

قالت لي مرة، وهي لا تنظر إلى، إنها تسافر في الليل، وتروح بعيدا جدا وإن سفر الليل متعب ولا تطلع له شمس.

وخيل إلي أنني فهمت، وأنها ربما تذهب إلى محطة مصر وتقضي الليل مسافرة في القطار وتعود قبل الصبح. وكنت أصدق هذا وأعرف في الوقت نفسه أنها لا تترك البيت أبدا.

وقالت: ربنا يتوب علينا من سفر الليالي.

وكنت في تلك الأيام أقرأ الكتاب المقدس الكبير بغلافه الأسود المنقوش بزخرفة بارزة قد بهتت قليلاً، من الجلدة للجلدة، بإصرار الإصحاح بعد الإصحاح. وكنت لا أفهم كثيرا تعقيدات العهد القديم والأسماء الكثيرة فيه، وأحلم مع نشيد الإنشاد وأبكي كثيرا عندما أقرأ عن صلب المسيح وكيف تعذب ومات على الصليب من أجلنا. وكان سر المسيح يمِض قلبي ويحمله عبئًا لا يعرفه أحد.

وكنت أنزل عند ست وهيبة أستلف من عندهم روايات روكامبول وفانتوماس وجرجي زيدان ونقولا رزق ا التي كان يشتريها سي حسني أخو حسين أفندي ويضعها في سحارة خشبية صغيرة جنب سريره. وقرأت من عنده رواية سافو في طبعة كبيرة غلافها رمادي كالح وعليه اسم المؤلف بالمطبعة بالبنط الثالث الطويل القائم العود. وأشعلت الرواية حواسي وازدحم بها خيالي.

كان سي حسني عنده دكان بقالة على قمة الشارع الآخر الذي تطل عليه شرفة بيتنا، وكان طول النهار في دكانه. وكان طويلاً ووسيما وخشن الشعر ولم يكن يكلمني كثيرا، كانت ست وهيبة هي التي تعطيني كتبه، وأحيانًا تتركني أدخل لكي أفتش في السحارة وأنتقي ما أريد، وهي تقف ورائي بجلابية النوم الخفيفة، ممتلئة الجسد وأنثوية، وصدرها وافر وأسمر وناعم الجلد أراه من فتحة الجلابية، عاليا عني، يهتز بثقل واطمئنان.

كان لدخول البيت عندهم، دائما، رهبة في قلبي، إحساس مثير ووجِل وسعيد وكأن فيه إثما ومتعة، إحساس بالجو السري الخاص لبيتهم، وأنهم ينامون

ويأكلون ويعيشون معا، مجهولين، بطريقة لا أعرفها، وعيب أن تعرف ماذا يفعلون، في ملابسهم التي لا تراها أبدا خارج البيت، ولما كانوا مسلمين أيضا فقد كان في ذلك عنصر آخر من عناصر الستر والرهبة والغموض الجذاب.

كنت ألمح حسين أفندي نائما أثناء النهار، على السرير الكبير في الغرفة الأخرى، تحت غرفة أبي وأمي، استعدادا لدورية الليل عندما يقوم ليفتح الكوبري كانت ست وهيبة عندما أدق الباب تفتح الشراعة الزجاجية وتراني وتردها وتفتح لي الباب وأعرف أنها خارجة من عنده، أنفاسها متسارعة قليلاً ووجهها الطيب مضرج بالسمرة وهي تسوي شعرها الخشن الوحشي الشكل بذراعها الملفوفة فيظهر لي جانب صغير خفي من صدرها بين الإبط والثدي وعندما أرفع إليها عيني، تقول لي: يوه ا يجازي شيطانك يا ميخائيل، عايز كتاب تاني؟ هو أنت ما تشبعش روايات؟ تعال يا حبيبي ادخل. وكانت لها عندئذ رائحة خصيبة ومليئة كرائحة العجين الخمران، فأدخل بسرعة وأنا خجل ومستثار، وأسأل

نفسي ترى أين هو شيطاني وكيف هو؟ وأنسى ذلك كله وأنا أقلب في الكتب، وما زالت رهبة الدخول إلى شقق الغرباء عندي حية حتى الآن، وكأنني أخطو إلى عالم آخر ينذرني، ويناديني، ويصدني معا بما يحمل من خطر.

وفي يوم مسح السلالم كانت أمي تملأ الجردل الحديدي بالماء من حنفية الحمام، وتحمله إلى البسطة وتصبه فيتدفق على درجات السلّم وهو ينزل بصوت التطام متكرر بهيج، ثم تقعي على رجليها تمسحه بالخيشة الداكنة سلّمة سلّمة حتى باب الست وهيبة التي تكون تنتظر وهي تضحك وتقول: يا ختي حاسبي يا ست أم ميخائيل، على مهلك شوية، عيني عليك باردة، ثم تنحني وهي ترفع طرف جلابيتها البيتي عن ساقين ممتلئتين سمراوين وهي تنظر إلي بخجل أراه غريبا جدا، وتكمل المسح حتى الشقة التحتانية، وتتأخر الست أم حسنية كثيرا فيظل الماء محصورا في برك صغيرة عكرة على البلاط، وبعد الغذاء فقط عندما أنزل لشراء حاجة أرى مدخل البيت والبسطة التحتانية تلمع ورطبة.

وكانت ست وهيبة تجلس بعد ذلك ـ وقد غيـرت جلابيتها المبلولة وغسلت شعرها ـ مع أمـي، تثرثـران وتشربان القهوة على الكنبة الإسطمبولي المفروشة بملاءة بيضاء متعضنة على المرتبة القطن المنجدة، وفي وسطها مخدتان صغيرتان صلبتان جدا إحداهما فـوق الأخـرى تميل عليها الست وهيبة بجنبها وهي تتكلم. وأنا أعطيهـا ظهري، أذاكر وأعمل تمارين الإنجليزي علـى مائـدتي الرخامية البيضاوية الشكل المفروشة بـورق الجرائـد، مسنودة على الحائط، رصت عليهـا كتبـي المدرسـية وكراريسي في رصتين متساويتين، وبينهما رواية مـن روايات الجيب مخبأة بعناية وقد نزعت غلافها الملـون حتى لا يفضحني بصورة الغانية الزرقاء الممشوقة جـدا يلفّها رداء عاري الظهر بحمالة واحدة وينسـدل الـرداء طويلاً متموجا برشاقة حتى آخر الغلاف من تحت.

كنت أسترق السمع إلى حديثهما الهامس، وأنا أنقـل تصاريف الأفعال الإنجليزية، بالريشة ذات السن النحاسية الرفيعة التي تنزل منها فجأة قطرة مدورة مـن الحبـر فتشعع على الورق قبل أن ألحقها بالنشافة، وعرفـت أن

العربجية من الإصطبل الـذي أمامنـا يـدخلون الشـقّة التحتانية بالليل، ويخرجون بعد ساعة أو ساعات، واحدا بعد الآخر، وأن رائحة الحشيش تعبق في بير السلم حتى الصبح، وهمست ستّ وهيبة بصوت أجش قليلاً ومليء بالحرارة: ومش بس العربجية يا ختـي، دول بيجبـولهم زباين من القهوة اللي على المحموديـة فـي أنصـاص الليالي، ولا كوم بكير. وكان للكلام الغريب وقع غامض في نفسي ولم أجرؤ أن أسأل. فقد حدست طبعا أن فيـه مما يحدث بين الرجال والنساء ما يروع.

كان في هذه الغرفـة " جرامفـون " علـى شـكل صندوق مربع، موضوع على " كومودينو " ببابين، مـن الخشب الداكن اللامع وعليه زخرفة نباتية معشّـقة مـن الخشب الأصفر، وفوقه البوق الذي تنفتح فوهتـه وتبـدأ دقيقة ثم تتسع حتى تنفرج ضافية الاستدارة. وكان علـى الأسطوانات السوداء كلب يضع فمه في بوق آخر يشـبه بوق " الجرامفون " الذي عندنا تماما، ومكتـوب تحتـه صوت سيده، ويحيرني أنه ينبح داخل البـوق بصـوت سيده، ومن سيده؟ بينما كانت الأسطوانة تـدور بـبطء

وقتذاك بصوت سريع رفيع: بيضافون تقدم الأستاذ محمد عبد الوهاب ثم يرتفع صوته الحلو الذي يخشخش بأغنية عن "النيل نجاشي حليوه أسمر"، ثم تخفت الأغنية حتـى ندير المقبض ونملأ " الجرامفون " من جديد.

تنفتح غرفتي هذه على باب شـرفة طويلـة مقفلـة عليها تعريشة خشبية مسقوفة تغطيها من كل الجوانـب ولها نافذتان صغيرتان تطلان على الإصطبل الذي تقف فيه بالليل عربتا " حنطور " وأربعة خيول، وأكوام رطبة الشكل زهمة من البرسيم، وعجلات مخلوعة، تحت سقف مائل مقطوع قائم على أربعة أعمدة حجريـة قصـيرة، للإصطبل بوابة خشبية عريضة وواطئة تفتح على رحبة ترتفع قليلاً واسعة من غير انتظـام، بـين الإصـطبل والبيوت، ثم تخاص إلى حارة ضيقة تعلو أرضـها ثـم تهبط، وأخيرا على شارع الترعة المحموديـة. وحافـة الترعة العريضة النازلة على الماء مزروعة بـالجرجير والخس والفجل الذي كنت أشتريه لأمي من فلاّح يلـبس قميصا خشنًا كالح الزرقة من غير أكمام، قصيرا علـى رجليه العظميتين السوداوين يخرج إلى كالعفريـت مـن

خص صغير جدا بناه من الطين والقـش تحـت جسـر الترعة، وكانت يداه كبيرتين وصلبتين وأصابعه قصيرة مقوسة.

كنت نائما على السرير الكبير ذي الأعمدة السوداء في نهايتها العساكر النحاسية المتخلخلة التي كنت أفكهـا أحيانًا وألعب بها وأُركِبها بسرعة قبل أن يعـرف أحـد، وأخواتي البنات نائمات جنبي من ناحية الحائط، عايـدة التي كنت أحبها، وهناء الصغيرة.

وعندما استيقظت فجأة وسط الليل على صوت خبط سريع ملهوف على باب الشقة، كانت لمبة الجاز نمـرة خمسة معلقة بالحائط وفتيلتها منخفضة مـن وراء بطـن زجاجتها الرشيقة تلقي ظلالاً مهتزة على أركان الغرفة، وسمعت أبي يقوم من السرير في الغرفة الكبيرة المقابلة، ورأيته يمر في الفسحة، وهو يلفّ على نفسـه طرفـي القفطان الصعيدي المفتوح ويربط حبله المضفور الرفيع حول وسطه، ويسرع إلى الباب، ومن ورائه أمي بجلابية نومها، تحمل " لمبة الجاز الكبيـرة " نمـرة عشـرة " وتلحق به، حافية على بلاط الفسحة.

كنت قد تيقظت تماما الآن، وأنا أرتجف قليلاً مـن الترقب والخوف والمفاجأة، وأختاي نائمتان جنبي.

سمعت صوت حسـنية بالبـاب، خافتـًا وحـارا، متضرعا:

ـ في عرضك يا سيدي، اتستر علـي، ربنـا مـا يفضح لك ولية. خبيني عنـدك فـي عرضـك، أبـوس رجليك.

وسمعت صوت أبي، أجشّ من النوم، طيبا وعـذبا جدا، بلهجته الصعيدية التي لم يغيرها طول عمره:

ـ باسم الأب والابن والروح القدس. ادخلـي يـا بنتي، ادخلي. لا حول ولا قوة إلا با . مالك يا بنتـي، فيه إيه؟

وسمعت حسنية تتوسل، تكاد تجهش:

ـ البوليس، يا عم قلدس، ورايا. غلبانة يـا عمـي وا ، مظلومة، خبيني في عرضك أبوس رجليـك، فـي عرضك.

الباب يرد والخطوات مضطربة ومتلاحقة، وأمـي تدخل على " باللمبة " الكبيرة. وفي همس سـريع، أبـي

يقول لها: ادخلي يا بنتي. ادخلي فـي السـرير جنـب الأولاد. واتغطّي. وكأنما يقول لنفسه، أو يقول لامرأتـه بصوت خاص به وحده: ربنا أمر بالستر. ربنـا يسـتر على ولايانا.

أما أمي فقد رأيتها في الظلال والنـور المتـراوح متنمرة لامعة العينين متوتّرة وهمسـت لأبـي: الولـد! فأغمضت عيني وجمدت. عندما فتحـت عينـي رأيـت حسنية تنزلق بجانبي في قميصها الأبيض الواسع الـذي أعرفه، شعرها مهوش وعيناها واسعتان مـن الخـوف، وكانت حافية، وتقلبت عايدة قليلاً وتنهدت في نومهـا. واحتضنتني حسنية، وأحسست كل جارحة فيها تنـتفض كأنها لا تملك أن تردها، وكان جسمها بارداً.

في الهدوء الليلي الخارجي سمعت وقع سنابك الخيل على الشارع المدكوك بالحجر الأبيض الدقيق والتـراب الرملي وضجة أصوات مختلطة. وخبطا يأتي على باب الشقة التحتانية، ثم خطوات ثقيلة وسريعة تعلـو علـى السلم، وباب شقة وهيبة يفتح، وطرقات ملحة عنيفة على بابنا. لم أستطع أن أقاوم، فقفزت من السرير، بجلابيتـي

البيضاء الحرير، ولكنـي شـددت المـلاءة، وغطيتهـا وجريت على الباب.

وعندما فتح أبي الباب انـدفع إلـى داخـل الشـقة كونستابل فارع الطول بملابس الركوب، والحزام الجلدي السميك والبنطلون الضيق، شاهرا في يده إلـى الأمـام المسدس الحكومي جسيما ومنتصـبا وشـريرا، ووراءه مخبران بالأحذية الميري الثقيلة والبالطو الإفرنجي على الجلابية البلدي، وعصا الجوز الغليظة المقوسة اليد.

وعندما رأى الكونستابل أبي، نحيلاً وقائم العود وفيه كبرياء الصعيدي، رافع الرأس، وأمي من ورائه واضحة أنها تيقظت على الفور من النوم، وأنا، تردد لحظة، ثـم توقف متحيرا قليلاً وقال:

ـ لا مؤاخذة يابا. لا مؤاخذة. ما حدش دخل عندكم دلوقتي؟

قال أبي بثبات، هادئ الصوت:

ـ حد مين يا بني في الساعة دي؟ خيـر ... إيـه الحكاية؟

صرخت أختي هناء الصغيرة في نومهـا صـرخة صغيرة؛ فَجرتْ أمي إليها ومعها اللمبـة وتركتنـا فـي العتمة المضطربة، مع البوليس.

قال الكونستابل وقد بدأ يحس أنه سخيف مقتحم:

ـ أبدا أنا بس قلبي عليكم يا عمـي. أنتـو نـاس طيبين. لا مؤاخذة جاتنا إخبارية عـن الشـقة التحتانيـة عندكم. نصيحة يابا خلّ بالك. ما تدخّلش حد عنـدك لا مؤاخذة، اقفلوا الباب عليكم. تصبحوا على خير.

سمعتهم ينزلون ببطء وسمعت الحصان الميري في الليل تتباعد دقات سنابكه على شارعنا.

قال لها أبي: انزلي يا بنتي خلاص. ربنـا يهـديك وينور لك سكتك. انزلي ربنا معاكِ.

كانت تبكي من غير دموع وتشهق بجفاف، محنيـة الرأس واندفعت تخطف يد أبي تبوسها بسرعة كالملسوع وهو يقول بصوت خفيض متتابع النبرات:

سامحني يا رب.. سامحني يا رب.. سـامحني يـا رب.

وكنت أطل عليها وهي تنزل السلم، ورأيت ست وهيبة تنظر إليها من خلاف الباب الموارب الذي يلقي على بسطة السلم خطًا مرتعشًا من النور.

وأنا أرجع للسرير رأيت أبي في غرفة نومه، يرسم الصليب على وجهه، ويصلّي.

وفي الصبح لم نجد أثرا لحسنية ولا لأمها التي قالت الست وهيبة: إنها لم تكن أمها ولا حاجة. كانوا قد لموا عزالهم في عربة كارو وتركوا الشارع وكنت أفكر فيها وأشتاق إليها.

وعندما عرفت أن البوليس لم يدخل شقة الست وهيبة، ولم يسألها عن شيء سطع لذهني همسها لأمي، وفهمت، وكنت لا أريد أن أراها.

ودون أن أحس كانت العربة قد انتُسِفت من الأرض وانطلقت يجرها الحصانان الغاضبان بفتوة وعرامة الجموح، وأنا أسمع قرقعات العجلات الخشبية المكسوة بطبقة رقيقة من الصاج على أحجار البازلت السوداء، وكانت حسنية مرمية تحت سنابك الخيل الحديدية التي تطأ عظام صدرها وعيناها مسددتان إلي من الأرض،

صلبتان ينسكب منهما حنان صامت لا أريده. وينفجر دق العجلات والحوافر متلاحقة، والعربة الكـارو المحملـة بشوالات الدقيق تدور، تعلو تهبط، ولا تتوقف، تعود مرة ثانية أمام باب وابور الـدقيق الضـخم، وتـدور أمـام الكوبري المفتوح، وقد سقطت إلى الخلف علـى المقعـد الخشبي، وأتشبث بيدي بجانب العربة ليس بجانبي أحـد، ولا يتوقف جموح العربة ولكنه لا ينفلت بل هو محكوم.

وكنت أرى نفسي عندئذ والآن في حضيض وهـدةِ الأشواق تنطلق بي الأحلام الوحشية التي لها وجه خيول الذكريات، ضجيجها يكاد يطؤني.

وفي عتمة آخر العمر التي استضاءت فجأة بالحـب الزاخر القابض الفسيح كنت أعرف أنني أعتنـق أيضـا وهيبة وأتنسم عجينة أنوثتها. وكانت هناك، فـي داخـل لدونة جسدها الخصب، حسنية المقهورة الحنون، وكـان شعرها القصير الخشن حيا تحت أصابعي، وكنت أُحوط عليها بذراعين دقت فيهما المسامير، مطعـون الجنـب بالحربة يتقطر مني دم نزر.

٢) بار صغير في باب الكراسة

ما زلتُ أذرع شوارع غيط العنب، كما كنت أعرفها وأنا في مدرسة النيل الابتدائية، واسعة، نظيفـة، مسـتقيمة، أرضها من الحجر المدكوك الملتصق به تراب رملي جاف، والشجر على الأرصفة أمام البيوت المنخفضة، وفيها رائحة الملاحة الرطبة تأتي من وراء سور السكة الحديد.

شارع " الترامواي " وحده كان مكسـوا بالأسـفلت الأسود الصقيل تشقّه قضبان الترام اللامعة الجديـدة، وكنـا نسير، أنا وأمي، أمام مطعم الفول الذي كنا نسميه التركـي، وكان فسيحا ومبلطًـا بـبلاط أبـيض وأسـود، وبابـه، ذو المصراعين الزجاجيين اللذين يبرقان، عريض جدا, ووراءه مباشرة بجانب المنصة الرخاميـة الطويلـة، قـدرة الفـول النحاسية الهائلة. وكان يعلق صورة الملك فؤاد جامد الوجـه ببدلة التشريفة والشارب والنياشين، وبجانبها صورة الملكـة نازلي وعلى شعرها المرفوع في شكل هالة صلبة مرتفعـةٍ تاج نصفي صغير وعلى الجدران الأخرى صور تلمع مـن تحت إطاراتها الزجاجية، فيها سبع يرفع سـيفًا، وأبونـا آدم

وأمنا حواء مطرودان من الجنة، عاريـان إلا مـن ورقـة التوت، والحية ملفوفة بنظام هندسي حول الشجرة والخليـل إبراهيم يرفع سكينًا ليذبح ابنه إسحاق بينما الخروف واقـف والملاك نازل من السماء، ألوانها زرقاء وخضـراء يانعـة وخطوطها رفيعة مسطحة، وكنت أذهب إليه أشتري بـاتنين مليم فول في السلطانية الصـيني الغويطـة، ويغـرف لـي بمغرفته الطويلة البيضاء من قلب القـدرة، وعنـدما أقـول "اتوصى " يضيف غَرفة صغيرة أخرى وهو يتبسم لي مـن أعلى، من تحت شاربيه البيضـاوين المصـفرين، وعينـاه النافذتان الغائرتان تبتسمان لي أيضـا مـن عمـق وجهـه الصخري العظام الشاهق البياض، وفوقه صـورة أتـاتورك بالقلبق الفَرو الداكن والنظرة الصـارمة. وكانـت الموائـد الخشبية، عند التركي، داكنة ومرصوصة في المحل بنظـام، وقد دعِكت في الخشب طبقة من اللمعان المشقّق مـن كثـرة المسح، من غير مفارش.

وكنت أعرف أن اليوم هو ١١ بؤونة، وأن غدا هـو عيد الملاك ميخائيل.

وكنا نذهب، أنا وأمي، لنشتري زيت السيرج الـذي ستصنع به فطير الملاك. وكانت السيرجة بعيدة علـي، فـي شارع جانبي ناحية غربال، لم أكـن لوحـدي، أسـتطيع أن أذهب إليه.

وكانت أمي تخرج أيضا بالملابس الإفرنجي، ولكنها هذه المرة كعادتها في مشاوير غيط العنب، لبست ملاءتهـا السوداء الناعمة النسيج، ولفتْها على نفسها بإحكام ورشـاقة، والبرقع الخفيف الأسود المخـرم وعليـه القصـبة الذهبيـة المدورة عليها خطوط عريضة بارزة فوق الأنـف، وكانـت بيضاء الوجه من وراء شبكة البرقع الهفهـاف، وتقاطيعهـا عذبة، وأنا أمشي بجوارها، تمسك بيدي بقوة، وتسير علـى حذائها المرتفع الكعب، وكنت أحسها جميلة جدا في الشوارع الجانبية الهادئة التي يظللها الشجر، وكنت أنا ألبس جلابيـة فاتحة الزرقة عليها خطوط طولية حريرية داكنـة الزرقـة، وحذاء أسود جديدا متين الجلد والشراب القصير عليه حلقـة "أستك " عريضة بيضاء ماسكةً بشدة على منتصف رجلي.

كان الصبح غير حار، والبيوت حوالينا مـن دور أو دورين، بعضها له جنائن فيها تعريشات العنب الذي ما زال

بعناقيده الصغيرة الملتم بعضها إلى بعض بحصـرم دقيـق ومدبب صاب الخضرة.

حودنا إلى حارة ضيقة، ورأيت الأرض مبلّلة ببقـع سوداء داكنة مندَاة على التراب أمام " السـيرجة "، ونزلنـا درجتين من الحجر تعجنت عليهما طبقة غير مسـتوية مـن التراب وعقَدت. واشتدت قبضة أمي علـى يـدي حتـى لا أنزلق.

انفسحت أمامي رحبة معتمة عالية السـقف، وفيهـا أعمدة مبنية من الحجر الخشن العاري، مربعـة الأضـلاع، وعلى الحائط شوالات الخيش المكتنزة بالسمسم، مرصـوص بعضها فوق بعض، ولدنة الانبعاجات، وفَغَمتْني رائحة الزيت المعصور اللازجة النفاذة، ولها عبق حلو سكّري قليلاً، وكان هناك بغل عريض الكفلين، مغمى العينـين، واقفـا مـدكوك الجسم، بجانب عجلة المعصرة الخشبية السـوداء الضـخمة التي لا تتحرك الآن.

ورأيت أنني قد انزلقت بي السلالم، وكنت أتـدحرج في العتمة وحيدا، لا أحس احتكاكًا بشيء ولا يخدشني شيء، وأنا ما زلت أهوي وكأنني أطير إلـى أسـفل، وبـلا وزن،

والبغل المربوط إلى حجر المعصرة الضخم يدور في العمق تحتي، من بعيد، وتتزايد سرعته، وكأنما يحلّق في دورانـه، من غير صوت، وسرعة دورانه أكبر وأكبر، حتى أصبحت العتمة نورا صافيا غريبا ليس من هذه الأرض.

وهناك أيضا رصة صفائح بيضاء عالية تومض في العتمة رقيقة الجوانب كأنني أحس الزيت المعبأ فيها يترقرق تحت الصفيح الناعم الساكن الذي لا يكاد يتذبذب من ضـغط السائل المحبوس في داخله.

وفي آخر هذه الساحة السفلية المعتمة سـرنا حتـى وصلنا إلى مائدة خشبية غليظة الأرجل عليها دفاتر حسابات ضخمة كعوبها الدائرية بالجلد الأسود السميك، ورصة أوراق الفواتير، ومحبرة عريضة من الزجاج الكثيف المربـد فيهـا ثلاث عيون مدورة إحداها مليئة بالحبر الأزرق وعلى سطحه غشاوة خفيفة من التراب، والثانية فارغـة وفيهـا دبـابيس وأسنان الريش، والثالثة فيها طبقة مترسبة وعليها سائل الحبر الأحمر، وريشتان من الخشب الأسود لهما أسـنان مفلطحـة تنتهي بذؤابات رفيعة ملوثة بالحبر.

نهض من وراء المائدة رجلٌ طويل نحيل والوجـه، يلبس عمامة صعيدية رقيقة مـن القمـاش دخانيـة اللـون، وقفطانه مفتوح الرقبة تنتهي أكمامه باتسـاع كبيـر علـى معصميه الرقيقين وأصابعه الطويلة، وقال: يا أهلاً وسـهلاً شرفتِ يا ست سوسن نورتِ السيرجة "إتفضلي"، كـل سـنة وأنتم طيبين، وهو يخرج منديلاً كبيرا من جيـب قفطانـه، مربع النقوش، ويمسح به بقوة المقعد القش المحدب قليلاً في الكرسي الوحيد الموضوع أمام المائدة، وأمـي تقـول لـه، بصوت بارد وكأن فيه عدم تصديق: وأنت طيب، كتّر خيرك يا معلم عوض، وازي المحروس إسكندر؟

جلست أمي على الكرسي بحذر، وانحسرت ملاءتها عن فستانها الذي كان بلون سمني ليس ضيقًا ولا واسعا بـل فقط موجٍ أنثوي، ووقفت وعيناي معلقتان بالحيوان الواقـف جنب المعصرة، ركيناً وقريبا من الأرض، وخطمـه يعمـل بإصرار في مخِلاة التبن الذي تناثرت أعواد جافةٌ منه علـى الأرض الغمقة الموحلة قليلاً بالزيت.

قال المعلم عوض: بخير يا ست سوسن بخير، نشكر الرب ... إسكندر ... يا واد يا إسكندر، تعـالَ سـلم علـى خالتك أم ميخائيل.

وجاء من جوف " السيرجة " ولد في مثـل سـنّي، محروق الوجه وجافّ على جلابيته بقع حائلة، وسـلّم علـى أمي بغضب وصمت، ولم ينظر إلي، وجرى راجعا إلىمـا وراء الأعمدة الثقيلة المربعة .

وكان في أركان " السيرجة " رجال نـائمون علـى "شوالات " فارغة على الأرض أو مستندون بظهورهم إلـى أكوام " شوالات " السمسم المليئة، وتصدر عـنهم أصـوات غطيطٍ خفيف أو أنين خافت مكتـوم، وفهمـت بقليـل مـن الرعب، أنهم لابد قد سهروا طول الليل يحملون ويعتلـون ويعصرون، حتى الفجر.

كانت صفيحة " السيرج " الصغيرة ثقيلة مع ذلك في يدي والحلقة المستطيلة التي أحملها منها، مصنوعة من معدن مدور رفيع، تهدد بالانخلاع وتحـز فـي بـاطن أصـابعي وتحرقها قليلاً، وقالت أمي ونحن في طريق العـودة: تقيلـة عليك يا ميخائيل؟ فقلت بشجاعة: لا أبدا، وأنا أغالب وجـع

الحز في أصابعي والخَدر في ذراعي لأنني فرحـان بعيـد رئيس الملائكة الذي كنت منذورا له، وكنت أعرف أنه هـو الذي دحرج الحجر الضخم عن فتحة قبر المسيح القائم مـن بين الأموات.

وفي البيت كانت أمي تصب " السيرج " من الصفيحة إلى طشت أبيض صغير لتُصفّيه من عكارة السمسم الدقيقـة العالقة به، وكان الزيت ثقيلاً ولونه أصفر عجيب الصفاء وله قوام شفاف متموج ومتماسك.

وفي الليل قامت أمي تُقرص فطير الملاك في الشرفة الواسعة العالية المطلّة على الشارع الناعم، وتضغط على كل قرص بالخشبة المدورة الممسوحة بالسـيرج، التـي عليهـا خطوط غائرة خشنة الحدود تعطي صورة للمـلاك يحمـل الميزان وحوله فروع نباتات دائرية، وكلمات بالقبطية عرفت أخيرا أنها يسوع المسيح ابن ا وفوقها الصـليب القبطـي المورق الأطراف، ورأيت القمر مستديرا كامل الفضة كأنـه باب القلب المفتوح في السماء.

وفي الصبح أعطاني أبي عيديتي، أنا وحدي، حِتّـة بخمسة، فضية جديدة عليها طغراء باسم السـلطان حسـين،

وقبلني على جبهتي ونزل للشغل، وبعد أن رجعنا من الكنيسة قالت أمي: إننا سنذهب لخالي حنّا نسلّم عليهم ونعطيهم فطير الملاك، وخرجنا حتى شارع " الترامواي " وكانت هناك أمام الكراكون ثلاث أربع عربات حنطور واقفة، وساومت أمـي العربجي حتى وافق على ثلاثة صاغ وكان يلف رأسه بشال مخطط وملون ووجه أعجف مخَدد وفيه تَرفع، ويكح بشـدة من وقت إلى آخر، وكنت محبطاً قليلاً لأنني لا أستطيع، هذه المرة، أن أركب بجانب العربجي، وراء الحصان من فـوق، لأنني كنت أحمل بين ذراعي أقراص الفطير، ملفوفة بـورق من مجلة قديمة وعليها فوطة بيضاء، وكنت أحس بـالفطير، من وراء الورق والقماش هشـا سـريعا إلـى الانكسـار، وأحرص ألا يصطدم بشيء، وكان العربجي يسـابق تـرام محرم بك وهو يفرقع بالكرباج فوق ظهر الحصان الذي لـه لون " الكونياك " الفاتح الذي يشربه أبي، وكانـت عجـلات العربة تفرقع على قضبان الترام التي تومض في الشمس.

ودخلت العربة إلى شارع الرصافة، وكانت الأشجار ظليلة في الصبح والشمس تهتز من بين أوراقها التـي لهـا رقرقة سريعة الموج وجافة في الهواء الرطب. ثـم حـودت

العربة إلى شارع جانبي ترابي ولكنه واسع، وفيه خرابات مسورة بالحجر الأبيض الكبير المكسر الضلوع وفي الحجر خطوط متعرجة داكنة اللون، وفيه بيوت كالسرايات لها أسوار حديدية تتهدل عليها أغصان كثيفة وتهب منها رائحة الياسمين البلدي العبقة ورائحة الأرض المبلولة.

نزلنا أمام سور البيت. وكانت أمي تلبس فستانها السمني اللون من غير ملاءة، وتضع قبعة صغيرة من القماش، " البيج " الفاتح وعليه عنقود صغير، مرتب بمكر، من حبوب الكريز الاصطناعية وزهور قاتمة الحمرة على أغصان رقيقة جدا خضراء، مشبوكة كلها بالقبعة بدبوس مذهب في غاية الدقة.

كان الباب الذي وقفنا أمامه ضيقا وعاليا ومصنوعا من الحديد المشغول الصدئ، ودفعناه من غير أن ندق عليه فانفتح، ببطء، عن ممر عرضي ضيق يحيط بالبيت، مزروع. وكانت هناك وراء الباب، مباشرة من الداخل، حنفية ماء غليظة الفوهة قائمة على عمود رفيع قصير،، ينزل منها سلسال أبيض مزبد مستمر تكونت تحته بركة صغيرة موحلة.

وصعدنا ثلاث درجات حجرية إلى باب البيت المقفل المصنوع من الخشب البني السميك وعليه كرانيش طويلة عرضية ومثلثات بارزة من الخشب نفسه وله نافذة من الزجاج المحبب غير الشفاف تُفْتح من الداخل، وكان في الجنينة العرضية الضيقة بين السور الحجري وحائط البيت ثلاث نخلات طويلة، تنبثق متلاصقة الجذور، وتَنْفَرع جذوعها الخشنة المضلعة الحواف ثابتة في انشعابها، مائلة متباعدة بعضها عن بعض وسعفها العالي يهتز في الهواء بعيدا فوق سطح البيت المنخفض الطويل.

فتحت لنا الباب أولجا بنت خالي حنا، وكانت طويلة وبيضاء وجاحظة العينين، وتلبس جلابية فلاحي من قماش مشجر، وانحنت علي وقبلتني بفمها الواسع وأسنانها البارزة الموحية بطيب القلب، وأحسست بثقل ثدييها بصلابة، على وجهي وهي تميل علي بشفتيها الكبيرتين، ونَشَقْتُ منها ريحا حريفة غامضة، وكنت أتعجب، عندما سارت أمامنا ونحن ندخل البيت، من أن عجيزتها مدورة وملفوفة وليس لها جانبان مشقوقان بل هي كتلة واحدة مكورة. وكانت كبيرة

السن وأمي تقول عنها: إن عندها ثلاثين سنة وأكثر، وإنهـا عنّست يا حرام.

وكان البيت معتما وفيه رائحة عطَن مترب خفيـف من السجاجيد المفروشة والأثاث الخشبي الثقيل الذي لا يرى الشمس، وعلى جانبي الفسحة الطويلة التي دخلناهـا أبـواب غرف متقابلة مقفلة تنسدل عليها ستائر من القطيفة الداكنـة الحمراء الحائلة اللون، كل ستارة منها مفتوحة إلى جـانبين مرفوعين ومثبتين بمقابض نحاسية لامعة علـى عارضـي الباب، ولهما شراشيب كثيرة الخيوط من نفس لون السـتارة، وعلى الحيطان الملساء المدهونة بالزيت، الداكنة الصـفرة، صور قديمة بيضاوية، باللون البني " السيبيا " الفـاتح، فـي إطارات بيضاوية أيضا لرجال بطـرابيش تركيـة قصـيرة وياقات صلبة منشّاة وشوارب كثيفة مستدقة الأطراف، وفـي سقف الفسحة نجفة كبيرة مطفأة ورائحة خاصة هي رائحـة العز الرث القديم المختبئ الذي لا نعرفه فـي بيتنـا أمـام "وابور " الدقيق في غـيط العنـب، بحجراتـه المتقاطعـة المفتوحة الأبواب دائما، المنيرة بضوء الشمس، التي نسكنها

نحن وأخوالي وزوجاتهم وجدي وجدتي كلهم معنا، ولا نحس بالزحمة ولا الضيق بل الحياة في براح.

خرج إلينا من إحدى الغرف الداخلية حنا بيـه خـال أمي الذي قالت لي إنه موظف كبير قد الدنيا فـي الحكومـة وأنه عضو أيضا في المجلس الملّي. كان عجوزا قائم العـود نحيلا، خشبي الحركة، يتوكأ على عصـا أبنـوس رفيعـة وصلبة، في جلباب أبيض ناصع له ياقة عالية يابسة ملفوفـة حول عنقه الرفيع المتهدل الجلد كعنق ديـك، ولـه عينـان غائرتان في محجريهما متألقتان بسواد ضيق اللمعان، كـان فيهما نوع آخر من الحياة الحادة، وعندما مد إلي يده أحسست ببرودة العظام الجافة وخشونة الجلد القديم، وقال لي مباشرة: إنت كويس في المدرسة يا ولد؟ وكنت لا أحبه ولا أكرهـه ولا أحس أنه يهمني في شيء وكأنه بالفعل ميت من الآن ولا ضرورة له، وكنت أعرف أنه غني جدا وبخيل جلدة، وأن له أرضا في الطرانة قرية أمي، تعـيش علـى ريعهـا أختـاه العجوزان جدا اللتان لم أعرفهما إلا بعد ذلك بسنين في أيـام الحرب فقالت أمي: اسم الصليب عليـه بيطلـع الأول فـي الفصل، فزام حنا بيه من وراء شفتيه المضمومتين الـذابلتين

كأنهما ورقة شجر صفراء تحت شاربه الأبيض المصفر من الدخان، ونظر إلى أمي دون قبول، نظرة اتهام خفيـة بـل إدانة، كأنه لا يصدق، فأحسست بالغضب، ليس لي، بل لها.

كانت أمي قد انقطعت عن صناعة فطير الملاك منذ الحرب، والغلاء، وشح السمسم، ونسيت كـل شـيء عنـه، تقريبا. ودخلت جامعة فاروق الأول ومات أبي في ليلة باردة جدا من ديسمبر، في أثناء الحرب، وحصلت على " مجانيـة فقر " أو " مجانية كارثة " كما كانت تسـمى، لكـي أكمـل دراستي في كلية الهندسة، واشتغلت، مـع دراسـتي، فـي مخازن البحرية البريطانية في كفر عشري، مساعدا لأمـين المخزن، وكنت أذهب إلى المخزن وأمر بالحارس اليونـاني الذي يقف على الباب الحديدي الضخم الجرار، وأنـا أعلـق شارة معدنية سوداء مكتوبا عليها بالإنجليزية " الجلاء " على " جاكتتي " الزرقاء الطويلة وقد اشترتها لي أمي من الملابس المستعملة التي أرسلها الأمريكان كمعونة والتي لم يكن عندي غيرها، وأخلعها وأعلقها على مسمار بحيث تظهـر الشـارة واضحة للعيان، وألبس القمـيص الأبـيض و " الشـورت " البحاري من عهدة المخزن، وكنت أرسـم علامـة المنجـل

والمطرقة عليها رقم ٤ بالإنجليزية والهلال بنجومه الثلاثـة على الحاجز الخشبي الرقيق الذي يفصل بين الركن الذي فيه مائدة من الصاج هي مكتبي، وبين مكتب المستر لي، أمـين المخزن الذي جاء من جنوب لندن وكان يعمل في مخـازن البحرية البريطانية من قبل الحرب. وكان مكتبه أنيقًـا ولـه واجهة زجاجية من عمل الأسطى مرسي البحار الذي يشتغل معنا. وكان مستر لي، من وراء نظارته السميكة المـدورة، ووجهه المكتنز المحمر، والشرايين الدقيقة على أنفه، وهـو يلبس أيضا " الشورت البحاري الأبيض على كرشه الصغير المدور، يقول لي خسارة إن مصريا شابا ذكيا يدرس الهندسة ويمكن أن ينفع نفسه وبلاده يضيع وقته في السياسة، ويقـول لي إنني سأعتقل بعد أن أحصل علـى درجتـي الجامعيـة. وانخرطت في مظاهرات ١٩٤٦ وشهدت اعتصـام الطلبـة وحصار الجيش لربوة العباسية فـي محـرم بـك بدباباتـه الصغيرة الصفراء ذات المدافع الرقيقة، أراها من فوق، كأنها لُعب.

وانتهت الحرب وأُغلقت مخازن البحرية البريطانيـة في كفر عشري وذهب الإنجليز بعضهم على بلاده وبعضهم

إلى ثكنات قناة السويس وتخرجت في كلية الهندسة وقضيت سنةً ونصفًا أبحث عن عمل وأعطي دروسا في الحساب والرياضة لتلاميذ الابتدائي والثانوي وأترجم وثائق الكيمياء والميكانيكا لمكتب براءات الاختراع يملكه مالطي يهودي عجوز قصير متين الجسم يتكلم بالإنجليزية بلهجة الملايطة بصوت عالٍ أجش من جوفه، ووجدت نفسي في قلب الحركة الثورية التي كانت تجيش بها البلاد.

كان إسكندر عوض قد واعدني باللقاء في بار "الكراستة " في الرابعة والنصف بعد الظهر. كنت قد رأيته يسير إلى جانبي، ويهتف بحرارة " الموت للإنجليز " .. "يسقط الاستعمار" في مظاهرة شارع سعيد الكبيرة التي رأيت فيها صبيا يموت برصاص " التومي جن " ويحمله الناس وهو ميت على الأكتاف. وجاء إلي في القهوة الصغيرة التي جلست فيها أشهق وأشرب كوب ماء، وعرفني بنفسه وقال إنه وطني ويحب الوطنيين وكان يخيل إلي أنني أعرفه بشكل ما ولكني لم أتذكر أبدا. وكان يكتب شعرا ثوريا ساذجا باللغة العامية، فيه أصداء من بيرم التونسي وحسين شفيق المصري وأبو بثينة معا، عن غُلّب ومجدعة أولاد البلد، ويشتغل عند

أرمني يملك " فابريكة " بصـطرمة، صـغيرة فـي كـوم الناضورة. وعندما كنت أذهب للقائه في المحل المظلم الـذي تدور فيه " مكنة " عتيقة ذات سكين حـادة ضـخمة دوارة، أرى كتل " البصطرمة " النيئة المدورة معلقة علـى الحبـال كالغسيل تجف وتستوي في الهواء والشمس على التل الترابي القليل الارتفاع، فوق سقف المحـل الـداخل فـي الربـوة، والأعلام الملونة وكرة كبيرة سوداء معلقة في أعلـى كـوم الناضورة. وكنت أكلمه عن حركـة الـوطن ودور الطبقـة العاملة وعن القيمة وفائض العمل وعن ثورة أكتوبر وثـورة سنة ١٩١٩ وعلاقة الأدب بالثورة. وكان في مثـل سـني، وقال إنه لم يكمل دراسته في مدرسة النيل الثانويـة بغـيط العنب لأن أباه كان عنده " فابريكة " صغيرة في غيط العنب وأفلس ومات. ومع ذلك لم أتذكر.

أخذت ترام " الورديان "، وكانت عربـة " التـرام " تتأرجح قليلاً في اندفاعها. وكان شارع السبع بنـات خاليـا تقريبا من حر الظهر، ورطوبة البحر تأتي إلي مـن نافـذة الترام المفتوحة، ونزلت بعد كركون اللبان بمحطتين. وكـان الشارع مرصوفاً بأحجار البازلت السـوداء المحدبـة قلـيلاً

وعلى جانبه مخازن الخشـب والقطـن العاليـة الحيطـان، والورش الصغيرة، ومخازن الخـيش والبصـل، وعربـات الكارو الطويلة واقفة تحت الجدران المصمتة الخشنة القويـة الحجر، وكانت رائحة الفحم ونفايات البحر، خفيفـةً وجافـةً قليلاً، تأتي من ناحية الميناء تحملها بلولة الهواء.

ولمحت البار في منعطفٍ داخل شارع جانبي، اللافتة الخشبية على بابه ما زالت حروفها الإنجليزيـة " بطـاطس وسمك " مقروءة وإن كانت مطموسة تحت بقـع مضـطربة بالطلاء الأسود الذي لطخها به الطلبة الوطنيون بلا شك وقد أقلع جنود الحرب الذين كانوا يملئون هذه النـواحي بعربـدة اليأس والقهر والموت.

دفعت الباب الخشبي القصير المكون مـن ضـلفتين متحركتين وتستطيع أن تطل من فوقه علـى داخـل البـار الهادئ النور، والمرايا على الحوائط مرسومة بإعلانات فيها زجاجة " كونياك أوتار " كأنها مجسمة داخل المرآة، وخلفها كتابة بالذهبي الباهت على أرضية سوداء مشققة، والمرايـا المقابلة تتراسل بزجاجة " الأوزو " و " براندي جناكليس " و " ويسكي الحصان الأبيض " وكان البلاط الأسود الذي يكسو

أرض " البار " باهتا قليلا والموائد الخشبية المربعة مصفوفة تحت الحائطين القريبين أحدهما من الآخر، ومنصة " البار " مغلقة بشبكةٍ نازلةٍ من الحديد، في نهاية المحل، وبجانبها باب خلفي صغير.

كان إسكندر عوض قد قال لي: إن البوليس لا يمكن أن يشتبه في اجتماع ينعقد في بار صغير في باب الكراسته، وقال لي: إنه سيحضر معه ملاحظ عمال من رصيف الفحم, وإنه ولد " مجدع " ومثقف أيضا، وإن الحركة يجب أن تكون موجودة في عمال الميناء، وإنني لو أحضرت معـي شـيئًا، بيانات مثلاً أو مجلات أو كتبا، ليقرأها الزميل الجديد ويقول ما فيها للعمال الآخرين في الميناء يكون هذا شـيئًا عظيمـا ويدفع الحركة إلى الأمام، وشدد علي في هذا، وكنت مع ذلك أتوخى معه الحذر الكامل وقواعد الأمان ولا أتحدث معه إلا بكلامٍ عام وأحرص ألا أشير إلى اسم محدد, مكان معـروف أو أي ميعاد لأي نشاط، ولم أقل له حتى عن اسـمي وكـان يعرفني باسم مستعار. وعندما دخلت رأيته في عتمـة آخـر البار ومعه امرأة.

كان وجهه الطويل المتهضم لامع السمرة تقريبا في نور بعد الظهر الكابي وكان الجو في البار الخاوي منعشًا ببرودة خفيفة من البلاط والظل الرطيب بعد شمس الشارع.

قام إسكندر عوض يسلم علي، وقال لها: الباشمهندس يوسف اللي كلمتك عنه. وهو يومئ إليها برأسه، ثم همس إلي: زيزي، ما تخافش، هي عارفة، ومعانا بكل قلبها وحياة المسيح.

مدت إلي يدها وهي جالسة، من فوق المائدة، بين زجاجتي البيرة " الاستيلا " وأكواب البيرة الطويلة المكتوب عليها بالإنجليزية " زوتوس " وأحسست يدها رخوة وباردة وليس فيها عصب، كأنها سمكة بأصابع طويلة تنتهي "بالمانيكير " الأحمر القاني، وكانت تلبس فستانًا ناعمًا بلا أكمام وفتحته تحت الذراعين واسعة تكشف جانبا من صدرها، ولمحت الزغب الأصفر الخفيف الهش جدا على ذراعها الممدودة إلي في النور الخفيف.

قالت، مباشرة، في هجوم جنسي واضح ومستتر وطيب القلب، من أول وهلة:

ـ يا أهلاً بالباشمهندس الحليـوة الصـغَير بتاعنـا، اتفضل اتفضل يا حبيبي ..

وأحسست الدم يملأ وجهي ويطن في أذني ولكننـي قررت أن هذه التحية ليس فيها ما يضير بكرامتي وأن البنت على العكس تتحبب إلي، فغمغمتُ بكلمات مدغمة، وانفجرتْ هي فجأة بضحكة صافية وبريئة وليس فيها أدنى شبهة مـن مهنتها.

كان هناك جزء صغير جدا بارز إلى الأمـام مـن شفتها العليا الرقيقة، يظلل أسنانها الصغيرة البيضاء، وشفتها السفلية مليئة، على العكس، ونازلة تعطـي وجههـا إيحـاء شهويا صريحا، لكن شفتيها كانتا بريئتين تماما مـع ذلـك، وبلونهما الطبيعي ليس عليهما طلاء، وشممت عطرها الجاف الرقيق عندما مدت ذراعها إلي، وكان وجههـا يقـول إنهـا صحت من النوم متأخرة جدا، عيناها منتفختان قليلا وفيهمـا نظرة ثقيلة، ويوحى بأنوثة كثيفة وحنو كثيف .

وقال إسكندر عوض : تشرب إيه يا باشمهندس ؟

وصفق وبرز من عتمة آخـر البـار " جرسـون " يوناني عجوز، يتحرك برشاقة وخفة، يضع فوطـة بيضـاء

على كتفه فوق " الجاكتة الأسموكن " السـوداء، وبنطلونـه ضيق وطويل مخطط، وجهه مخَدد نظيف التجاعيد وعينـاه مدفونتان . وكنت " بيوريتانيا " جدا في تلك الأيام، لا أدخـن ولا أشرب إلا نادرا، ولا أعرف النسوان، ولكنني على سبيل التحدي طلبت براندي، وفي ثانية كان " الجرسون " اليوناني يضع أمامى الكأس المفلطحة العريضة وثلثها يترقرق بالسائل الأصهب الثمين الشكل .

قلت له ماذا حدث ؟ ولماذا لم يأت صاحبنا ؟ فقـال إنه لابد سيأتى حالا، وهل أحضرت معي الورق والأشياء ؟ فلم أرد عليه، واقتربت زيزي مني بوجهها الأبيض المثقـل وحاجبيها المقوستين الرفيعتين جدا وسألتني، متـوددة، أيـن أشتغل ؟ ومن أين أنا في إسكندرية، ورددت عليهـا بكـلام عام، وكان صدرها المحبوك المستدير مستندا الـى المائـدة متكورا في داخل الفستان الخفيف الذي يكشف عن قمـيص داخلي أسود له شرايط من الدانتيلا يلم الصدر الوافر الـذي يبدو دسما ومتحفظا وبكرا وفيـه تأكيـد خفيـف للمـرأة لا للأنثى . وكنت قلقا وغير مستريح وهي تتحدث عن الأحوال والشغل الذي أصبح خفيفا ولا يسـاوي التعـب والبهدلـة،

وأحسست ساقها من تحت المائدة تمس ساقي وكان" البراندي" قد نزل حارا الى قلبي وأحسست بالصلابة والتوتر الحمـيم بين ساقي، ثم قامت فجأة، ودارت حول المائدة ورفع إسكندر وجهه إليها مندهشا متسائلا، ومدت إلي يدها وقالت بهدوء : تعالَ معي .

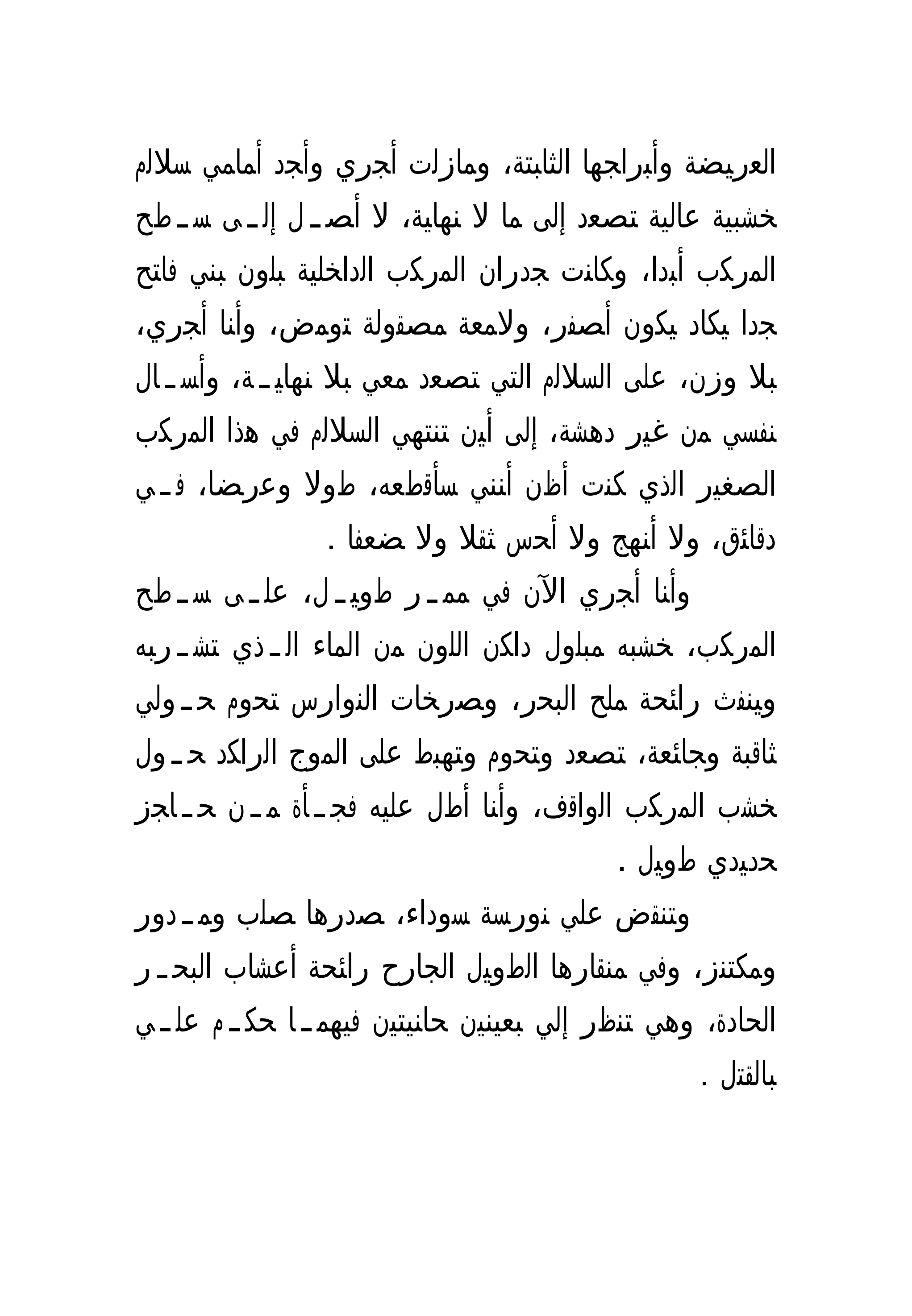
ودارت بي خواطر مفاجئة، وتجسمت في ذهني ثـم اختفت على الفور صور مخطوفة من سافو دوديـه، ونانـا زولا، وغادة الكاميليا، وغرفة زيري التي تخيلتها عاويةً على سلالم من وراء الباب الخلفي الصغير، وستائرها خفيفة شفافة تطل على البحر وعلى باب القلب المفتوح وهـوس الجـنس وعربدته، ومناعم الجسد كما رأيتها، أول مرة، في الراقصة البلدي، عارية، وأنا في الثانية عشرة، في فرح بجوار بيتنـا في محرم بك . وارتعت من احتمـال الإصـابة . بمـرض سري، وفكرت أنني لا أحتمل أجرة العلاج، ونفيتُ ذلك كله عن نفسي ولم أكد أخطو مع أول خطوة، وكأنما حدست مـا بنفسي فابتسمت لي عن أسنانها الصغيرة بغموض وغوايـة، فهل كانت غرارتي وعنف براءتي هما ما أغوياها؟

ولكنني كنت صاحيا جدا مع ذلك، وأنا أقوم معهـا، والتفتت هي إلى إسكندر عوض بحسم، وقالت " إيه يا سـي إسكندر ؟ وانت مالك ؟ خليك إنت هنا يا نور عيني . وكانت يدي في يدها وهي تخرج من الباب الخلفي الصـغير خلـف البار، ونزلنا درجتين حجريتين زلقتين من البلـل وعشِـيتْ عيناي قليلا من بهرة نور بعد الظهر، ووجدت أنني معها في طرقة مبلطة بين حـائطين عـاليين، وصـفائح " الزبالـة " وصناديق البيرة " المليئة بالزجاجات الفارغـة إلـى جانـب الحائط، وكانت الشـمس تنـزل سـاخنة بـين الحـائطين المسدودين، وباب حديدي أسود صغير مكتوب عليه بالأبيض GENTS بالإنجليزية، ممسوحة وفوقها صـورة بيضـاء لرأس عليه خوذة عسكرية مدورة نظرت إلي وأنـا واقـف متحيرا في الطرقة وقالت، غاضبة وحارة بهمس خشن .

امش من هنا، يا روح من غير ما تسأل، امش يا يا حبيبى امش . ولكنني أحسست فمها على خدي، فجأة، في قبلة خاطفة ملِحة، ودفعتني بيدها، برفـق، وأقفلـت البـاب عليها . وسطع في ذهني على الفور أنني نجوت من الكمـين ولم أتذكر الملاك ميخائيل .

ووجدت نفسي أنهج قليلا من المشي الجاد السـريع، في الترام العائد إلى المنشية، وعرفت معنى الأمن بين الناس الصامتين، ولم أر إسكندر عوض بعد ذلك، أبـدا، وبعـدها بكثير تذكرت مرة واحدة، وعرفت أن الخيانة والنقاوة، لهما طرق خفية .

كنت قد نزلت من الترام، وكنت أصعد على صـقالة خشبية بها حزوز بارزة أثبت بهـا قـدمي، إلـى المركـب الصغير المربوط بالرصيف يتـأرجح قلـيلا علـى الميـاه المخضرة الثقيلة القوام التي تطفو عليها، وسط زبـد أبـيض كرغوة الصابون غير النظيفة، عكارة، وأوراق خضـراوات ذابلة، وقطع خشب عليها بقع زفت سوداء،حول جنزير الهلب الساقط في العمق الداكن، تبرق في موجه نُقَـطٌ حـادة مـن شمس بعد الظهر، وكأن زملائي من مدرسة النيل الابتدائيـة قد ابتعدوا عني جدا ولكنني أسمع صـوت أقـدامهم تصـعد السلالم الضيقة إلى سطح المركـب، وضـحكهم ولغطهـم ونداءاتهم، وأعرف أن ذلك كان من زمـن بعيـد . وكـان المركب خاليا تماما، وفجأة، وأنا أجري في ممرات تفتح على ممرات مفتوحة وفيها نوافذ زجاجية مدورة أرى منها أمواج البحر الزرقاء العالية وجوانب البواخر الشـاهقة ومـداخنها



العريضة وأبراجها الثابتة، ومازلت أجري وأجد أمامي سلالم خشبية عالية تصعد إلى ما لا نهاية، لا أصل إلى سطح المركب أبدا، وكانت جدران المركب الداخلية بلون بني فاتح جدا يكاد يكون أصفر، ولامعة مصقولة تومض، وأنا أجري، بلا وزن، على السلالم التي تصعد معي بلا نهاية، وأسال نفسي من غير دهشة، إلى أين تنتهي السلالم في هذا المركب الصغير الذي كنت أظن أنني سأقطعه، طولا وعرضا، في دقائق، ولا أنهج ولا أحس ثقلا ولا ضعفا .

وأنا أجري الآن في ممر طويل، على سطح المركب، خشبه مبلول داكن اللون من الماء الذي تشربه وينفث رائحة ملح البحر، وصرخات النوارس تحوم حولي ثاقبة وجائعة، تصعد وتحوم وتهبط على الموج الراكد حول خشب المركب الواقف، وأنا أطل عليه فجأة من حاجز حديدي طويل .

وتنقض علي نورسة سوداء، صدرها صلب ومدور ومكتنز، وفي منقارها الطويل الجارح رائحة أعشاب البحر الحادة، وهي تنظر إلي بعينين حانيتين فيهما حكم علي بالقتل .

٣) الموت على البحر

أرى الولد، صغير الجسم، ساقاه رفيعتان في " الشورت " الأبيض الواسع وقميصه مفتوح . عيناه كأنما فيهما نظرة متأملة، مبكرة كثيرا عن سنه، وهو يقف في أول الصبح على حافة البحر الموحش، عند " المندرة " .

أمامه صفحة ساكنة وشاسعة، مشعة ولا تكاد تترقرق، دسامة بيضاء في الضوء الذي يكاد يكون شتويا، تنتهي برغوة شفافة تغوص في الرمل بوشيش خفيض، متكرر .

أُحِس، عبر السنين الطويلة، بالنداوة اللينة تحت قدميه الحافيتين، والهواء المبلول على وجهه .

وأجد أن الشوق، مثل نزوع الموج، يرتمي على الشط ممدود اليدين، بلا تحقق، مثل اندفاع الماء، مستنفذا بعد رحلة طويلة على ثَبَجِ العمر، ينكص محسورا أبدا إلى عرض اليم العميق، ولا يفتأ يعلو وينحسر، حلمه يأتي ويعود، لا يهدأ إلى راحة، وكأنه لم يترك خط النهاية المتعرج، لحظة واحدة .

في تلك الساعة لم يكن هناك غيره علـى الشـاطئ الواسع .

وعلى مسافة كبيرة داخـل هـذا الامتـداد السـاكن المتسايل تحت سماء خفيفة اللـون، كنقطتـين، أراهمـا، لا تكادان تتحركان، أعرف أنهما أبى وأمى وحدهما في البعـد الفسيح، وأريد أن يرجعا، بسرعة، إلي .

يصل الموج الطفيف إلى قدمي، ويترك غشاء فضيا رقيقا لا يكاد يجف، وهو يلمع، حتى يبتل من جديـد بزبـد يتقطع ويذوب.

في تلك السنة استأجرنا " كابينـة " فـي مصـيف أصدقاء الكتاب المقدس في " المندرة " وكان للمصيف سـور منخفض من الطوب الأحمر حـول أرض واسـعة ناعمـة الرمل . وكنت أحب أن ألعب تحت النخل العجـوز العفـي الخشن الخراشيف، بين " الكباين " الخشبية المتناثرة من غير نظام، وأن أنظر إلى عناقيد البلح الأخضر المـدور تقريبـا بغضارته الكثيفة تحت السعف العريض وهو يهتز بأطرافـه الشوكية المسننة على زرقة السماء التي تكاد تكون بيضاء . وكانت الفراخ تجري وتنقّ وتلقط أكلها مـن الرمـل تحـت

النخل وحول الكباين " ونقفل الباب الخشبي في السور، عندما نجرى وراءها، أنا وأمى، لنمسك واحـدة، وتـذبحها أمـي بالسكين الحادة التي تومض في الشمس، وهي تقول "باسـم الصليب وشارة الصليب كاك كاك إلهي يصبرك علـى مـا بلاك "، ثم ترمي الفرخة على الرمل تصـفي دمهـا وهـي تجري قليلا ثم تسقط وأجنحتها تتخبط بجسمها .

وكنت أعد الأيام لأنني سأدخل المدرسة الثانوية بعد هذا المصيف مباشرة، وأفرح بكل يوم جديد، وكنت أستوحش مع ذلك إلى أخواتى البنات عايدة وهناء ولويزة التي كبـرت الآن وتمشي في البيت على رجليها غير الثابتتين وتصـرخ وتقول بضع كلمات، تركناهن في بيتنا في غيط العنب مـع جدتي أماليا وخالتي وديدة وخالتي سارة وأخوالي .

وكان أبي يأخذ حمام الصبح مع أمي، مبكرا جدا قبل القهوة، هو " بالمايوه " الأسود الطويل الطويل كـ "الفانلة " وجسمه كالعود مشدود وله عضلات جافة ونحيلـة وهـي " بالمايوه " القماش، الغامق الزرقة، مقفل تمامـا، لـه أكمـام قصيرة مكشكشة عند أعلى الذراعين وينزل إلى الـركبتين،

وكانت قد فصلته وخيطته بنفسها على " الماكينة السـينجر " القديمة الرفيعة البطن التي بهتت الكتابة الذهبية عليها، قليلا .

وأجري معهما، وأنا لما أكد أصحو من النـوم، بـ ـ "الشورت" الأبيض والقميص الخفيف، نعبـر " الكـورنيش " اللامع السواد من أمام المصيف مباشرة، هواء البحر البـارد بعد كِن " الكابينة " ودفئها يصدم وجهي، والسيارات قليلة جدا في هذه الساعة، وننزل إلى الرمل الواسع المتحدر، ولـيس فيه ولا شمسية، وأقف على حافة الماء وأنتظرهما حتى يعودا من البحر وعلى ذراعي الفوط الطويلة الكثيفة الوبرة .

وتخرج أمي من البحر، ناصعة ومضـيئة وناعمـة، وشعرها القصير المقصوص مبلول يقطر الماء، ويلحق بهـا أبي، قائم العود، ينظر إليها بحب، وطيبة، بعينيـه الثـاقبتين العميقتين في وجهه الحاد العظام . ويلتفان بالفوط، ونرجـع جريا إلى " الكابينة " .

وفي الدفء الذي يأتي من خشب الكابينة " المغلـق، يغيران، ونقعد لنفطر على الطبلية المنخفضة، وبعد الفطـور نتربع على الكليم الأسيوطي، ويصنع أبـي قهوتـه السـادة بنفسه، على " السبرتاية " الصغيرة بلهبها الأزرق يتـراقص

تحت الكنكة، ويحكي لنا حكايات عن أيام شبابه عندما كـان صرافا في الصعيد يطوف القرى حول إخميم علـى حمـاره الميري، ليجمع ضريبة الحكومة من الفلاحين، وكان يضـع تحت لسانه فتفوتة مكورة لدنة القوام يكحتها بعود كبريت من عجين أسود لزج، في علبة صفيح مبططة صغيرة، ثم يذهب فيأخذ " الأوتوبيس " إلى شغله ولا يعود إلا على العشاء .

وأكون أنا قد أكلت من زمان، وأكاد أسقط من النوم، ولكني أنتظره وجسمي هادىء وثقيل بهذا التعب الحلو الـذي يأتي من اللعب والجري على البحر طول النهار، بينما هـو يتعشّى على الطبلية المحملة بالعيش البلدي الطـازج وورك الفرخة والجبنة الرومي والبيض المسلوق مقشرا ومقطوعـا الى شقين قد عصر عليهما الليمون، ويشرب على العشـاء، كل ليلة، ويصب لي كأسا صغيرة من خمسينية "الكونيـاك " الصهباء اللون، أحس طعمها لاذعـا وممتعـا، وأنـا علـى مشارف النوم، وهو يحكي مع أمى .

كان خالي ناثان يسوق " الأوتـوبيس " الأخضـر " بهيكله المربع، على الكورنيش بين أول سيدى بشر والمندرة، وكنت بعد الفطور مباشرة ألبس "المايوه" الضيق الذي يحبك

علي وقد صنعته لي خالتي وديدة مـن الصـوف "التريكـو" الأحمر، تحت " الشورت " القطيفة الأسود الذي بحمالات فيها زراير بيضاء كبيرة، وأدس تحته القميص الحرير اليابـاني، وأخرج جريا من " الكابينة " وأمي تقول لي : خل بالك مـن الأوتومبيلات وأنت بتعدي بص يمين وشمال وهي مشغولة أمام " وابور " الجاز تطبخ للغداء، في " الكابينـة " المعتمـة قليلا .

وأعبر الكورنيش، بعد أن أنتظر، واجف القلب حتى يخلو من السيارات القليلة، وأثب إلى رصيف البحر، وأمشي قليلا إلى محطة الأوتوبيس، فإذا جاء وقف لي حتى ولو لـم يكن في المحطة غيري، فأصعد الدرجة الحديدية التي كنـت أجدها عالية قليلا، ويشير إلي خالي ناثان بوجهـه الصـغير الأسمر المدور وعينيه الضيقتين الحانيتين اللتين يمتلىء الجلد حولهما بالتجاعيد عندما يبتسم، وأجلس بجانبه على كرسـي صغير ليس له ظهر وكان هذا الحيز الضيق بجانب الباب في مقدمة السيارة الكبيرة، دائما، دافئا بسخونة المحـرك وفيـه رائحة بنزين، وتسحرني شارات منصة القيـادة المسـطحة وعقاربها الصغيرة المضيئة بنور أحمر .

وفي أول سيدي بشر يقف لي خالي، من غير محطة؛ فأنزل وأعبر الكورنيش مرة أخرى، متلفتا عن يمين وعـن يسار، وأذهب إلى " لوكاندة رانة " حيث ينزل بقطـر ابـن عمتي كل سنة . وحتى بعد أن أستأجر أخوه رفلة أفندي، " كابينة " في المندرة قريبة جدا من مصيف أصدقاء الكتـاب المقدس، استمر بقطر ابن عمتي ينزل في هذه اللوكاندة ولـم تكن أمهما عمتي تماما، بل بنت عم أبي، وكانا يناديان أبـي يا خال، ويقولان لأمي يا مرة خالي، وكانت هـذه القرابـة تحيرني وتغويني .

وكان بقطر ابن عمتي يأتي من إخميم يقضي شـهر سبتمبر كل سنة في سيدي بشر، بعد جمع محصول البصـل وتشوينه، وكان في عنفوانه، لم يتزوج بعد، طويلا فارعـا، داكن السمرة، في وجهه المستقيم الخطوط وسامة ورجوليـة كاملة، وله ضحكة بصوت أجش متملّك .

وعندما أدخل من باب " اللوكاندة " أحس على الفور بنفح البلل والعتمة الهادئة بعد نور البحر الصـافي . الأرض المبلطة، من غير سجاد، رطبة وعليها ماء قليل، وفي الداخل كله رائحة عامة وحميمة في الوقت نفسه، وكانت صـاحبة "

اللوكاندة " مدورة الوجه، رائقة السمرة، ممتلئة قليلا، تجلـس وراء المنصة الدائرية في المدخل، وعنـدما تراني أدخـل ترحب بي بصوت ناعم أحسه يدغدغ في اهتـزازا داخليـا، أهلا يا عَنَن يا حبيبى، تعال، تعال عندي هي الرجالة برضو ينكسفوا، وتعزم علي بالشيكولاته، دائما، كل مرة، فأرفض، وأتأبى، دائما، كل مرة حتى تغريني بأن آخذها بصوتها هذا الدسم الكسول، وهي تجذبني قليلا إليهـا، وتضـع ذراعهـا الرخصة العارية على كتفي وتضمني، قليلا، إليها، وتنظـر إلي، من فوق، بعينيها الواسعتين اللتـين تهتـز خضـرتهما الداكنة وتسيل بحنو أنثوي يملأ قلبي، ثم تقول فجأة : اطلـع بقى قريبك مستنيك فوق، واللا عايزنا نطلعو معاك ؟ فـأهز راسي وأجري أصعد السلالم غلى غرفة بقطر ابن عمتي في الدور الثالث .

وعندما أطرق باب غرفته، وأدخل دون أن أنتظـر الأذن، أجده ينتظرني، عادة، وقد لـبس " المـايوه الفانلـة " الطويل الذي يشبه " مايوه " أبي بحمالات عريضـة وفتحـة عاليه تصل إلى تحت الرقبة بقليل، فيضع البرنس المخطـط على كتفيه، ويأخذ فوطة معه وننزل معـا وعنـدما نعبـر

الردهة، أمام صاحبة " اللوكاندة " كان وجهه فيـه، دائمـا، نظرة غائبة متحفظة، وكانت هي لا تنظر إلي ولا تحييني .

ويمسك بيدى لنعبر الكورنيش، وننزل السلالم القليلة، ونسير حتى البقعة الفسيحة عند شاطىء الطاحونة، أخلـع " الشورت " والقميص وأرميهما، مع الفوطة والبـرنس علـى الرمل، وألعب عند حافة البحر حتى يصل الماء إلى أعلـى صدري ولا أدخل كثيرا . وكان ابن عمتي بقطر هو الوحيد الذى أحس الأمان معه في البحر، كان يسبح إلى الداخل ثـم يعود إلي . يتوغل في البحر من جديد ويعود . وكنت ألعـب وحدي، بينما هو في البحر، على الرمل المبلل الذي يخبطـه الموج وينحسر عنه، أصنع قوالـب مـن الرمـل الطـري المتماسك، مصنوعة في علبة كبريت فارغة، وأحفر حفـرة ضيقة أجهد في تعميقها حتى يملأها الماء . يخـرج أخيـرا، شامخ الطول يسيل الماء على جسمه، فيتلقف البرنس وأجفف نفسي بفوطته السميكة التي سخنت الآن وألبس . ويذهب هو إلى " اللوكاندة "، أما أنا فأسير إلى المحطـة، حتـى يـأتي أوتوبيس خالي ناثان، فأعود معه وأنا خفيف الخطو متـوهج الجسم من الشمس والبحر واللعب في الماء والرمل .

وفي مرة تأخرت، عندما دخلت " اللوكاندة " فزعـت فزعا غامضا لأنني لم أجدها في الردهـة، وراء المنصـة . واندفعت، كأنني مروع، إلى غرفة بقطر ابن عمتي، وفتحتها على الفور، فوجدتها أمامي، وهي تعتدل واقفة جنب السرير المهوش الفرش، وتزرر الزر الأعلى من "الروب " الخفيف الذي يترك ذراعيها المليئتين عاريتين متفجرتين بالبضاضة، وهي تسويه على فخديها السـمراوين المتجسـدتين وراءه، فحدست أنها تلبسه على اللحم، وكان ثدياها بدورانهما المكتنز يهتزان تحت النسيج اللدن، والجزء الذي يبدو مـن الفتحـة الواسعة يلتمع بالعرق، وشعرها الخشن مهوش قليلا ومنـدى على جبينها، وضحكت وأنا أندفع داخلا ثم أتجمد مرة واحدة، ضحكة خافتة، وكان صوتها ناعما وليس فيه أدنـى حـرج وهي تقول : " يوه .. هو أنت ؟ يقطعني وأنت داخل كدة زي الساروخ . طب تعال، تعال هنا يا حبيبى " .

وأدخلت يدها في جيب الروب وبحثـت قلـيلا ثـم قالت : " أهه .. الشيكولاته بتاعتـك .. خـد .. " ولكننـي رفضت تماما، هذه المرة، وأطرقت براسي في عناد ففهمت، ولم تصر، ولم تضحك . قاومت البكـاء بشـجاعة، وهـى

تجذبني من يدي، وتجلسني جنبها على السـرير، وأطعتهـا، وأحسست لحمها الحار من وراء " الروب " المشـقوق مـن الوسط تماما على صدرها ومنتصف بطنها وبـين سـاقيها، ومزرر بازرار مستديرة كبيرة من الصدف الأبـيض الـذي يومض . وكان جسمها باذخا ومبذولا، وأحسست بغمـوض أنها تراهن به في لعبة خطرة، وخفت عليها، ونشقت رائحتها الخفية وكان وجهي يضطرم، ولم أبك بل كنت غاضبا . أما بقطر ابن عمتي فقد كان نصف راقد نصف جـالس علـى السرير، بالجلابية " البوبلين " البيضاء الناصعة ياقتها الصلبة الدائرية مفتوحة على صدره العريض، ونظر إلـي بابتسـام وقال لي بصوته الأجش قليلا : " يوه يابن خالي .. عوجـت لغاية دلوجيتي جلنا ما جاييش عاد . مالـك داخـل كربـان ومزعول ؟ اجعد اجعد.. خد نفسك لما ألبس " . وقال للسيدة التي معه بلهجة من لا يريد أن يخفي شيئا، وبصـوت فيـه بساطة التملك ونهائيته : " ناوليني الكوستيم من الـدولاب " فاعطته له ودخل الحمام يغير ملابسه، وجاء وشيش البحـر، فجأة، في الصمت الذى حلّ في الغرفة، مع أصوات عجلات السيارات تكشط الأسفلت، وترنم بائع المنجة، يتغنـى معايـا

تيمور .. هندي ألفونس، واحتكاك عجلات الترام بالقضـبان في المحطة القريبة . مازلت أرى الولد يذهب إلـى فراشـه غير المألوف في "كابينة" المندرة . مرتبة مفـرودة علـى الأرض ومغطاة بملاءة سرير، ويغوص تحت " الكبرتايـة " القطنية البيضاء المشغولة بنقوش أزهار وأوراق مطبوعة من نفس القماش ونفس اللون، بارزة وغائرة فيه، تعطيه دغدغة مترفة للجسم، وأعرف معه فرحة المنقضـي بيومـه علـى البحر، وترسبات اليوم في قلبه، وخوفه من مفـازع الليـل وأحلامه المضطربة .

هل كان خاله ناثان أم خاله يونان هو الذي كان قـد حكى عن صدقي باشا والعمل في عنابر السكة الحديـد ؟ أم هو الذي كان قد قرأ عن الحكاية عندما دخل تحـت سـرير خاله يونان وزوجة خاله إستر التى كان يحبها، في بيتهم في غيط العنب، وكان السرير عاليا وفرشه جديدا وعليه مـلاءة من " الساتان " الأخضر تتدلى على أطرافه، وكان هو يحب أن يغوص هناك في العتمة الخفيفة بنور أخضر فـاتح يشـم رائحة الورق والتراب وبقية متطايرة من عطر نسائي يعرفه عند امرأة خاله إستر، ويقلب في الصحف والمجلات القديمة

المرصوصة تحـت السـرير، الأهـرام والـبلاغ ومصـر والصرخة والجهاد، ويقضي ساعات في عزلة عن صـخب البيت وأصواته واحتشاده .

ورأى أنه في محطة باب الحديد الخالية تمامـا فـي الليل، والأرصفة القوية العالية تمتد عريضة وليس عليها أحد وليس عليها قطارات، والسقف الزجاجي بعيدا جـدا فوقـه وتنعكس عليه، من تحت أنوار الأعمدة الطويلـة، ورأى أن القطارات واقفة في خارج المحطة، متراصة صفوفا في ظلام الساحة المغطاة بالقضبان المتعرجـة، متربصـة، صـدور القاطرات اقراص سوداء كاملة الاستدارة منبعجة قليلا إلـى الأمام وكأنها تهم بأن تبعث فجـأة مـن جمودهـا، بالحيـاة والبخار والهجوم، لتدخل المحطة، في أية لحظة الآن، تداهم، وتسحق كل ما أمامها . ورأى نفسه معهم في الجانب الآخر من المحطة، المفتوح على شبكة القضبان الواسعة . وكـانوا كثيرين جدا، متزاحمين بالأكتاف والرؤوس، ولمح في وسط الوجوه المتعاقبة التي تظهر وتختفي في عتمة الليل الضـافية وجوه بقطر ابن عمته ورفلة أفندي وخاله ناثان وخاله يونان وخاله سوريال وجده ساويرس، ولم يدهش عندما رأى بينهم

أخته عايدة التي تصغره بسنتين تحمل أخته لويزة الصـغيرة على ذراعيها فـي وسـط زحمـة سـواقي القطـارات و " العطشجية " " وعمـال الصـيانة و " الكمسـارية " ببـدلهم الصفراء الداكنة وفي أيديهم عصي حديدية رفيعة وطويلـة، وعِدد قطع التذاكر المعدنية ومقراض التذاكر البشع الشـكل، وهم يتحركون ببطء، محتشدين تحت السماء المفتوحة، ورأى بينهم، لحظة واحدة ثم اختفت، رانة صـاحبة " اللوكانـدة " وخيل إليه في لمحة واحدة أنها ترتدي " المـايوه " القمـاش الأزرق المكشكش الأكمام عند أعلى ذراعيها، ولكنه رآهـا عارية تماما وثدياها قائمان مكوران بكبرياء ونعومة مستديرة مليئة، وساقاها السمراوان تلمعان بندى عرق خفيف، وكـان يعرف أنها لا يمكن أن تكون هناك، وأنها ماتت، بغمـوض وفي قلب شيء ما قابض ولكنه لم يصدق ذلك وأحـس لهـا الولد بخجل مكتوم معتصر أكتسحه ثم مضى كأنه لم يوجـد، ثم ضاعت منه وسط زحام حشد الناس وكأنه لم يرها قـط، وكان يعرف أنها ليست هناك . وكان الناس يلوحون بأيديهم وأذرعهم ويفتحون أفواههم صارخين من غير صوت . وكان

معهم، يحس أن موجهم يحمله ويرتمي به برفق، يصعد بـه ويهبط بنعومة من غير صدمة .

ووجد أن الأرصفة قد أمتلات بجنود " بلوك " النظام " بالشورت " الكاكي والياي " الداكن تلتف شـرائطه حـول سيقانهم، على صدورهم أحزمة جلديـة عريضـة متقاطعـة وعلى طرابيشهم أغطية قماش صفراء لها ياقة متدلية علـى مؤخرة رؤوسهم، وفي أيديهم خراطيم الماء القوية تتلـوي، حراشيفها الجلدية شـريرة، كثيفـة الأضـلاع . وتزحـف الخراطيم على الأرصفة من تلقائها، ثم تنتصـب بفوهاتهـا الحديدية المسددة إليهم، وتندفع منها أعمدة الماء المغلي يفور وله وشيش وبخار أبيض يتطاير في دوائر كثيفـة وتـدور وتصعد من فوق انصباب الماء المرغي .

وعلى صرخة يقظته المروعة جاءت أمـي حافيـة، تجري إليه، من على السرير العالي في الجانب الآخر مـن "الكابينة " .

وعلى العكس من ابن عمتي بقطر كان أخوه رفلـة أفندي مدور الوجه أبيض البشرة وناعما قلـيلا، وكـان لـه عينان جاحظتان شيئا ما، تتألقان بـالمرح، وسـريع النكتـة

متدفقا بالكلام وله شارب مشذب ينزل من تحت أنفـه بـين خطين مستقيمين عموديين كشارب هتلر الذي تظهر صـوره في " اللطائف المصورة " .

وقضى رفلة أفندي سنوات طويلـة مدرسـا للجبـر والهندسة في المرقسية الثانوية وكان أعزب وله شـقة فـي محرم بك . وكان يعزف على العود . وعندما كان يزورنـا على العشاء في بيتنا في غيط العنب كنت أسهر معهم علـى المائدة الطويلة الحافلة، قرصها الرخـامي البنـي المجـزع مغطى بمفرش أبيض سميك ومكوي ومحمل بالأطايب التي كانت أمي تعدها، تذبح بطة أو وزة وتصنع الكسكسي الـذي نأكله بالمرق، وتطبخ طاجن أرزا معمرا بالحمام، والرقـاق الهش الذي تسقسقه بالسمن البلدي وتحمره في الفرن، رقائقه الناعمة المحمصة من فوق واللدنة اللحمية من تحت لها طعم لا أنساه، وتكون ليلتها كأنها ليلة عيـد، يـأكلون ويشـربون ويحكون حكايات كثيرة وشائقة جدا، وأمـي تعـزم عليـه بالطعام، دون توقف، فيرد : تسلم إيدك يامرة خالي، يا بوي، لا يمكن، وحياة المسيح . وبعد قليل تخلع نسيرة وافرة مـن البطة وتعزم من جديد : تجبرني ما أنت إلا واخد دي، هـو

أنت كلت حاجة ؟ فيقول وهو يرد يدها برفق : جبـر ياخـد العدا يامرة خالي وا   ما أجدر .

وينتهي بأن يأخذها، وهكذا طول العشـاء، وكانـت لهجته إسكندرية وفيها نغمة صعيدية خفيفة ومرحة، وكـان رفلة أفندي يأتي لي كل مـرة بعلـب " التـوفي " المـدور المرسوم عليها صور أبراج وكبارٍ ملونة عرفت فيما بعد أنها صورة برج لندن، أو برطمان " كراملـة نـادلر " المربـع بزجاجه الشفاف السميك وفوهته الدائرية الواسعة .

وأظل معهم من الفرح بالسهر والحكايـات والأكـل والكونياك حتى أقع في النوم وأنـا لا أريـد الـذهاب إلـى السرير، ولا أذكر في اليوم التالي متى ولا كيف نمت .

وكانت " كبائن " المندرة أيامها تقع على مرتفعـات صغيرة متراوحة من الرمل أمام الكورنيش، متناثرة ومتباعدة من غير نظام وبينها مساحات عذراء فيها نخل، و"الكباين " على أشكال جميلة وغريبة ومتعددة،جدرانها الخشبية تنتهي بأبراج صغيرة جدا وأنيقة من الخشب أيضا علـى الأركـان الأربعة، ونوافذها الصغيرة لها زجاج ملون ومنمنم من ألواح دقيقة ناعمة أو محببة زرقاء ناصعة وحمراء متقدة وخضراء

يانعة وصفراء مزهرة، ويصعد المرء إليهـا علـى سـلالم خشبية أيضا " وللكباين " الكبيرة شرفات مكشوفة تحيط بهـا أعمدة متتالية رشيقة، وتتأرجح تحت القدمين .

وكانت " كابينة " رفلة أفندي تطل على الكـورنيش مباشرة، من على ربوة رملية صغيرة الارتفاع، منبسـطة . هل كنا قد تغدينا عنده بالفعل، ونزلت أمي إلى البحـر فـي آخر العصر بعد أن خلا الشاطئ تماما، وعادت وذهبت إلى الغرفة الداخلية الوحيدة لتسرح شعرها وتلبس ؟ أم كانت مـا تزال في البحر، بعد أن خرج منه الناس وأوشك النـور أن يذهب، تأخذ وحدها في الماء، حمام الغروب ؟

كان رفلة أفندي يجلـس علـى كرسـي خيـزران، بالقميص والبنطلون، وهو منحنٍ بصدره على العود المسـتند إلى بطنه المنبعج قليلا، يده البيضاء المرهفة الأصابع تهتـز بالريشة على الأوتار هزات خفيفة موقعة، وأنا أمامه أجلـس على كرسي خشبي مدور من غيـر ظهـر، وأرى أرضـية "الكابينة" الخشبية عليها آثار أقدام مبلولة لونها أكثر دكنة من لون الخشب حولها، وكان يدنـدن : الليـل لمـا خِلِـي ..

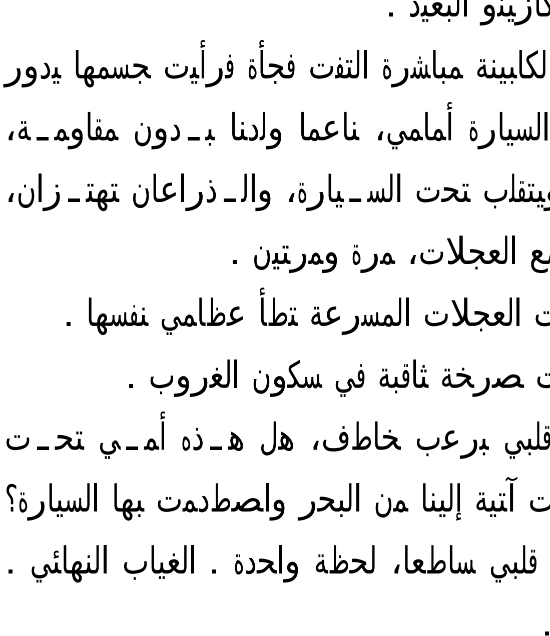
والساهر .. الباكي ... وفي صوته وعزفه شـجن، وعينـاه غائبتان .

كان قرص الشمس أحمر، كبيرا، أراه ينزل بسرعة، كأن الشمس الحقيقية البيضاء الملتهبة قد غابت من زمـان، وهذا انعكاسها المتقد، وهميا، يغوص في البحر وسط سحاب متقطع مشتعل الأذيال بنار داكنة، ومجد الغروب ينطفئ قليلا قليلا، وتهب علي أنفاس وحشة باردة، كأنه آخر مغيب فـي آخر يوم، الشمس تركت العالم ولن تعود، ونحن ندخل ليلـة القيامة الأخيرة .

وفي الكابينة المفتوحة دفء من سخونة خشبها الذي صهدته الشمس طول النهار . عتمة المغيب وايقاعات العـود لها رنين شجي ومجوف ومتلاحق الرعشات، وقـد صـمت رفلة أفندي واستغرق في العزف . انحنى برأسه إلى جانب يصغي إلى شكاة الأوتار المرتعدة بصدمات موسيقى رتيبـة، ملحة، لها صدى في حيز الكابينة الخشبي الضيق .

كنت أحس بنفسي وحيدا جدا، وهواء البحـر يـأتي على وجهي حارا ثم رطبا على التعاقب، مـرة بعـد مـرة، ومحملا برائحة الماء الملحية، وأضاءت أعمدة النور علـى

الكورنيش، معا مرة واحدة، بقعا مستديرة بصفرة وهاجة إزاء نسيج السماء الداكن الزرقة الذى مازال في طرفه احتراق الغروب، يسود بالتدريج، ونور المصابيح المهتز يقع على أسفلت الكورنيش وعلى ظهور السيارات اللامعة التي تمرق بصمت وسرعة، متباعدة وقليلة، لتختفي في انعطاف الطريق عند الكازينو البعيد .

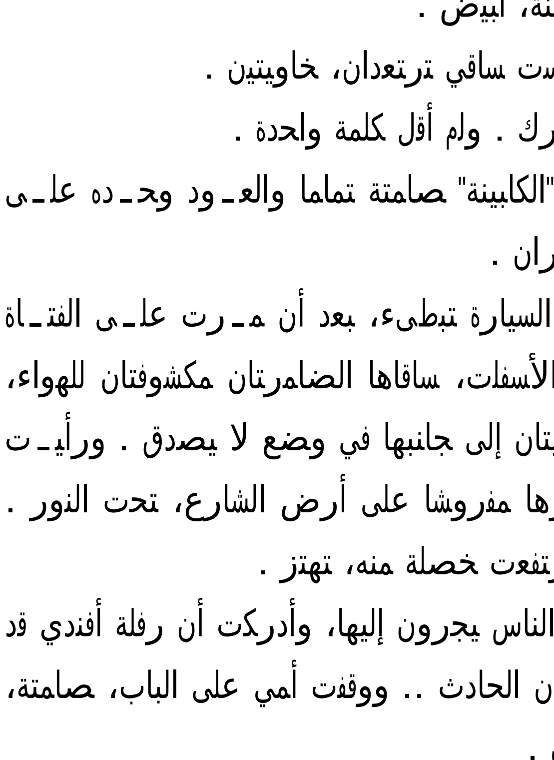


وأمام الكابينة مباشرة التفت فجأة فرأيت جسمها يدور تحت عجلات السيارة أمامي، ناعما ولدنا بدون مقاومة، فستانها يطير ويتقلب تحت السيارة، والذراعان تهتزان، والجسم يلتف مع العجلات، مرة ومرتين .

أحسست العجلات المسرعة تطأ عظامي نفسها .

وسمعت صرخة ثاقبة في سكون الغروب .

انخلع قلبي برعب خاطف، هل هذه أمي تحت العجلات ؟ كانت آتية إلينا من البحر واصطدمت بها السيارة؟ كان الروع في قلبي ساطعا، لحظة واحدة . الغياب النهائي . الفقدان الكامل .



خرجت أمي من الغرفة الداخلية، هادئة، شعرها القصير مسرح ومازال مبلولا قليلا على وجهها الذي يشع في عتمة الكابينة، أبيض .

وأحسست ساقي ترتعدان، خاويتين .

لم أتحرك . ولم أقل كلمة واحدة .

كانت "الكابينة" صامتة تماما والعود وحده على الكرسي الخيزران .

رأيت السيارة تبطىء، بعد أن مرت على الفتاة المرمية على الأسفلت، ساقاها الضامرتان مكشوفتان للهواء، هامدتان، ملتويتان إلى جانبها في وضع لا يصدق . ورأيت من بعيد، شعرها مفروشا على أرض الشارع، تحت النور . هب الهواء فارتفعت خصلة منه، تهتز .

وكان الناس يجرون إليها، وأدركت أن رفلة أفندي قد أنطلق إلى مكان الحادث .. ووقفت أمي على الباب، صامتة، مفتوحة العينين .

لم يتزوج رفلة أفندي إلا عندما كبر جدا، ونقل مفتشا ثم ناظرا في سوهاج الثانوية بعد أن أخذت الابتدائية بسنتين، ولم يخلف، ومات بعد أن حصلت على البكالوريوس، وكنت

عندئذ في معتقل الطور، وحرب ١٩٤٨ قد انتهـت بضـياع فلسطين، وكأنما كتمت مشاعر غامضة كثيرة، فلم أفكر فيه .

في ذلك الصباح انتظرت خـالي كالمعتـاد، ولكنـه عندما وقف بالأتوبيس نظر إلي من فوق مقعده نظرة غريبة ونهض، على غير عادته، وجاء إلى الباب قبـل أن أصـعد وقال لى : بلاش النهارده . خليك .. العـب هنـا أحسـن . وأحسست توجسا وقلقا مستأثرا فلم أرد عليه، وفعلت مـا لا أفعل إلا نادرا، صعدت بصمت وتصميم وجلست على مقعدي الصغير .

وفهم خالي ناثان أنني في نوبة من نوبـات عنـادي التي لا يفلح معي فيها شيء لا أمر ولا رجاء ولا تهديد ولا محايلة، وعاد إلى مقعده وخيل إلي أن التجاعيد حول عينيـه الصغيرتين قد عمقت وازدادت .

وعندما اقتربنا من اللوكاندة قال لي : " طب بـلاش تنزل "، ألف، وترجع معاي، أخدك لغاية المنتـزة، ونـروح الكازينو بعد الضهر " ولم يقف، لكنني في المحطـة التاليـة كنت على الباب بالفعل، وقفزت إلى الشـارع مـع النـاس، وجريت راجعا، وعبرت الكورنيش دون انتظار مـن بـين

السيارات المسرعة التي ارتفع نفيرها الموحش وخفـت فـي أذني، وأنا أمرق من بينها .

كان يقف على مقربة من الباب جمع صـغير مـن البوابين والمكوجية والبياعين والفضوليين القلائل، يتهامسون ويتحدثون بصوت خفيف، وسمعتهم يقولون وأنا أشق طريقي بجانبهم على الرصيف : إمتى ؟ حد عرف مين؟ بيقولو على وش الفجر .. خسارة .. وا ست فنجرية وبنت حلال .. ما هي كانت برضو .. ا يرحمها بقـى .. مـا احنـا بكـره هنعرفو .. مسير المتسخبى يبان .. ربنا علـى الظـالم يـا جدع . وكان على باب اللوكاندة عسكري في بدلته البيضـاء غير المكوية وطربوشه، وفي يده بندقية ومعه مخبر بالبالطو الميري والجلابية والعصا الخيزران قال لي بخشونة : رايح فين يا ولد ؟ فأزحته بيدي، بقوة لم أكن أعرف أنها عنـدي، دون أن ارد ولا أنظر إليه، فلا شك أن ما رآه فـي وجهـي جعله يسكت ولا يفعل شيئا ؟

صعدت السلالم جريا، وفي الدور الثالث رأيت بابـا مفتوحا بالقرب من غرفة ابن عمتي بقطر، وعرفت أنه باب غرفتها، واندفعت إليه، ورأيت ضابطا بنجمة وتاج يقف فـي

الغرفة مع اثنين من المخبرين، وكانت الغرفة مزدحمة بهم، وكان ابن عمتي بقطر يقف معه، مهيب الطول صارم الوجه، أنيقا في " البالطو " الصعيدي " الجبردين " الخفيـف علـى جلابية " سكروته " ناصعة تنزل حتى حذائه البنـي اللامـع كالمرآة، وطربوشه محكم ومضبوط تمامـا علـى رأسـه، وأحسست أنه يتفجر، في هذه اللحظة بالذات، بشباب عـارم مكتوم .

وعندما اندفعت إلى الداخل من بينهم جميعا، وقبل أن يمسكني أحد، رأيتها على السرير . كانـت مغطـاة بمـلاءة بيضاء، عليها بقع الدم، داكنة، ترشح ببطء وتتسع في مواقع مختلفة عند الصدر والبطن، ورأسها ملقى إلى الـوراء مـن غير مخدة، سمرة وجهها شاحبة ولكن عينيهـا الواسـعتين تحت الجفنين المدورين، مفتوحتان، اخضرارهما الآن ثابـت لا يتموج، وكانت تنظر إلي .

أخذني ابن عمتى بقطر، من يدي، ببطء ودون تعجل وقال لي : تعال معاي دلوجيتي يا ود خالي . تعـال . مـا عادشفيه فايدة من الوجفة دي يا خـال وكانـت أول مـرة

يناديني كما ينادي أبي، وكما يتحدث الرجـل إلـى الرجـل واهتز صوته الراسخ العميق . ولم أبك، يومها، أيضا .

واستمر بقطر ابن عمتي يأتي إلى " لوكاندة رانـة " كل مصيف، لم يغير من عادته، واحـتفظ باعتـدال قامتـه الشامخة، وصرامة وجهه، وشباب نظرته الثاقبـة، بعـد أن تزوج من الصعيد وخلف . ومات بعد أخيه رفلة أفندي بقليل وكنت قد انتقلت من معتقل الطور إلى معتقل أبي قير، مـرة أخرى، ولم أعرف إلا بعد أن خرجت . وحزنت عليه حزنًا صامتًا طويلاً، وكنت أمر أيامها، بغمرات حب ظننـت أنـه ميئوس منه، وكنت يائسا من العالم .

وكنت أذهب، في مضض هذا الحب الذي لـم أكـن أعرف كيف أحتمله ولا أعرف كيف ينتهي، إلـى كـازينو كليوباترا، وأقضي ساعات بعد الظهر المبكر أنظر إلى البحر وأحلم أحلاما مضطربة، أحاول أن أقرأ روايـة، أو أنتظـر صديقًا قبل ميعاده بكثير، أو أقرر، خلال ساعات، هل أذهب إلى سـينما، أي سـينما، أو إلـى قهـوة الفريسـكادور أو باستوريدس في شارع سعد زغلول، أو سان جيوفـاني فـي

ستائلي، لمجرد أنني لا أطيق البقـاء بـين أربعـة حيطـان وحدي .

كنا في أواخر سبتمبر، وشمس بعد الظهـر تصـنع على صفحة البحر، تحتي، ملايين النقط اللامعة التي تبـرق وتختفي وتُعشِي عيني، وزرقة الماء عميقة وداكنـة وكثيفـة الشفافية في الوقت نفسه، فأمد بصري من نافـذة الكـازينو العالية المفتوحة إلى الأفق الغامض في اتصاله بخط السماء المهتز بالضوء عندما رأيتها .

كانت تسبح تحت النافذة " بالمايوه " الأزرق الفـاتح، محبوكًا عليها، لامعا تحت سـيولة المـوج الخفيـف الـذي يترقرق عليه وينحسر في حركتهـا الناعمـة، ذراعاهـا لا تكادان تصنعان رغوة في انزلاقها المناسب علـى المـاء . وعرفتها . رانة التي كنت نسيت كل شيء عنهـا . جسـمها فاتح السمرة وغض ولما يكد يكتنـز بأنوثتـه التـي تنفـتح وتزدهر، في أول امتلائها الباكر، ولكنها أصغر سنًا بكثيـر، فتاة بعد، ولها رشاقة سمكة في الماء .

خفق قلبي، وتوقف . من هي ؟ هل هي أخت لهـا، صغيرة، لم أرها من قبل ؟ كنت موقنًا أنهـا هـي، أم هـي

الأخرى التي سوف أعشقها، وأفقدها . تعلقت عينـاي بهـا، مسحورا وغائبا، وعندما انقلبت على ظهرها، تطفـو فـوق الماء، رأيت وجهها المدور الخمري، مغمض العينين تحـت الشمس، طافيا إلي، وكان شعرها الخشن الوجـف قصـيرا حول رأسها، مبلولاً وداكن السواد، أعـرف حرافـة عبقـة المسكر، وخداها الأسيلان يومضان في استدارة رخيمة كاملة تحت الماء، وهى تبتعد . ساقاها، في بضاضتهما المخروطة العبلة، لا تكادان تتحركان، وذراعاها تضربان الماء بحركـة خلفية منتظمة إيقاعها هادئ، وهي تبتعد . وعرفـت أننـي سأحبها، في آخر العمر، حبا كأنه المـوت، وأن قلبـي هـو ساحة بحرها اللجي الجياش أبدا بأمواج لا هدوء لها .

٤) فلك طاف على طوفان الجسد

أنزل للمدرسة في الثامنة إلا عشـر دقـائق، علـى الساعة .

ساعة الحائط معلقة جنب الباب . البندول النحاسـي الطويل ينتهي بقرص مدور، مليء، صفرته وهاجه ومغوية، يتأرجح، ذاهبا آتيا بإصرار كأن فيه نزقًا وخفة، فـي بطـن الصندوق الخشبي المستطيل، بجسمه البني الـداكن اللامـع الدسامة، على حوافه الأربع " كورنيش " مشغول بتفريعـات ناعمة اللفلفة، بضة الخشب، يـدور بعضـها علـى بعـض متداخلة ومتزية ومتقلبة،على الحافة العاوية تموج مقبب عليه فارس خشبي رقيق النحت، له خوذة ينزل من تحتها شـعره الطويل المنمنم المتجعد الخُصـل، ولـه لحيـة مخروطـة، وعباءته يتطاير بها الهواء المحبوس، وهـو يشـب علـى حصانه الصافن الذي يرفع إحدى ساقيه الأمـاميتين، مثنيـة برشاقة ثابتة، وطرف الحـافر المنصـوب لا يكـاد يمـس الأرض . فطوري،دائما تسقية بالشاي واللبن، فقـط . تفـت أمي وجه الخبز الناشف الرقيق، فكنت لا أحب بطن الرغيف الخشن المحبب بالردة، وتغرقه بالشاي واللبن حتى يتشـربه،

ويلين، ولكنه لا يتعجن، فآكله بالملعقة الفضية الخاصة بـي وحدي، عليها نقش تاج صغير واسم لا أنساه : محمد غـالي وأولاده، بالخط النسخ الدقيق التدوير وقد اسود وسط لمعـان الفضه الثقيلة،أرفع بها الخبز المسقي بالشاي واللـبن فأجـده سائغ السخونة، سهل البلع وأنا لا أرفع عيني عن السـاعة، والعقرب الطويل يقفز من علامة إلى علامة، كل دقيقة حتى يصل إلى الخط الذي أعرف عنده أنني يجب أن أترك كـل شيء، وأخطف كتبي من على رخامة البوريه وأجري .

كل يوم أحد، قبل أن نذهب للكنيسة، أترجى أمي أن تتركني أملأ الساعة آخذ مفتاحها الذي له تجويـف دائـري دقيق في ساقه، من مكانه على أرضية الصـندوق الداخليـة أحس الغبار الدقيق عليها بأصابعي، وأطلـع علـى كرسـي خيزران، وأولج خرم المفتاح الطويل فيلف بإحكام وثيق حول سن كالإبرة تبرز من فجوة دائرية في منتصف وجه الساعة بمينائه البيضاء الساطعة، وأدير المفتاح وأنا أمسـك برأسـه المفلطح ذي الورقتين النحاسـيتين الـدقيقتين بـين الإبهـام والسبابة، فتصر التروس الداخلية، بمتعـة، وهـي تمتلـئ،

وتكتسب الدقات المنتظمة الواضحة، أقـوى صـوتًا وأكثـر تجسدا، وكانت تدق كل ساعة، بصلصلة النواقيس .

تركنا البيت الذى في شارع ١٢ أمام وابور الـدقيق، بالقرب من الكركون عندما دخلت مدرسة النيل الابتدائية من أربع سنين، وانتقلنا إلى بيت شارع الكروم أمام الإصـطبل، قريبا من ترعة المحمودية، مخصوص لأن المدرسة كانـت في الشارع نفسه، أصل إليها بعد خمس دقائق مشيا، أو جريا في دقيقتين، أعبر تقاطع شارع سـيد كـريم، ثـم شـارع الترامواي، فأجد المدرسة على قمة الشـارع التـالي علـى طول .

للمدرسة سور عالٍ، من الحجر، على شارع الكروم، لا يفتح إلا على باب خشبي يفضي مباشرة إلى سلالم ضيقة، معتمة ونظيفة جدا، بين حائطين منضمين، لا يدخل منـه إلا الناظر والمدرسون، لم أصعد عليه، ولم أعرف رهبته إلا مع أبي، وهو يمسك بيدي، عندما جاء ليقدم لي في المدرسة أول مرة، من زمان، وعندما ذهبت لآخذ الشـهادة مـن مكتـب الناظر في آخر تلك السنة .

أما نحن فندخل من الباب الواسع الكبير على شـارع المعارف، من الناحية الثانية، يقف عليه عم ميساك البـواب العجوز المشقق الوجه، بشاربه المتهـدل وعمتـه القمـاش الملفوفة على اللبدة الحائلة اللون، هو الذي يفتحـه ويغلقـه، ويقرر مصائرنا في الدخول والخروج، والحصص والفسـحة إذ يضرب الجرس النحاسي الصدئ المعلق جنب الباب، على ساعته الفضية المكتنزة المضبوطة بالثانية، مربوطـة، فـي جيب جلابيته الجانبي العميق " بكاتينة " معقودة بالزر الأعلى في صديريته التي يبدو قماشها اللامع ضيقًا حـول صـدره النحيل، من فتحة الجلابية العليا .

وللباب ضلفتان حديديتان مسدودتان، بين قائمين من الحجر العريض، ويفتح على مدخل مبلط صغير تصعد منـه سلالم عريضة رخامية بيضاء،لها من الجـانبين درابـزين حجري، كالشرفات ويؤدي إلى ردهة تقـع الفصـول علـى جانبيها . وعلى مستوى الدور الثاني يبرز من فوق السلالم، ويظللها بناء المدرسة المرتفع، المضـلع، بـالحجر القـديم الكبير، والزخارف الحجرية الطويلة، وفيه النوافـذ العاليـة الواسعة بضلفها الخشبية الثقيلة .

اندفعت جريا من جنب عم ميسـاك إلـى الحـوش الصغير، إلى يمين السلالم الرخامية، حيث كان يقف " الكبار " الذين يلبسـون البنطلونـات الطويلـة والبدلـة الكاملـة، والطرابيش والكرافتات .

وقلت صباح الخير لغُريب علي، فرد علـى وهـو مستند بجنبه إلى السور، طربوشه معووج على زواية أنيقـة من جبهته، و " جاكتته " مزررة، فهي دائما محبوكة عليه، لا يفتحها أبدا، ووجهه طويل فيه نظرة حالمة شيئًا ما، مترفعـة شيئًا ما . ورد علي أيضا حسن المرديني، بخديه المـدورين وعينيه الدسمتين، وسليمان بطرس، الصعيدي الوسيم، لونـه بني محروق .

لعل الكبار كانوا في السادسة عشرة أو بعدها، ونحن أوائل الفصل صغار في السن عنهم، في العاشرة أو نحوهـا، وكلنا شيطنة، ولكننا كنّا بمعنى ما، أندادا لهم، بميزة التفـوق التي تجعلهم يحترموننا، وتتيح لنا أن ننضم على قدم المساواة إلى جماعتهم في الحوش الصغير، نتبادل " الساندويتشات " و " التوفي "، رأسا برأس، حتى لو كانوا هم – كما هو واضح – أولاد عز وآباؤهم أغنياء، بينما كنـا علـى قـد الحـال،

مستورين، ومازلنا نلبس " الشـورت " والقمـيص المفتـوح الرقبة والشراب القصير المتهدل على رقبة الجزمة . ولكـن الطربوش كان إجباريا، علينا نحن أيضا، نلبسه في الفصـل وفي الفسحة، وفي الشارع .

ومع ذلك فقد كنا نعرف، بغموض، أننا لسنا أنـدادا لهم، تماما .

كانوا كبارا، وكانت لهم معرفة بأسرار الجسم التـي تحدث للواحد عندما يكون كبيرا، ولا نملكها بعـد، ولهـذا، وحده، كنا نُكِن لهم إعجابا خفيا، واحتراما من نوع خـاص حتى ولو كانوا في آخر ترتيب الفصل . وكانت لهم مـرات، في صباح الاثنين خصوصا، يتحلقون معا، الكبار وحـدهم، ويتحدثون بهمس منفعل ويتبادلون أسرارا لا يسمحون لنا بأن نسمعها .

ضرب الجرس، واندفعنا نجري على السلالم الرخام ودخلنا حصة العربي كان خليفة أفندى يتكلم بلهجة فلاحيـة قليلاً، ويعطش الجيم دائما، وله شارب كث كشريط مسـتقيم الحواف تحت أنفه، وعظم وجه غائر وجاف وكنت فـي أول صف، وطلب مني خليفة أفندي أن أُسمِع المحفوظات . كانت

سورة "الليـل" وسـورة "الضـحى" مقـررتين علينـا فـي المحفوظات، وكنت حسن الحفظ، فتلوتهمـا، واحـدة بعـد الأخرى، مسحورا بالإيقاع والمعاني، وحل في الفصل كلـه سكون تام وأنا ألقي الآيات المنغمة القصار، وكـان خليفـة أفندي ينظر إلي نظرة ثابتة عميقة، حتـى فرغـت، وفـي الصمت سمعت همهمة خافتة غامضة من الفصول الأخرى، والأنفاس كلها معلقة، حتى قال خليفة أفندى فجـأة : ا .. ! هذا الإلقاء مثل سلاسل الذهب . فتح ا عليـك يـا بنـي فأحسست وجهي يتضرج من الزهو والخجل . وسمعت لغطًا وضحكًا مكتوما في آخر الفصل .

في الفسحة ذهبنا، من يسار السلالم العريضة، إلـى الممر الضيق الذي يدور بمبنى المدرسة، ويفتح على حـوش مسقوف بالخشب، مبلط، فيه دِكَك طويلـة وموائـد خشـبية عارية الخشب، وكان هذا الحوش معتما قليلاً، ومفرحا فـي الوقت نفسه، فقد كان مرتعا للاستغمائية والنط فـوق الـدكك وبين الموائد، وتحت الحائط الذي تقوم أمامه حنفية نحـاس نشرب منها بأيدينا، تحتها بقعة غير منتظمة مبلولة وداكنـة اللون دائما، ولم يكن الكبار يأتون إليه .

كنت منحنيا على الحنفية، أملأ يدي المتجاورتين المكورتين بالماء وأشرب بعطش بينما الماء ينسرب بسرعة من بين أصابعي، عندما جاء جبرة من خلفي، بقامته الطويلة ووجهه الشمعي الأبيض، وابتسامته التي أكرهها، ومعه كمال المدكوك الجسم في بنطلونه الطويل الضيق المحشو فيما بين ساقيه ومعهما رمزي، قصيرا، ومدور الجسم، " الشورت " الذي يلبسه يكشف بإحكام عن فخذين ناعمتين بيضاوين، وعيناه جاحظتان قليلاً، وسمعت جبرة يقول بصوت يتعمد أن أسمعه : يا عيني على سلاسل الدهب .. يا حلاوة الدهب .. وضحك رمزي ضحكة كسولةً ورفيعة كالبنات وقال كمال بصوت خشن: " أيوه يا سيدي .. ! اعتدلت وأنا أرتجف من الغيظ، وتمنيت لو كنت كبيرا فأحطم لهم وجوههم بقبضتي كما كان يفعل روكامبول وأرسين لوبين، ولكن حسن المرديني، على غير عادته، كان يقترب متهملاً، ومعه غُريب علي، وأنطون زخاري . سكت جبرة وكمال فجأة، واستدارا، وابتعدا وهما يمسكان بيدي رمزي، كل من ناحية.

في فسحة بعد الظهر كنت في الحوش الكبير المفتوح الذي يحده السور من ناحية، وحيطان البيوت العالية من

ناحية، بنوافذها المواربة التي لا تفتح أبـدا وظهـر مبنـى المدرسة من ناحية ثالثة، وينتهـي إليـه الحـوش المـبلط المسقوف من آخر جوانبه . كانت الشمس تنصب عليه فيدفأ جدا في الشتاء ويتقد حرارة في الصيف، وأرضه قد اسـود رملها قليلاً بتراب ناعم تثور منه سحابات صـغيرة تحـت أرجلنا من الجري واللعب والصياح الذي لا يهدأ أثناء الفسحة الكبيرة، وكان من لعبنا الأثيرة أن يخلع أحدنا حذاءه ويمسك به، حرصا عليه مهما كانت الصداقة، ويقف بالشراب علـى أكتاف اثنين معا، ويطل برأسه، بالكاد، من فـوق السـور، وينادي على المارة أو البياعين القليلين الذين يمـرون فـي شارع الكروم , ولا يحصل على هذه الميزة إلا من كسب في لعب " البلي "، أو " صلّح "، أو ما نبتكره من ألعاب .

جاء جبرة، وكمال، ورمزي، ثلاثتهم، إلي وأنا فـي الحوش الكبير، وطلب مني جبـرة بصـوت كلـه رجـاء، واعتذار، ومصالحة، أن أشرح لهـم معـاني المحفوظـات وإعرابها، فتصالحنا، ولكنني كنت دائما أحس معهم بـالقلق وكره ملتبس، وأن ما يدور بينهم في خفـاء جسـدي غيـر مفهوم، جذاب ومنفر معا .

قال جبرة: إنهم سوف يذهبون بعد المدرسة إلى بيت رمزي في آخر شارع ١٢، جنب شركة الغزل، وإن رمزي عنده مجموعة مجلات كل شيء والدنيا والكواكب، في غرفة على سطح بيتهم، وسوف يقنعه بأن يسلفني إياها لأقرأها في أجازة نصف السنة . وكان جابر يسمع الكلام، فجاء إلي في آخر حصة، وكنا قد حفرنا أسماءنا علـى خشـب الأدراج، وأخرجنا المحابر الخزفية البيضاء مـن فوهاتهـا الغـائرة ووضعنا بعضها فوق بعض، رصات رصات، علـى مائـدة المدرسين، وطيرنا دبابير من الورق في سماء الفصل وكتبنا بالطباشير الأحمر على زجاج النوافذ " تحيا الأجازة" . وقال جابر بغموض : خل بالك لما تروح مع الـولاد دول عنـد رمزي، خل بالك وكنت فرحا بالأجـازة الطويلـة ومتوثبـا بالعفرتة والفرح فلم أهتم بما قال .

خرجنا مبكرين في هذا اليوم الأخيـر قبـل أجـازة نصف السنة، وكان عندي وقت قبل ميعاد العودة التي كانت أمي تحاسبني عليها، بالدقيقة، على الساعة . وذهبـت مـع جبرة وكمال الذي وضع ذراعه على كتفي وهو يقـول :إن خليفة أفندي وسامي أفندي، ضابط المدرسة الشاب، صاحبان

وينامان معا في بيته بالليل . خطوت إلـى جنـب، بعنـف، وابتعدت عنه، وقطعنا شارع ١٢ حتـى آخـره، وصـعدنا السلالم النظيفة المعتمة، وعبرنا الأبواب المغلقة الصـامتة، حتى السطح . وقال جبرة :إن رمزي سيأتي حالاً من تحت، ودخلنا غرفة، على السطح، خالية، لها ثلاثة جدران فقط من الحجر الخشن العاري، وفيها شباك واحد عالٍ منقـور فـي الحائط له ضلفة، وفي وسطها، أمام لـوح الخشـب الكبيـر المفتوح الذي يحل محل الحائط الرابع، عمود عريض مـن الأسمنت تخرج من صلبه أطـراف حديـد متلويـة رقيقـة وصدئة، يحمل السقف من المنتصف تمامـا . كـان النـور خفيفًا في غرفة السطح، وفي المكان كله نـوع مـن السـر والتوتر . قال جبرة، بصوته اللازج وفيه غنة لينة: إن رمزي صعد معه إلى هنا، يوم الأحد الماضي . وحكى كيـف أنـه ركع على يديه ورجليه واستند إلى العمود وقـال :إنـه لـم يصرخ بل كان يكز على فمه فقط، ولم أفهم شـيئًا ولكننـي أحسست فجأة أنني في كمين، وأن شيئًا ما، خطرا ومرعبـا وغامضا يدور من حولي، قلت يجب أن أنـزل الآن، بيتنـا بعيد، اندفعت أجري نازلاً على السلم وأنا أسمع كمال يقول:

إن رمزي سيجيء بالمجلات حالاً، لم أرد عليه كنت أجـري في شارع ١٢ أجري في شارع الكروم، أجري أعبر شـارع الترامواي، لا أتوقف ولا آخذ نفسي، حتى وجدت نفسي فـي فسحة السلالم داخل بيتنا، فوقفت وأنا أنهج واكتشـفت أنني أضم كتبي بشدة، وأن الدم يضرب في عروقي كلها . وكـان كل شيء مستغلقًا علي وغريبا وأريد أن أنساه .

تجنبت هؤلاء الثلاثة بقية هذه السنة الأخيـرة فـي مدرسة النيل الابتدائية وكنـت لا أريـد أن أرى الابتسـامة الكريهة على وجه جبرة الشمعي، ولكنني أحيانًـا، كنـت لا أملك أن أرد عيني متـأملاً جسـم الولـد رمـزي المـدور الكسول .

استرددت نَفَسِي، وطلعت السلم، كل درجتين في وثبة واحدة، وعندما خبطت على زجاج ضـلفة البـاب المغبشـة فتحت لي خالتي سارة الصغيرة التي لـم تكـن تكبرنـي إلا بسنوات قلائل، وكانت تحمل، على يدها الأخـرى الصـينية المرآة المستطيلة ذات المقبضين وعليها أكـواب "المغـات" السخن،رائحته شهية، داكن الصـفرة عليـه طبقـة السـمن

بدوائرها الصغيرة المزبدة مغروزا فيها فتات من فصـوص البندق واللوز وعين الجمل .

كانت أمي قد ولدت أختـي لـويزة، وعملنـا لهـا "السبوع"، وجاء أبونا سمعان وصلى على رأس أختي لويزة فصرخت وهي في قماطها الأبيض الوثيـق وبخرهـا ورش البيت كله بالماء المصلى عليه الذي حمله معه في زجاجـة صغيرة أخرجها من جيب جبته السـوداء الحريـر، وهـز مجمرة البخور التي كانت أمي قد أوقدت النار في قطعة فحم صغيرة فيها، حتى احمرت فامتلأ البيت برائحة عبقة وحريفة كرائحة الكنيسة من سحب البخور المتقطعة، ومن الشـموع الموقدة حول قلة منتفخة البطن، مصبوغة بـالأحمر علـى المائدة في فسحة البيت، في صينية نحاسية، ونيران الشمعات السبع خافتة في عز النهار ومدببة وصفراء، وكـل شـمعة مغروزة في طَبق فنجان، زرعت فيها سـبع حبـوب علـى أرضية من القطن المبلول، وسقيت برش الماء طول الأيـام السبع الماضية، الترمس والفول والشـعير والغلـة والحلبـة والذرة والعدس أبو جبة، وكانت النباتات الرقيقـة الرفيعـة جديدة الخضرة تكاد تكون شفافة من رقتها، وقـد ارتفعـت

حول جذوع الشمع البيضاء المدورة . وكانت أمي، في عـز شبابها، تقوم من سرير الولادة ثاني يوم، وتعمل شغل البيت، وكان أبي يرسل للبيت الفراخ، بالقفص، طول أيام النفـاس، تحملها عربة " كارو " من مينا البصل لغيط العنب .

عندما دخلـت، سـمعت ثرثـرة السـتات واللغـط والصيحات الناعمة والضحكات النسائية العالية، كانت أمـي عندها ضيوف، جئن يهنئن بالسلامة، ورأيـت علـى كنبـة الفسحة ملاءاتهن السوداء خلعنها ورمينها من غيـر نظـام، وعلى " البوريه " كومة صغيرة مـن الأسـاور والحلقـان والعقود والخواتم الذهبية . كانت الكومـة الذهبيـة متهدلـة الخيوط والحلقات بعضها فوق بعض، تومض وتشع بخفوت وكنت أعرف أن زائرات أمي عليهن أن يخلعن كل ما يلبسن من ذهب قبل أن يدخلن عليها، طوال أربعـين يومـا بعـد الولادة، خوفًا من " المشاهرة " . وكانت هذه الكلمة، وهـذا الطقس كله، يسحرني ويحمل إلي معاني غامضة عما يحدث للنساء من أشياء غريبة .

نادتني أمي فخجلت أن أدخل وكل هؤلاء النسوة معها ولم أرد، فنادتني مرة أخرى بصوت عالٍ، وجذبتني خـالتي

سارة من يدي، وعندما دخلت الغرفة كانت النافـذة مغلقـة والمصباح الكهربائي متقدا في داخـل كُمثـراه الزجاجيـة المورقة المفتوحة وزجاجها بلون اللبن . وفغمتنـي روائـح كثيفة مختلطة من الرضاع والمغات وفوح الأجسام النسائية، وكانت أمي نصف مضطجعة مستندة بظهرها إلـى مخـدة طويلة على قائم السـرير ذي القطبـان الحديديـة اللامعـة المتجاورة، وإلى جانبها لويزة الملفوفة في قماطها، مغمضـة العينين حمراء الوجه، وذهبت إلى أمي أخطو بـين النسـاء اللاتي تربعن على " الكليم " تحـت السـرير، فـي ثيـابهن المشجرة المقورة الفتحة عن أثداء مستريحة وفيرة وانكشفت أفخاذهن قليلاً من فوق الركبة، وهن يشربن المغات ويثرثرن بعضهن مع بعض . وسمعت الست وهيبـة تقـول لامـرأة ممصوصة الوجه حادة الشفتين لا أعرفها : لا ياختي، اسـم ا عليه ده زي الملاك اسأليني أنا . ووقفت أمامها صـامتًا وقلبي يدق فمدت يدها تحت المخدة وأخرجت صرة صغيرة جدا ملفوفة بقطعة قماش بيضاء معقودة بعقد كثيرة وأعطتها لي فأحسستها طرية كأن فيها قطعة لحـم حيـة، واقشـعر جسمي، وقالت لي أمي أن أذهب، في صفار الشـمس، إلـى

تقاطع شارع الكروم بشارع سيدي كريم، وأقف أمام بيـت روزا الخياطة بالضبط في وسط الأربعة مفـارق، وأرميهـا بعزم ذراعي، فوق، فوق خالص ..

ظللت ممسكًا بالصرة الصغيرة اللينة الجسم وذهبـت إلى شرفة بيتنا المطلة على إصطبل الخيل وحوش العربيات " الحنطور"، وعندما رأيت أن الشمس تميل للغـروب علـى المحمودية نزلت جريا، وفي يدي الصرة، وكنت سمعت أمي تقول وهي لا تعرف أنني أسمعها أنه " خلاص" أختي لويزة، ولم أعرف ما معنى الخلاص ولكن خيالي النشط صور لـى أنه شيء ينزل مع البنات فقط عند الولادة ويجب الخـلاص منه وأن أختي الوليدة لن يكون لها خلاص من عذابات النار بعد الموت إلا بذلك . ولكن السؤال الذي كان يحيرنـي هـو كيف أن هذه المفارق أربعة، هل هي أربعة شوارع، يعني ؟ لكنهما شارعان فقط، ولم أستطع أن أحل هذا اللغز، ووقفـت بالضبط في نصف تقاطع الشارعين وكان بيت روزا الخياطة من دور واحد، وعريض، وله جنينة واسعة أمامها سور من قوائم الخشب القصيرة وله باب خشبي بضلفتين، وفي الجنينة تعريشة عنب كثة بالورق العريض والأغصان المتلوية وأمام

الجنينة رصيف مبلط بالبلاط الأبيض يفتح عليه باب البيـت ونوافذه المنخفضة الكبيرة وكان البيت صامتًا تماما، ومظلما في هذا الوقت من النهار، فقد كانت الخياطة العجوز الشامية الأصل تعيش وحدها وكنت أعرف أن البنات يأتين للشـغل عندها في النهار ويذهبن لبيوتهن على العصر وكنت أخـاف قليلاً من المرأة الشمعية الوجه الحادة الأنف، بشعرها الأبيض الجاف الملفوف دائما في منديل ملون تربط عقدتـه خلـف رقبتها .

كان الشارع خاليا من الناحيتين، على طول البصر . كل شيء في آخر النهار كان هادئًا ومهجورا وساكتًا تمامـا، والنخيل في جنينة روزا الخياطة يهتز سعفه بصوت خشخشة خافتة .

رميت بالصرة الصغيرة التي كنت أمسـكها طـول الوقت كأنني خائف من قوتها الكامنة ومقدرتها على الإيذاء، وطوحت بها ذراعي إلى أقصى ما أستطيع . وارتفعت اللفة الصغيرة الطرية في الهواء، عاليا باندفاع كأنـه آتٍ مـن داخلها، ارتفعت، بقوة، ثم اختفت، تماما . كأنها ذابت، فـي

انطلاقها إلى أعلى، إلى بعيد، كأن شيئًا ما، غير مرئي، قـد التقطها في الفراغ وراحت .

استدرت على وجهي، وانطلقت أجري إلـى البيـت بأسرع ما تحملني قدماي . كأنني أفر .

في حصة الدين كان الأولاد المسلمون يذهبون إلـى غرفة المدرسين حيث يتجمع زملاؤهم من الفصول الأخرى، ويعطيهم خليفة أفندي درس الدين وأسمعهم، مـن الشـباك، يقرءون القرآن معا بصوت عالٍ منغم له إيقاع مليء يحتشـد له قلبي بالرهبة، وأحسدهم وأريد أن أكون معهم . أما نحـن فيدخل إلينا جرجس أفندي مدرس الإنجليزي، وكان صعيديا وقصيرا ونحيلاً وله وجه قاسٍ أسمر، ويحفظنا قانون الإيمان والوصايا العشر ومزامير داود وموعظة الجبل وكتابا صغيرا فيه أسئلة وأجوبة . وفي إحدى الحصـص وقـف أنطـون زخاري فجأة وقال للمدرس بصوتٍ عالٍ : أفنـدي الوصـية الثالثة مش فاهمها يعني إيه لا تَزن ؟ فضحك الكبار ضـحكًا مكتوما وقال جرجس أفندي بهدوء: " طب اجعد .. هـي دي اللي انت مش فاهمها ؟ لما تكبر هاتعرف . مستعجل ليـه ؟

وكنت أنا، حقا، لا أعرف، بأي شكل، ومع ذلك فإن شيئًا ما يخجلني عن أن أسأل .

بعد أن خرجنا من المدرسـة، وقفـت مـع الأولاد الصغار أمام الفرن، حتى يمر الترام في الشارع بصلصـلته البطيئة وعرباته الزرقاء اللامعة، وسألتهم بصوتٍ فيه تحـد وشيطنة : حد فيكم بقى يعرف يعني إيه بيـوت الـدعارة ؟ كنت قد قرأت خبرا في " الجهاد " عن تفكير الحكومـة فـي إغلاق بيوت الدعارة، ولم أفهم ما هي هذه البيـوت، وقلـت لنفسي :إنها لابد البيوت القديمة التي سـوف تسـقط علـى أصحابها . ولم يعرف أحد ما هي، وسكتوا، ومع ذلـك لـم نسأل أحدا .

في يوم الاثنين من الأسبوع الأخير للمدرسـة كـان الحوش الصغير دافئاً ومشْمِسا في فسحة بعد الظهر، وكـان الكبار متجمعين معا . سمحوا لنا - لأول مرة - أن ننضـم إليهم في حديثهم الخافت الحار عن مغامراتهم في كوم بكيـر يوم الأحد الذي فات وكأنهم قد اتخذوا قرارا بأننا كبرنا نحن أيضا ونستحق هذه الجائزة، أجازة الصيف الأخير توشك أن تأتي، فمن يدري هل سنلتقي، ومتى، بعدها، فمن حقنـا الآن

أن نعبر العتبة التي كانت محرمة علينا . وقفنا فـي حلقـة متضامة متزاحمة نسمع بلهفة، وقلوبنا تدق، عن أشياء مبهمة تماما علي، ولا أستطيع أن أتصورها مهما حاولت، ولكننـي أحس لها سحرا لا مقاومة له . وبينا انطلق أنطون زخـاري يهمس بصوت حاد، وسريع ومبحـوح قلـيلاً كـان الأولاد يقاطعون ويهتفون بأصوات فيها انكسـار البحـة الأولـى . ويضمون رؤوسهم بعضها إلـى بعـض ويـدورون حولـه ويستحثونه بالسؤال عن التفاصيل . كانوا يعطوننا ـ نحـن الصغار ـ ظهورهم كأنهم،وقد تركونا ندخل الحلقة، نفضـوا أيديهم منا . وكان أنطون رفيعا جدا وطويلاً ويداه عصبيتان وعيناه ذكيتان قلقتان تدوران حولنا كأنهما لا ترياننـا وهـو يصور بيديه وتقاطيع وجهه المسنونة وأنفه الكبير كيـف أن المرأة البيضاء السمينة أعطته ظهرها وانحنت وعلمته شـيئًا ما، لم ألتقط، في وسط الزحمة، ما هو، ولا كيف يكون، ولم أستطع أن أتصور ماذا كان يحدث عندئذ، وإن كنـت أهتـز بنوع من الروع والمتعة الخفية بخيالات غير محددة، أمـا غُريب فقال إنه دخل على واحدة خلعت له قميصها الحريـر الأبيض وكانت عارية تماما تحته، وسألته عن اسـمه وأيـن

يسكن ولما عرفت أنه من غيط العنب ومن شـارع الكـروم تركته يفعل ذلك مرتين: إحداهما بعد الأخرى ولم تأخذ منـه أي مليم وقالت له إن اسمها حسنية وأنها سكنت مـرة فـي شارع الكروم وأنها تراعي الأصول وعليها دين لناس طيبين هناك تريد أن تؤديه، وقال: إنها كانـت رفيعـة وسـمراء وملتهبة كالنار وحنونًا أيضا، وكان صوته المترفـع البـارد يرتعد قليلاً على غير عادته وكأنه خجل من ذلـك . وقـال: إنها طلعت أو نزلت شرموطة بنت كاب،وإنه سيرجع إليهـا ويعطيها فلوسها على الجزمة ويضـربها إذا فتحـت فمهـا، أيضا، وكنت أستمع للحكاية وقلبي يرتجف مليئًا بـالغموض ولم أصدق أنها هي، أبدا .

وقررنا نحن الصغار يومها ونحن نعود نحمل كتبنـا ولا نريد أن نلعب " البلي "، أننا عندما نكبر ونروح الثانوية، سوف نذهب إلى كوم بكير نحن أيضا ونطرق هذا المكـان وبيوته السرية الواعدة بمتعات وملذات جنونيـة لا نعـرف طعمها ولا نتصورها، حتى . وكنا نعرف مع ذلك أنه يقـع بين السيالة وشارع توفيق قريبا من كركـون اللبـان وقـال جابر: إنه يعرفه بالضبط وتعاهدنا أن نذهب، جميعـا، أنـا

وجابر وفرنسيس وإسكندر حتى لو تفرقت بنا المدارس فـي الثانوي، ولم نفِ بهذا التعهد أبدا .

كان جابر أكبر جماعة الصغار، ولكنه مـن الكبـار أيضا، يضع رجلاً هنا ورجلاً هناك . وبعد الامتحانات التي عقدت في تلك السنة، لأول مرة في حياتي، تحت خيمة عالية نصبت في الحوض الكبير ولهـا فتحـات وقمـاش ملـون ومزخرف كقماش شوادر الأفراح والمآتم، قـال جـابر: إن عنده سحارة ملأى بالمجلات والكتب والروايات فقلـت لـه: إنني أريد أن أقرأها، كلها، في الأجازة، فقـال لـي تعـالَ، ووصف لي أين بيتهم .

كان بيتهم في شارع ١٢ ناحية كرموز، دخلت مـن الباب الخشبي من فوق عتبة رخامية ممسـوحة، وفوجئـت بالسماء فوقي، وكان في جانب الحوش الـذي جـرت فيـه الفراخ من أمامي، فرن موقد جلست أمامه سـيدة بملابـس سوداء وطرحة على أطرافها غبار أبيض من الدقيق، تخبز . سألتها عنه فرحبت بي وقالت لي هو انت صاحبه ؟ يا أهـلاً يا ضناي ونادته بصوت عالٍ، ودخلت معه إلى البيت وكـان غرفة واحدة فقط، وكان أبوه راقدا على " كنبـة " ومغطـى

بملاءة مصنوعة من خرق ملونة قديمة مخيطة بعضها إلـى بعض ويسعل بشدة، وركع جابر أمام الكنبة وفتح لي غطـاء قائما عموديا يفتح إلى جنب في بطن "الكنبة " التـي يرقـد عليها أبوه، وأحسست بحرج شديد ونوع من الإثـم . ولكـن الرجل العجوز قال لي: اتفضل يا بني خد اللي انت عايزة دا جابر أخوك وكلمني عنك كتير ربنا يخليك يا بنـي ويـديك الصحة انت واللي زيك يا رب يا كريم . ومـد جـابر يـده استخرج أكواما من الكواكب وكل شيء والـدنيا والمصـور واللطائف وروايات جرجي زيدان ورو كـامبول، وجلسـت على الأرض أمام الكنبة أنتقي منها ما لم أكن قد قرأته مـن عند الست وهيبة أو عند أصهار خالي سوريال، وتشـجعت فمددت يدي أيضا تحت الرجل الراقد بضـعف واستسـلام، مغمض العينين شاربه الكبير مصفر تماما ووجهه متهضـم جاف ومليء بالتجاعيد الخشنة، وخرجت يدي برصة ملفوفة بدوبارة من أربعة كتب ذات جلدة ورقيـة خشـنة صـفراء والكتاب الأول عليه رسم ساذج الخط ومغْوٍ لامرأة جالسـة على ركبتيها، تضع فخذيها تحتها ؛ قدمها، فقط، بأصـابعها المتجاورة، ظاهرة تحت ثوبها، وإلى جانبها خفهـا العربـي

مدبب الطرف، وهي ترفع ذراعها المحملة بأساور غليظة وتشير بيدها إلى شيخ له لحية طويلة مربعة، مفروشة على صدره، متربع، ظهره إلى وسادة ويسند رأسه إلى يده، أما المرأة فثدياها أحدهما قائم ومكور والآخر متهدل ومستدير والحلمتان قائمتان بارزتان منهما، وامرأة أخرى تجلس على البساط وتنظر إليهما بنظرة رعب .

وقرأت أعلى الرسم " ألف ليلة وليلة " بالخط الرقعة، وعندما فككت الدوبارة رأيت الصفحة الأولى تقول إنها ذات الحوادث العجيبة والقصص المطربة الغريبة لياليها غرام في غرام وتفاصيل حب وعشق وهيام بالصور المدهشة البديعة من أبدع ما كان ومناظر أعجوبة من عجائب الزمان، وخفق قلبي بشدة . سمعت عنها من الكبار . وتردد جابر في أن يعيرني الكتاب ولكنني أغريته بمجموعتي من " عشرون قصة " ورواية سافو، فوافق على أن يعطيني الجزء الأول فقط، وعندما أعيده يعطيني الثاني، وهكذا، وعدت إلى البيت أجري جريا من شارع إلى شارع، في نشوة يطير بها جسمي، حافيا . تخففت من الشبشب أمسكه في يدي، مع الكتاب ومجلات الكواكب، ودخلت البيت بعد أن نفضت

رجلي من التراب ولبست الشبشب وأخفيت الكتـاب تحـت جلابيتي الخفيفة وضممت ذراعي، وفيها المجلات، عليه ..

وفي الغرفة الطويلة ذات الشرفة الخشـبية المقفلـة المسقوفة التي تطل على إصطبل عربات الحنطور، رقـدت على الكنبة الإسطمبولي، جنب مائدتي الرخامية البيضـاوية المفروشة بالجرائد التي أذاكر عليها دروسي، والجرامفـون ذي البوق ورسم الكلب . انزلقت قدماي إلى أرض ألف ليلة وليلة، ودخلتها، ولم أخرج منها حتى الآن .

ذهبت فجأة إلى قديم الزمان وسالف العصر والأوان، ودخلت قصر شهريار ملك ساسان وأخيه شاه زمـان ملـك سمرقند والعجم، ورأيت امرأته تواقع العبـد مسـعود مـع جواريها العشرين اللاتي يواقعن العبيد العشرين وما صاحب ذلك من بوس وتقبيل وما تلاه من تنكيل وتقتيـل، والأميـرة شهرزاد تنزل من"أتومبيل باكار" مقدمتـه مربعـة الشـكل ولامعة، أمام سينما محمد علي في شارع فـؤاد، وينحسـر الفستان الحرير عن فخذيها السمراوين تنفرجان عندما تهـبط فأرى العتمة الغامضة بينهما . أفزعتني المردة الهائلة تخرج من القماقم، وركبت الخيل الحديد تطير على عنان السـحاب

وهبطت إلى مدن الأبنوس والنحاس الخاوية من البشر، وانحدرت على السلالم الأربعين إلى الأقبية الخفية والسراديب فوجدت القردة والدببة الشبقة تعاطي النساء من اللذة ما لم يعرفه بشر، وارتقيت ظهور الجن العمالقة وركبت البساط السحري إلى جزائر الهند والصين، ودر صدري بالشفقة والخوف على أولاد المساتير المسخوطين كلابا تنبح وتتغطى منهم الحريم حياء، والمسحورين حميرا وبغالاً تعتل الأثقال وتدور بأحجار الطواحين الثقيلة في سيرجة معتمة نازلة تحت الأرض،والرجال الذين لا ينامون أبدا يضربونها بفروع من خشب الجميز، والزيت يتقطر ويرشح ببطء في طسوت واسعة جدرانها الصفيح، سوداء ولزجة، وعرفت جب الخِصِي بالسكاكين واستلال المحاشم وصب الزيت المغلي على الجسم الحي المتنزي وطيران الرءوس على حدود السيوف والموت صبرا في الغَيران والآبار والزنازين والحبوس، والعبيد يكدون وتَنْقَصِم ظهورهم في الوديان والمحاجر والأهوار، والجواري الرافهات اللاعبات بالدفّ والعود، وقتلى الحب، وصرعى المكائد، والأبرياء يؤخذون بجرائد الماكرين، والصعايدة يحملون شوالات الدقيق البيضاء

الدسمة الانبعاجات على ظهورهم القوية القضـيفة التـي لا يكسوها إلا خيش شوال مقطوع الجانبين تبرز منهمـا أذرع عارية سوداء معقدة العضلات، والبنات الحيـات، والبنـات الغزلان، والشطار والعيار، والعماليق والبطاريق، والقسوس والنصـارى بقلانسـهم وزنـانيرهم وصـلبانهم والسـحرة والمجانين والدراويش والهائمين، والمجـوس عبـدة النـار، والسود عبدة الأصنام، والقراصنة . والربابنة، والقهرمانـات والطواشي، والرهبان والمجاهدين والصـناع والجواهرجيـة والصياغ والمزينين والحمالين والخلفاء والوزراء وشـهبنَادِر التجار، والبنات الصغيرات صـدورهن ضـيقة ومخسـوفة وشعورهن الخشنة ملفوفة بالمدورة البيضاء غيـر النظيفـة ينحنين طول النهار بالإبرة والخيط وجوههن الشاحبة تلتصق بالقماش الأسود في مشغل روزا الشامية، يفقدن عيونهن في عتمة الغرفة الطويلة المنخفضة السـقف، وتلَـوت الرقِـي والتعازيم وحللت الطلاسم وحملت الأحجبة وملسـت علـى العمدان وأشعلت المجامر ولبست الخواتم السحرية ووجـدت حجر الفلاسفة ونشقت البـنج والنشـوق وسـففت العقـاقير والزرنيخ ولعبت بالدرر واللآلئ والزبرجد والياقوت وتنزهت

في البساتين ذات الأشـجار الباسـقة الفارعـة والعريضـة والعقيمة والمثمرة والمتشابكة والجرداء . النخـل والجميـز والتين الهندي والسـنط والكـافور والنبـق وأُم الشـعور، واغتسلت في الحمامات، وانسربت في الدهاليز والرواقـات ونمت في الخانات علـى المصـاطب والسـرر المفروشـة بالحرير، ورميت بالسهام والرماح من الأبراج والحصـون، وامتطيت صهوات الخيل في الإصـطبلات بينمـا الرجـال يحكّون روث الخيل الداكن اللون طبقاتٍ مكومة فوق طبقات، والروث الجديد فوقها مدور مصفَر اللون يصعد منه البخار، وأبحرت على سفن كالجبال تمخر البحار إلى الهند والسـند وجزر الواق واق،وكنت هناك والتراماواي يـدهم الصـبيان وتطير أشلاؤهم الدامية، سيقانًا عاريـة مقطوعة،ورءوسـهم تتدحرج على حجر البازلت الأسود النظيف، انسـللت أمـام زرائب الجاموس المظلمة، أرضها الترابية عليها أكداس من التبن الأسود المنعجن بالروث ولها رائحة نفاذة حارقة للأنف يعمل فيها رجال سود ليس عليهم إلا سراويل كالحـة مـن العبك متصلبة بالنفايات الجافة عليها، وصديريات ذات صف عمودي من أزرار صغيرة مدورة كثيرة، كثيفة القماش مـن

الوسخ يكسحون الروث بأيديهم، يملئون به جرادل ضـخمة مدورة ويلقونه في أكوام لازجة جنب الباب ويضربون ما بقي منه بالتبن المكدس على الأرض، ونساؤهم بعيونهن الجائعة وملابسهن السوداء بالبلل، يحلبن الضروع الثرة باللبن الـذي يسقط له خرير في الأسطال المعدنية اللامعة، ثم يركعن أمام أكوام الروث ويصنعن أقراص الجلة يفرشنها فـي الشـمس على أرض الشارع .

وعندما عدت تجولت في شوارع بغداد متنكرا مـع هارون الرشيد، وسمعت شجو الأغاني مع الموصلي وبراعة القريض، وروعتني فاجعة البرامكة وأحسست عنقي في يـد مسرور السياف وذراعي ورجلي مقيدة بالكلاليب والجنازير، وصارعت الأحناش والتنانين وفتحت الكنز المرصود عـن ذهب وماس ولؤلؤ منثور، وأكلت مـن أصـناف الطعـوم المطبوخات والمشويات والحلويات والنُقْل من لـوز وجـوز وبندق وزبيب، وحسوتُ القهوة والشربات والنارنج والنبيـذ الأصهب كالزعفران، وشممت الآس والياسـمين والنـرجس والقرنفل، وعجبت من أفعال الرجال في ثياب النساء والنساء في زي الرجال المحاربين، وعاشرت العفاريت الكفرة والجن

المؤمنين والغلمان كالبدور والقيان كالشموس وعرائس البحار، والبنات الطيور يخلعن ريشهن فإذا لهن حسن يدوخ العقول، كأنهن الحور العين، ونعمت بملمس القمصان البندقية، الذهبية منها والمشمشية والمطرزة بأسلاك الفضة، على نساء لهن شعور كالحرير ووجنات كرحيق الأرجوان وأنوف كحد السيوف وشفاه كالعقيق أو حب الرمان، وأعناق تلعاء كالعاج وصدور كبلاط الحمام عليها نهود كفحول الرمان أو حِقاق المسك والريحان، وخصور مخَنْصرة كأنها من وهم الخيال وبطون كأنها العجين الخمران مكسورة بشقائق النعمان وأكثر بياضا من المرمر كل عكنة من أعكانها تسع أوقية من دهن اِللبان وفككتُ تِكك السراويل المعقودة على فصوص الزمرد والمنقوشة بأشعار الهوى والتدلهِ والتحريم، فإذا سيقان من رخام دافئ مسنون، فوقها كثبان من البللور ناعمة ومربربة واعدة بالنعيم، وأفخاذ كالعِمدان ألين من الزبد وأنعم من الحرير، وجلت بيدي في جميع الجهات حتى وصلت إلى قباب كثيرة الحركات والبركات عرفت من أسمائها خان أبي منصور وحبق الجسور والسمسم المقشور، وفهمت أسرار البوس والمص

والعض والغُنْج والشهقات واشتعل جسمي بالشوق فتيقظـت واشتددت وتوتر البرعم النابض المنتصب، وجلجلت نواقيس الساعة وسطع العالم للمرة الأولى بلـب المعرفـة وانهمـر الطوفان ووجدت نفسي فُلْكًا طافيا على الغَمر ولـيس بـين أمواج اليم العاتية من طريق، ومازلت أطفو وأغوص .

٥) غربان سود في النور

الطفل يحس جسمه يتيقظ فجأة في الليل، في غرفـة النوم الدافئة المغلقة الباب . ويجد أنه على سرير عالٍ ثقيـل بالأغطية، ليس سريره . وأمه جنبه، مرتفعة الجسـم، تمـلأ السرير والغرفة . ويعرف أن أباه ليس هنا، ولا يعرف أيـن ذهب، ولماذا هو غائب لا ينام هنا . ويتحرك الطفـل علـى يديه وعلى قدميه، يلف من تحت ساقي أمـه النائمـة التـي تتنفس بهدوء، بصوت مسموع وينزل من على هذا السـرير إلى صندوق كبير لا يكاد يراه فـي ظلمـة الليـل، مغطـى بالألحفة والملاءات المطوية الناعمة التي تتلقى سقطته عليها من غير صدمة .

لماذا كان يريد أن يذهب إلى سريره، مسوى، نظيفًا، لم ينم عليه الليلة، عريضا وموحشا ؟

عندما صعد من على الصندوق إلى سريره الخـالي، وقف غير ثابت القدمين على المرتبة الطرية، ومشى، يهتز، حتى جاء إلى النافذة المواربة، ونظر منهـا إلـى الشـارع، تحت . كانت النافذة عالية جدا.

عمود نور في الشارع الخاوي يتقد بالغاز الأبـيض الساطع شعلته لا تكاد تهتز في داخل فانوس الزجاج المربـع النظيف، فتحته من تحت، والنور يسقط من العمـود علـى شجرة كثة الورق، خضرتها، في الليل، تلمع بضوء الغـاز، وتحت العمود، بعيدا جدا تحت، يقـف العسـكري، بحلتـه السوداء أزرارها الصـفراء تـومض وتنطفـئ، والبندقيـة الطويلة، ترتفع من وراء ظهره مصوبة إلـى أعلـى، إليـه مباشرة، والأبواب كلها مغلقة أمامه، والشارع واسع أسـود الأرضية وطويل جدا . صدر الطفل ممتلـئ بـدقات قلبـه العالية، وهو يرى على الشجرة، وبين الورق المتراكب فـي الظل والنور، سِربا من الطيور السـوداء، طويلـة الجسـم، كثيرة، كثيرة بلا عدد، واقفة، صامتة، ظهورها مقوسة قليلاً ومناقيرها مطبقة وممدودة إلى الأمام .

يسقط إلى الخلف، يرى خطـوط النـور البيضـاء، متجاورة، مستقيمة تقع على ظلمة سريره من خلال خِصاص النافذة .

يحس أمه تثب إليه من السـرير الآخـر، تحيطـه بذراعيها العاريتين، نعومتهما على ظهره، ليس فيهما أمـان،

بعد، وتقول بصوت خفيض مِلح : اسم الصليب اسم الصليب، وتحتضنه إليها فيغمض عينيه ويدفن رأسه في صدرها الغني لا يكاد يحتمل دق الدم في صدره .

يقول لأمه : فين بابا ؟ فين بابـا ؟ فتهدهـد خوفـه ياختي، يا يسوع . مالك مسروع كده، إيه اللى قومك بـس ؟ طب تعال . تعال نام واتخمد كده . سرعتني . فيسأل ثانية : فين بابا ؟ فين بابا ؟ ويحس عينيه تغمضان .

وبعد أن ضربته الحياة كثيرا، وأحبطته، ولانت لـه أيضا، وأمتعته بعمق مثل كل الناس، ظل يرى المشهد نقيـا، كأنه حدث بالأمس، كأنه يحدث الآن .

في قاع المياه المضطربة حصاة بيضـاء، مـدورة، ناعمة . لم تترسب عليهـا شـائبة مـن عكـارة السـنوات وطينتها .

ظل يحتفظ به طوال عمـره، يتأملـه ويسـترجعه، يهدهده في خِيفة . ويعتقد أنه أول ما يذكر، أول مـا بقـي، واضحا، وحاضرا، وفعالاً . ويظن أنه كان عندئذ في الثالثة من عمره بالكثير بل يجب أن يتصور أنه كان في الثانية من عمره حتى، ولكنه يقول : الثانية ؟ غير معقول . لا أظـن .

هذا مبكر جدا، أليس كذلك ؟ في الوقت الذي يظل فيه أميـل إلى هذه الفكرة لا يتخلى عنها، ويقول : ولِم لا ؟ صـحيح . نعم . كنت في الثانية، أو نحو ذلك على أية حال، صحيح ... ولا يستطيع طبعا أن يحسم الأمر . بل ينظر إلى الطفل الذي كانه، ويبتسم قليلاً، وكأنه آخر، وإن كـان غيـر غريـب . ومازال يشعر بخوف ذلـك الطفـل، ومضضـه، وبحثـه الملتبس .

قال لنفسه : من هذا الطفل ؟ وأين هو ؟

وقال : ومن الصبي الذي كان بعد عشر سنين، وبعد أن طفا فُلكًا متطوحا على طوفان جسده، وحده، تتخـبط بـه أمواج ملتطمة وساطعة وملتبسة ؟

انتقل أبواه، مرة أخرى، وأخرى، من بيت إلى بيت، بحثًا عن شقة إيجارها أرخص، وأقرب إلى العباسية الثانوية، وهربا من الحجز على عفش البيت وفاء للأجـرة المتـأخرة المكسورة شهرا على شهر، حتى استقروا في بيت عبده فـي محرم بك .

وانقطعت صداقاته بزملاء النيل الابتدائية في غـيط العنب وكان يحس نفسه وحيدا وغريبا بين جمهـرة تلاميـذ

العباسية الثانوية، كثيرين جدا، ملابسـهم أغلـى وأحسـن، كلامهم وطريقة سلوكهم تختلف، والمسلمون فيهم أكبر عددا بكثير . وتعلم أن يأكل، حسب الأصول، في مطعم المدرسـة الفواح برائحة الأكل الشهي والمدوي بلغط الأكـل البهـيج، الطبيخ والأرز واللحم أو الفراخ والحلو كـل يـوم، وقبـل الأعياد هناك الأكل الصيامي اللذيذ للأقباط، مخصوص، أما في رمضان فيصرف لهم سندويتشات، موضوعة في علـب ورق بيضاء . وفي الفسح الطويلة بعد الغـداء دخـل فـي زمالات وصراعات ولعب الكرة الشراب وتسـلق أشـجار الجنينة الممنوعة في بيت النـاظر، وضـرب وانضـرب، وعرف المكتبة الغنية وغرق فـي كنوزهـا، وطـرد مـن المدرسة لأنه لم يدفع قسط المصاريف وعاد بعد أن دبر أبوه الجنيهين و٣٠٠ مليم وأخذ بها إيصالاً رقيق الـورق أحمـر اللون .

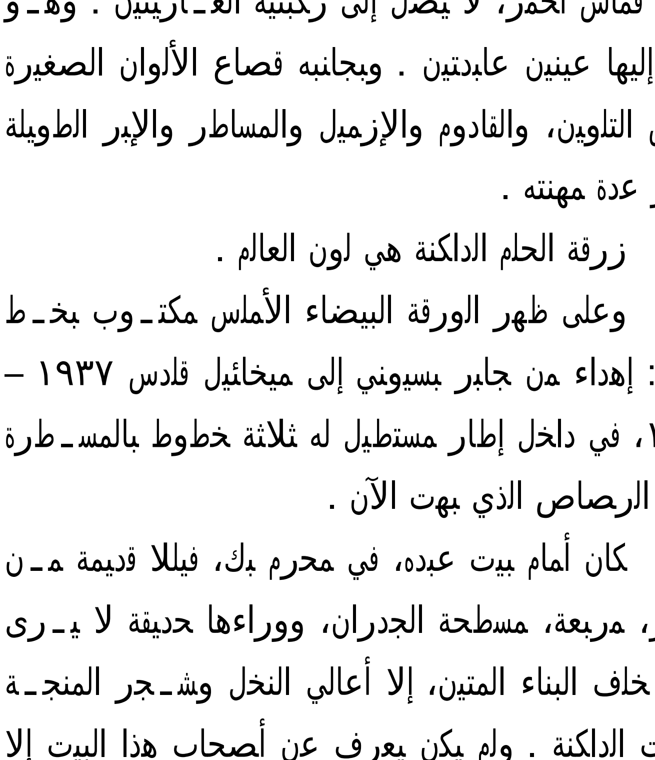
كانت أمه قد أطلت من البلكونة على البائع الذي كان ينادي من تحت " بيكيا . بوتيليا .. " وقالت له : تعال . وكان صعيديا يلف على رأسه عمامة من قماش أسود وحول رقبته الطويلة كوفية سوداء، وساومته طويلاً وقال لها صلي علـى

النبي، طّب مجدي سيدك، ما هي جايبة حق المشال . حتـى رضيت بأن يأخذ البوريه، بمرآته البلجيكية الثقيلـة، علـى جانبيها دواليب صغيرة أبوابها الخشبية مشغولة ولها زجـاج محبب أصفر وأحمر داكن . ورخامتـه المحمـرة مجزعـة بتشريجات بيضاء متشعبة، وأدراجه التي كان يرسـم علـى خشبها الداخلي الأبيض، وهو طفل، رسوم رجال لهم وجـوه دائرية مقطعوة فيها عينان وشرطة فم وأيد وأرجل كالعصي، وكتب عليه اسمه من غير حروف المـد كلهـا، بحـروف منفصلة م خ ء ل . وذهب الرجل وعـاد معـه " شـيال " صعيدي ثقيل الجسم فك أجزاء البوريه وحملها على ظهـره ونزل بها السلالم .

كان جابر الصديق الوحيد الذي ظل يأتي من غـيط العنب . كان قد قضى العام كله في المدرسة الزراعية فـي شبين الكوم، حيث عاد أبوه، مازال يعـاني مـن المـرض، والكحة، وقال له إنه سقط في الامتحان آخر السنة ، وإنهـم عادوا إلى بيتهم في غيط العنب، وإنه اشتغل ظهورات فـي البلدية ويكسب الآن عشرين قرشًا في الأسبوع، كـل يـوم سبت، نعمة من عند ربنا، وكان يأتي بأعداد رجوع من مجلة

أبوللو، وروايات الجيب، وأهداه صورة قطعها مـن مجلـة أبوللو، على ورق جِسه ناعم، بألوان مضطربة، وفي أسـفل الورقة علامات خروم الدبابيس التي كانت تثبتـه بالمجلـة، وعنوان، نفرتيتى والمثال .

نفرتيتي تجلس على منصة عاليـة بـدرجتين عـن الأرض، وبجانبها أصص زرع بنفسجي وحشي مهتَدل تحت ستارة ثقيلة زرقاء عليها رسم أعواد اللوتس القائمة الطويلـة تنتهي بازدهار مقوس تخطيطي الزخرفـة . تاجهـا الأزرق المقطوع السطح معقود بشريط مذهب التطريز، وكأنها تنظر إلى ما وراء الصورة، وجهها صارم ودقيق فيه شبه ابتسامة، وصدرها عار تماما لا يغطيه إلا عقد عريض متعدد الحلقات بالأزرق والأصفر وثدياها صغيران وقائمان في دورانهمـا ليونة متماسكة مخروطة، وينسـدل علـى فخـذيها ثوبهـا الحريري الأبيض اللدن الطيات . أمامها، من بعيـد وإلـى تحت، المثال . يضع اللمسات الأخيرة في تمثالهـا، جالسـا على كرسي بغير ظهر وإحدى ركبتيه مثنية، نصف جسـمه العلوي عارٍ خشن الأضلاع وشعره جعد مربـوط بعصـابة رفيعة من القماش الأبيض، ويلف على حقويه إزارا معقـودا



بحزام قماش أحمر، لا يصل إلى ركبتيه العاريتين . وهو يرفع إليها عينين عابدتين . وبجانبه قصاع الألوان الصغيرة وفُرش التلوين، والقادوم والإزميل والمساطر والإبر الطويلة وسائر عدة مهنته .

زرقة الحلم الداكنة هي لون العالم .

وعلى ظهر الورقة البيضاء الأملس مكتوب بخط كبير : إهداء من جابر بسيوني إلى ميخائيل قلدس ١٩٣٧ – ١٩٣٨، في داخل إطار مستطيل له ثلاثة خطوط بالمسطرة والقلم الرصاص الذي بهت الآن .

كان أمام بيت عبده، في محرم بك، فيللا قديمة من الحجر، مربعة، مسطحة الجدران، ووراءها حديقة لا يرى منها، خلف البناء المتين، إلا أعالي النخل وشجر المنجة والتوت الداكنة . ولم يكن يعرف عن أصحاب هذا البيت إلا أنهم أغنياء، مترفعون، لا يختلطون بالجيران بل لا يكلمونهم، وأمهم أم عجوز لم يرها قط، وولد في مثل سنه كان يخرج إلى البلكونة، في مقابل بلكونة بيتهم، كثيرا، وكان يذهب للمدرسة في سيارة فورد سوداء عالية ومربعة، وأخته الأكبر

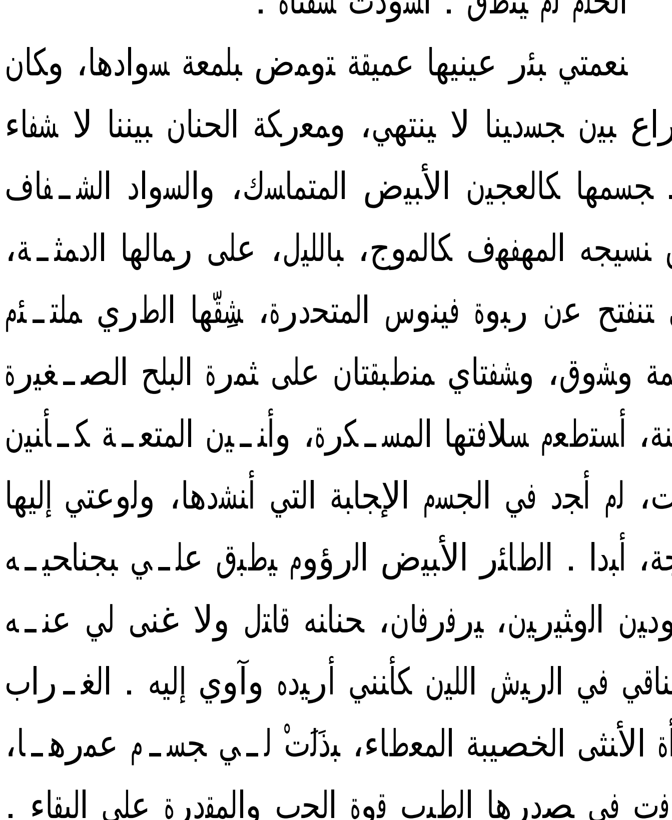
منه بعدة سنوات، جميلة جدا . ولم يعرف أسماءهم ولا جرؤ أن يسأل، وكان يعرف أنهم من أصل تركي .

كان يقف في البلكونة المطلة على الفيللا، أعلى منها قليلاً، ساعات . لا يفعل شيئًا، ينتظر فقـط أن تخـرج إلـى الشرفة المقابلة .

وكانت لا تخرج إلا لحظة واحدة، ثم تـدخل علـى الفور .

كانت بيضاوية الوجه، ناصعة، شعرها الفاتح ينسدل على كتفها وتلمه وراء عنقها بربطة زرقاء رقيقـة، ودائمـا تخرج في " روب دى شامبر " حريري، أزرق سماوي عليه رسوم ورد أحمر وأصفر كبير، ملفوف على جسمها اللـدن، سابغ يؤكد انسياب ساقيها الطويلتين، وكان لحذائها الصـغير ذي الكعب العالي قليلاً وقع على بلاط شرفتها، يسمعه فـي الشارع الساكت .

يحبها جدا، ويحلم بها أحلاما مبهمة غير متحددة، ولم يفكر قط في أن يعرفها أو تعرفه أو تنعقد بينهما علاقة مـن أي نوع . فقط ينتظرها، وينظر إليها، وترفع إليـه عينيهـا أحيانًا، ويحبها جدا .



الحلم لم ينطق . اسودت شفتاه .

نعمتي بئر عينيها عميقة تومض بلمعة سوادها، وكان الصراع بين جسدينا لا ينتهي، ومعركة الحنان بيننا لا شفاء لها . جسمها كالعجين الأبيض المتماسك، والسواد الشـفاف يبرق نسيجه المهفهف كالموج، بالليل، على رمالها الدمثـة، وهي تنفتح عن ربوة فينوس المتحدرة، شِقّها الطري ملتـئم بنعومة وشوق، وشفتاي منطبقتان على ثمرة البلح الصـغيرة الداكنة، أستطعم سلافتها المسـكرة، وأئـين المتعـة كـأنين الموت، لم أجد في الجسم الإجابة التي أنشدها، ولوعتي إليها لاعجة، أبدا . الطائر الأبيض الرؤوم يطبق علـي بجناحيـه الأسودين الوثيرين، يرفرفان، حنانه قاتل ولا غنى لي عنـه واختناقي في الريش اللين كأنني أريده وآوي إليه . الغـراب الحدأة الأنثى الخصيبة المعطاء، بذَلَتْ لـي جسـم عمرهـا، وعرفت في صدرها الطيب قوة الحب والمقدرة على البقاء . فأين مهب الهواء الفسيح في الأفق الواسع المفتوح ؟ وأيـن عصف الرعد بموسيقى الحريـة والفـرح، وميـاه المطـر الهامرة، مدرارا منبرئة ؟ عدت إلى حضن طائري بعـد أن أحرقني عقيق برق العشق، بعد أن اشتعلت في نار العليقـة

القائمة أبدا لا يبقى منها إلا جذع أسـود الجمـال، مـتفحم وصلب ومستضيء لا يسقط ولا ينكسر .

كان أبوه ـ أيامها ـ قد ترك عملـه عنـد الشـيخ المراغي تاجر البيض والبصل والمسلى في شارع انسطاسي بسبب قضية ما ظلت غامضة عليه حتى الآن، وكان بالكـاد يعمل حسابات التجار الآخرين باليومية، أو بالمقاولة، يشتغل يوما أو يومين، أو أسبوعا أو أسبوعين ثـم لا يجـد شـغلاً بالأسابيع، ولكنه ينزل كل يوم على الصبح، في ميعاده، بعد أن يشرب قهوته التي يصنعها بنفسه على "السـبرتاية" ولا يعود إلا على المساء . جف وجهه ونحـل وغـارت عينـاه الثاقبتان المليئتان بالذكاء واليقظة، ولم يشـرب خمسـينية " الكونياك " على العشاء إلا في النـادر، ولكنـه ظـل أنيـق الملبس، أمي تنظف له " البالطو " بالفرشة صباح كل يـوم، والجلابية المفتوحة الحرير " السكروته " مكوية دائما تهفهف، شقها مطوي على الشق الآخـر بحـزام مضـفور دقيـق، والطربوش حاد الدوران، جاف الحافة من غير أثر للعـرق ليس عليه ذرة غبار .

وقرأ في اللطائف المصـورة أن حضـرة صـاحب السعادة مراد سيد أحمد باشا عين وزيـرا مفوضـا لمصـر بألمانيا بعد أن كان يشغل هذا المنصب فـي بلجيكـا خلفًـا لسعادة سيزوستريس سيداروس باشا وترك أثرا جلـيلاً فـي التمثيل الخارجي، وتأمل قليلاً فـي صـورته، بـالطربوش القصير والنظارة المدورة اللامعة والشارب المشذب، والياقة "البمباغ " والمعطف " الاسموكنج "، ممتلئًا باعتدال وكبرياء .

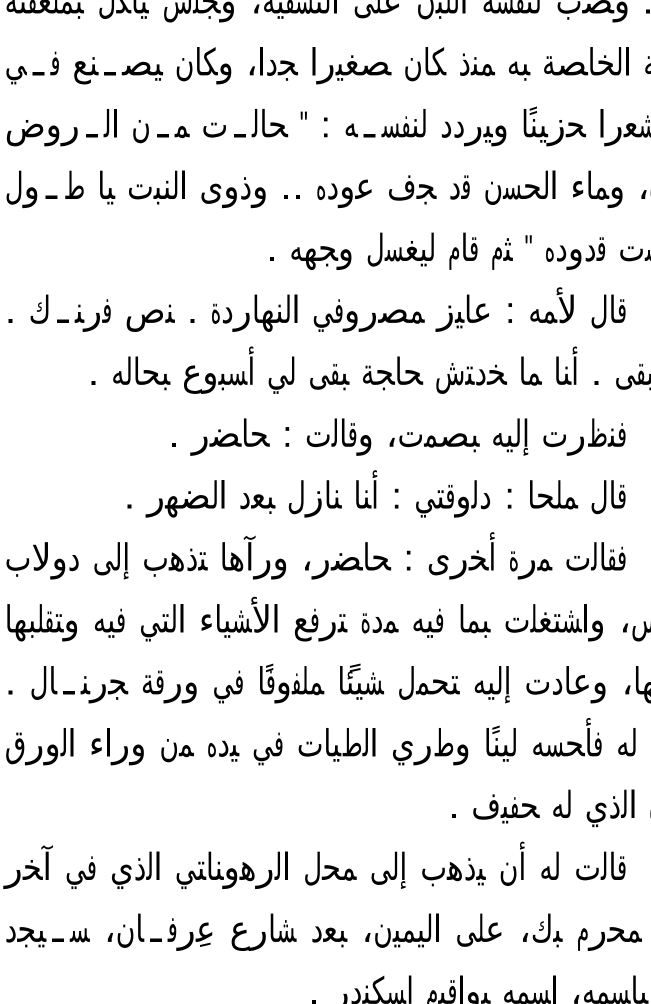
عاد أبوه مرهقًا، هالكًا من البحث والفشل، وسمع أمه وهي قاعدة على الأرض في الفسحة تقول باللهجة الصعيدية التي تعلمتها منه رغما عنها : يا حزني يا حزني ... يا ميلة بختك يا سوسن .. ودخل أبوه غرفة النوم وأغلق بابها علـى نفسه وسمعه يصلي وارتفع صوته من وراء البـاب بنشـيج مكتوم ودعاء ، محروق القلب، فثارت نفسه عندئـذ علـى أبيه وأمه معا، واعتمل قلبه بالسخط الغامض عليهمـا معـا، والغضب، وهرب إلى الغرفة التي فيها مائدته الرخامية أمام " الكنبة "، فتح كتابا لم يقرأ فيه، وعندما نادتـه أمـه علـى العشاء مع إخوته قال لها :إن نفسه مسـدودة فقالـت إنهـا

ستترك عشاءه على ترابيزة الوسط في الفسحة وقال له أبـوه ربنا يرضى عليك يا ولدي وينجحك ويفرح قلبي بيك .

قال : وقامت الحرب بعد ذلك، وانصـلحت الأمـور قليلاً وانتظمت، ودخلت الجامعة لأدرس الهندسـة لأن أبـي كان يريد أن يراني مهندسا وبناء عظيما ولكنه مات في ثاني سنة لي في الجامعة ولم يفرح قلبه بي .

وقال : مثل ناس كثيرين، جدا . وليس مثل أحد .

استيقظ من النوم متأخرا، فوجد أن أخته التي كانـت تنام على نفس سريره قد قامت قبله، ووجد أن صباح الجمعة يمتد حائرا وخاويا أمامه . نزع ملاءة السرير المغضنة مـن عليه ولم جلابيته حوله، وعندما فتح الشباك دخل الذباب إلى الغرفة، وكان كثيرا وعنيدا وراح يدور ويئز . فـذهب إلـى المطبخ الكبير الخالي، وكان معتما ونظيفًا، وإبريق الشـاي يغلي على الوابور وفطوره جاهز، تسـقيه الخبـز الناشـف المكسر والمكوم في صحن غويط، وكـوز اللـبن المغلـي بجانبه . وسمع أخته عايدة وأخته الصغيرة هناء تلعبان فـي البلكونة وتثرثران بذلك الذي تثرثر به البنات في سنهن، أيـا كان لا يسمع إلا أصواتًا طفلية مستغرقة في اهتمامها بنفسها،



تماما . وصب لنفسه اللبن على التسقية، وجلس يأكل بملعقته الفضية الخاصة به منذ كان صغيرا جدا، وكان يصـنع فـي ذهنه شعرا حزينًا ويردد لنفسـه : " حالـت مـن الـروض وروده، وماء الحسن قد جف عوده .. وذوى النبت يا طـول ما ماست قدوده " ثم قام ليغسل وجهه .

قال لأمه : عايز مصروفي النهاردة . نص فرنـك . كفاية بقى . أنا ما خدتش حاجة بقى لي أسبوع بحاله .

فنظرت إليه بصمت، وقالت : حاضر .

قال ملحا : دلوقتي : أنا نازل بعد الضهر .

فقالت مرة أخرى : حاضر، ورآها تذهب إلى دولاب الملابس، واشتغلت بما فيه مدة ترفع الأشياء التي فيه وتقلبها وتحطها، وعادت إليه تحمل شيئًا ملفوفًا في ورقة جرنـال . أعطته له فأحسه لينًا وطري الطيات في يده من وراء الورق الخشن الذي له حفيف .

قالت له أن يذهب إلى محل الرهوناتي الذي في آخر شارع محرم بك، على اليمين، بعد شارع عِرفـان، سـيجد يافطة باسمه، اسمه يواقيم إسكندر .

قال لها : آخد كام ؟ قالت : إللى يديهولك . وحولت عنه وجهها .

نزل السلالم بالجلابية، لـم يغيرهـا، يحمـل اللفـة المطوية، بعناية، ورفع رأسه إلى البلكونة المقابلة ودق قلبـه لأنها كانت خالية، وخرج من الشارع الترابي العريض إلـى شارع محرم بك وهو يسير بسرعة، والترام يهتز في صباح الجمعة الموحش، وعربات الحنطور تجري بجانبـه تحـت الأشجار . ومر من على المقاهي، خجلاً ومضطربا يتخيـل أن كل الناس تعرف، وعبر أمام محل عينـو فـي تقـاطع الإسكندراني ومحرم بك، وسار تحـت الأسـوار الحديديـة للبيوت القديمة كأنها سرايات، بأبراجهـا الحجريـة الكثيفـة الشجر، حتى وجد الدكان، عليه اليافطة، وبابه مـن الصـاج المضلع، مرتفعا في أسطوانة كبيرة ملفوفة إلى أعلى . وكان واسعا ومعتما، والبلاط الرمادي رطب تحت حذائه القماش .

وكانت المنصة الرخامية سوداء وعالية، يقـوم فـي منتصفها حاجز من النحاس من الحائط للحائط، له قضـبان رفيعة لامعة صفراء، متجاورة، في وسطها فتحـة مـدورة صغيرة، ومد الرجل يده، من الفتحة، بصمت .

رأى وجهه الغليظ تحت طربوش قصير داكن الحافة ضيق على جبهته الناتئة وأنفه حاد، أقنى، عيناه صـغيرتان قال لنفسه إن فيهما نوعا من الفهم والحزن وقـال لنفسـه لا ليس فيهما شيء .

انفكت ورقة الجرنال وسقطت، وأحـس فـي يديـه النسيج الصوف القديم بلونه البنفسجي الفاتح عاريا وسـاخنًا من طول إمساكه به، فتل الصوف واضحة متقاطعة، كثيفـة، وشم نَفْثَةً خفيفة من رائحة العرق وهبوة لا تكاد تحس مـن العطر الذي يعرفه . تناول الرجل الفستان من يديه، وفـرده وراء الحاجز النحاسي وهزه أمامه، ورأى الكُمين الطـويلين الضيقين، يهتزان بين اليدين الغريبتين، وانسدال النسيج مـن تحت الحزام العريض وفتحة الرقبة المشغولة بكلفة من غير القماش نفسه خالية، وقال الرجل بصوت طري. مـن غيـر اهتمام، وحاسم : ثمانية صاغ . وأحس صوته يخرج مخنوقًا قليلاً وهو يقول : طيب . وكتب الرجل على ورقة مشرشرة في منتصفها، ثم مزقها من عند الشرشرة بصـوت سـمعه مفاجئًا، قاطعا، في عتمة الدكان الفسـيحة، ورشـق نصـف

الورق بدبوس في رقبة الفستان، وأعطاه النصف الآخر وقال له : "شهر، فك الرهنية بعد ٣٠ يوم، من النهارده ".

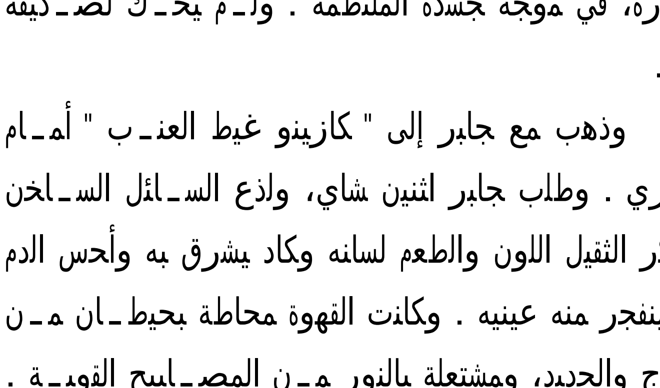
أعطاه الفلوس، قطعة بخمسة، وقطعة نصف فرنك مدورة صغيرة وقرشين تعريفة مخرومين .

وخرج من الدكان . أعشى عينيه نور الشمس الحارقة، فلم ير في الشارع شيئًا .

تغدوا يومها متأخرين جدا، نزلت أمه بالملاءة السوداء، وعادت ومعها لفة طرية الشكل في قطعة قماش سوداء مربوطة، عندما فكتها على رخامة المطبخ اصطدمت بها، بصوت مبلل، أرجل الفراخ بأصابعها المفرودة وجلدها الخشن المجعد على العظام المجزوزة بالسكين، أطرافها داكنة اللون ورؤوسها المفتوحة العيون، ملتصقة بالرقاب، مقطوعة، بعضها فوق بعض على الرخامة البيضاء المنقورة بحبيبات دقيقة . أكلوا فتة عيش بالخل والثوم، وشوربة فراخ .

وبعد الغداء أعطته أمه القطعة الفضية المدورة الصغيرة التي كان قد جاء بها من دكان الرهونات .

جاء جابر بعد الظهر، وخرج يتمشى معه حتى شارع المحمودية المظلل بالشجر الكثيف، والمراكب البطيئة تنزلق على الماء الضيق الرصاصي، وحكى له جابر عن شبين الكوم، وعن ابن أخته فلفل وعن جارته امرأة البقال التي لم تخاف له، وكيف نام معها في ظهر يوم حار ونعم بذلك كثيرا، وندم على ذلك كثيرا، وصام كفارة سبعة أيام لا يأكل إلا بعد صلاة المغرب، فتذكر صلاته هو المحرقة، لإلهه، وندمه ودموعه، هو، على، لذاته السرية، كل مرة، وغرقه، بلهفة ومتعة مجلجلة الضجيج وصامتة جدا وساطعة، كل مرة، في موجة جسده الملتطمة . ولم يحك لصديقه شيئا .



وذهب مع جابر إلى " كازينو غيط العنب " أمام الكوبري . وطلب جابر اثنين شاي، ولذع السائل الساخن المسكر الثقيل اللون والطعم لسانه وكاد يشرق به وأحس الدم يكاد ينفجر منه عينيه . وكانت القهوة محاطة بحيطان من الزجاج والحديد، ومشتعلة بالنور من المصابيح القوية . وغاصة بالعربجية وعمال الزرائب والصعايدة يقرقرون في النراجيل التي يغرغر الماء في بطونها المدورة، ويشفطون

الشاي بصوت استمتاع عال، ويثرثرون بلهجتهم التي يحبهـا لأنها لهجة أبيه، وأصر على أن يدفع ثمن الطلبـات، جـاء الجرسون بجلابيته التي في مقدمتها جيـب كبيـر مبلـول، فأعطاه كل ما معه، القطعة بقرشين، وكان قد حرص علـى أن يتلمسها وهي صغيرة، رواغة، في جيبة طـول القعـدة، ليتأكد أنها هناك، وأما إصراره، لم يمانع جابر كثيرا، ولكنه عندما رد الجرسون القرش تعريفـة البـاقي، علـى سـبيل البقشيش، قال جابر همسا، إن هذا كثير، اثنين ثلاثة مليم كان كفاية .

ويقول لنفسه : أين أنت الآن يا جابر ؟ هل تعيش في إسكندرية، مازلت، ولك أولاد - كبار، وأحفاد، ربما ؟ هـل مت، وانقضيت ؟ وما أغرب هذه كله، وكيف لم يرك هـذا الصبي، بعد، طوال خمسين عاما أو تقل قليلاً ؟ أين ذهب كل هؤلاء الصغار والكبار ؟

ويقول : ما معنى هذا التوجع الصـعب، وضـعف النفس، ولذع الحنين القديم ؟ وما قيمته ؟ ألـيس هـذا كلـه معروفًا ومأثورا، قرب نهاية الأمر ؟ فما عكوفـك، المثيـر للسخرية قليلاً، على ما باد واندثر ؟ حذار .. خل بالك .

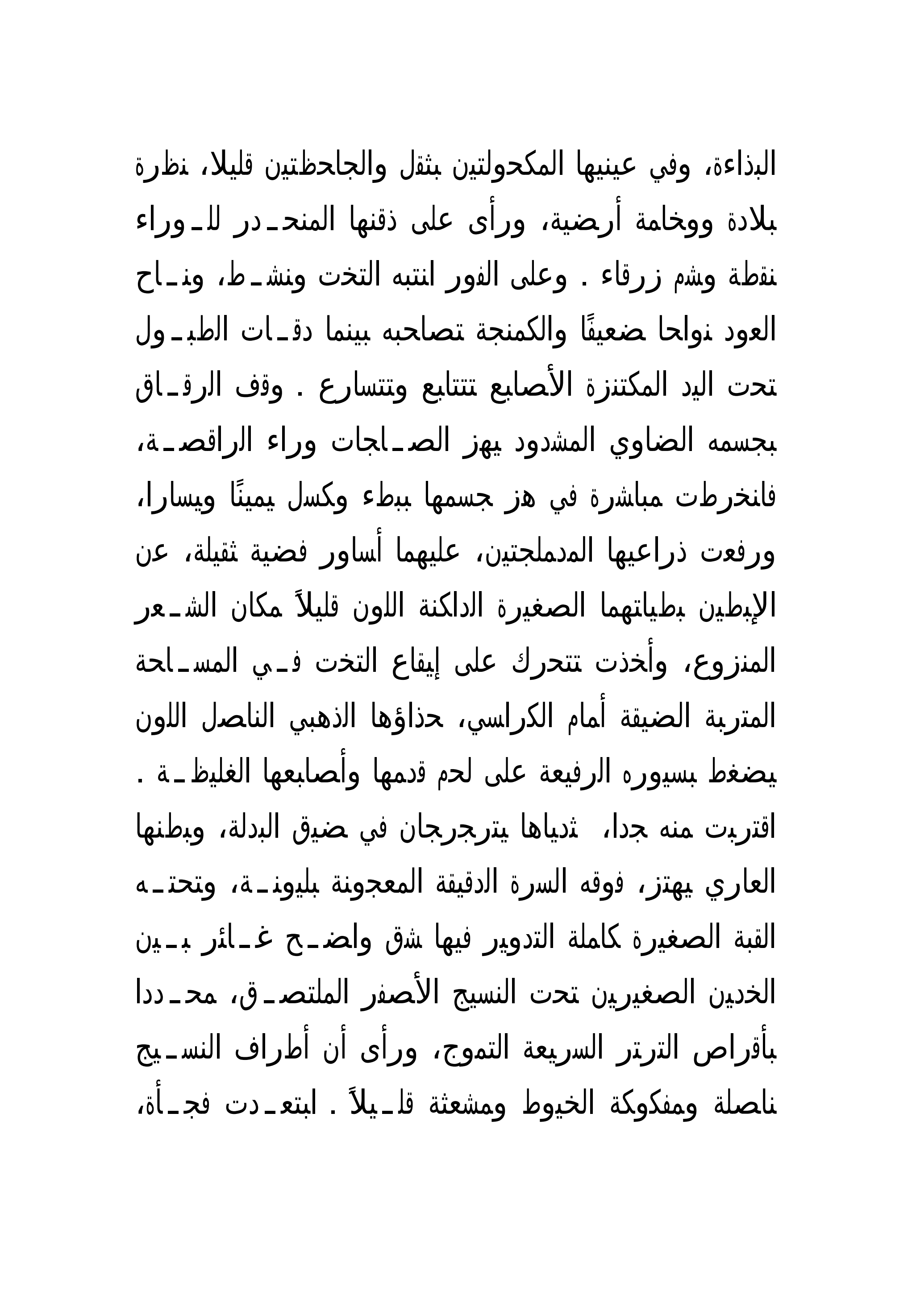
في آخر ذلك الصيف رصت الكراسـي الخيـزران صفوفًا في الحوش الضيق المترب، بـين حيطـان البيـوت المطبقة عليه . وتُركت مساحة، تحت الحائط، فيهـا كـراسٍ فارغة، مواجهة . كانت " الكلوبات " تئـز بنـور حجـري أبيض، والمصابيح الكهربائية كرات صغيرة لامعة بالضـوء الأصفر معلقة يهتز بها الهواء في حبال عرضية، مرتخيـة، بين حائطين .

الصبي يجلس، بجلابيته البيضاء النظيفة وحذاء "باتا" القماش الذي اغبر من التراب، على كرسي غير مريح فـي أول صفّ، على الآخر جنب نافذة مغلقة الشيش يتخايل مـن ورائها نور الحجرة، وإلى يمينه سيدة بدينة فاض جسمها من على الكرسي والتصق به، في فستانها " الساتان" الأخضـر تحت ملاءتها التي سقطت على ظهر الكرسي وراءها، وعلى حجرها طفل نائم بعمق في ضـجيج النـداءات والهتافـات وصراخ الأطفال يجرون بين الكراسي يثيـرون التـراب أو يتشبثون بفساتين أمهاتهم . كان أعضـاء التخـت يجربـون موسيقاهم، أصوات العود التي تـرن فـي جـوف الخشـب والكمنجة التي تئن فجأة بنغمات خادشة رفيعـة، والعجـوز

الذي يلبس طربوشًا ينز العرق على حافته يحضـن عـوده ويتمطّق بشيء بين فكيه المطبقين، وبجانبه الطبال الجسـيم وجهه مدور وأسمر ومنقور بحفَر جدري قديم، فـي جلبابـه الأبيض ذي الياقة الجافة المفتوحة على لغد مترجرج، ينظر إلى الناس بعينين نصف مغلقتين من الدهن حولهما، بجانبـه الرقّاق الطويل النحيل في بالطو وجلابية، يـداه عصـبيتان وأصابعه طويلة جدا لها أظافر مدببة ولامعة، يمسك بـالرقّ ذي الصاجات التي تصلصل قليلاً في يده، أما "الكمنجـاتي"، في بذلته السوداء التي تبدو رمادية تحت نور الكلوب وياقته " البمباغ " التي تدور حول رقبته بصلابة تتدلى منها عقـدة " بابيون " سوداء ضافية القماش على صدر قمـيص أبـيض منَشى، فقد أسند رأسه إلى يده، ترك "الكمنجة " على حجره، وبدا كأنه نائم .

ثم حدث لغط وحركة، وانفتح الباب الخشبي المطـل على الحوش، وخرج منه أولا صبي العالمة، قصيرا ورفيعا في جلابية حريرية بيضـاء تشـفّ عـن "فانلـة" رفيعـة الحمالات،تظهر من ورائها ساقاه النحيلتان، وكان أنفه أقنى ومدببا، وحاجباه مقوسان بعناية، وهو يقول بصوت مشروخ

وسع يا جدع وسعي يا أمي خـل بالـك يـا ولـد، ووراءه الراقصة تكاد تحتك بالحائط في الممر الضيق بـين البيـت وبين الكراسي المصفوفة المتزاحمة الغاصة بالنـاس، حتـى جاءت إلى أول الصف، ومرت من أمامه قريبة جدا إليه، شم منه رائحة عطر الياسمين النفاذ والبودرة ونفح الجسم النسائي الخاص . وكانت عارية إلا من بدلة الرقص اللامعة الصفراء تلف على الثديين المحبوكين والبطن المدور بترتـر فضـي صغير سريع الاهتزاز، في حركتها، ولحم الثـديين مكـور مضغوط نصفه ظاهر ومسكوب من النسيج المزدحم بحشوه اللين ؛ نوع من موسيقى الرشاقة المنسابة، كانسلال القطـط الممتلئة، في حركة ساقيها القصيرتين نوعـا مـا، والـبطن المقبب المحبوس في القماش تحت السرة التي وقع النور على غورها المدور القريب وعلى الردفين الممسـوكين بقَمطـة سوداء عريضة ذات شراشيب، يهبط منهـا، حتـى الأرض، قماش أسود شفاف بخروم دقيقة مفتوح نصفين، علق التراب بأطرافه السفلى، وفيه مزقة طويلة مرتوقة بخيط أسود ضيق الغرز، شعرها خشن وقصير صاب الشكل، وعلـى وجههـا الأبيض المربع العظام المفروش بالبودرة، لامبالاة وتحـدي


البذاءة، وفي عينيها المكحولتين بثقل والجاحظتين قليلا، نظرة بلادة ووخامة أرضية، ورأى على ذقنها المنحدر للوراء نقطة وشم زرقاء . وعلى الفور انتبه التخت ونشط، وناح العود نواحا ضعيفًا والكمنجة تصاحبه بينما دقات الطبول تحت اليد المكتنزة الأصابع تتتابع وتتسارع . وقف الرقاق بجسمه الضاوي المشدود يهز الصاجات وراء الراقصة، فانخرطت مباشرة في هز جسمها ببطء وكسل يمينًا ويسارا، ورفعت ذراعيها المدملجتين، عليهما أساور فضية ثقيلة، عن الإبطين بطياتهما الصغيرة الداكنة اللون قليلاً مكان الشعر المنزوع، وأخذت تتحرك على إيقاع التخت في المساحة المتربة الضيقة أمام الكراسي، حذاؤها الذهبي الناصل اللون يضغط بسيوره الرفيعة على لحم قدمها وأصابعها الغليظة . اقتربت منه جدا، ثدياها يترجرجان في ضيق البدلة، وبطنها العاري يهتز، فوقه السرة الدقيقة المعجونة بليونة، وتحته القبة الصغيرة كاملة التدوير فيها شق واضح غائر بين الخدين الصغيرين تحت النسيج الأصفر الملتصق، محددا بأقراص الترتر السريعة التموج، ورأى أن أطراف النسيج ناصلة ومفكوكة الخيوط ومشعثة قليلاً . ابتعدت فجأة،

واستدارات إليه بظهرها وردفاها يتراوحان في كتلة واحـدة كبيرة، وأحس بين ساقيه بـالتوتر الصـلب يفضـحه نتـوء الجلابية، وتضرج وجهه بالدم . كانت البودرة قـد سـالت قليلا على ظهرها والصبي قد تسمرت عيناه بالجسم الجميـل العاري الذي يلف ويدور وينحني ويقوم ويرتعد وينفجر ويهدأ ويميل ويتحرك بلدونة وآلية معا، على ضبط التخت وأنينـه، كأنه مشدود إلى الموسيقى الخشنة بخيوط غير مرئية، وكأنه في الوقت نفسه شيء منفصل، يقوم بعمل مرسوم، مخطـط، لا صلة له به حتى انقطع التخت فجأة، وصمت .

عاد اللغط، والنـداءات، وصـراخ النسـاء علـى أولادهن، وعادت الراقصة إلى البيت مـن البـاب الخشـبي المفتوح على الحوش . ثم انفتحت النافذة المجاورة له تماما، فتحة صغيرة مواربة، ورأى، من الشـق الطـولي، صـبي العالمة النحيل القصير، خصل شعره الأسود لينة على وجهه الأسمر الطويل، وهو ينحني يفتح حقيبة من الخشب . تناول من بين الأشياء الكثيرة فيها علبة مدورة كبيرة عليها رسـم ورد ملون، وحفن منها حفنة بودرة، وراح يمسح على ظهر الراقصة، وبطنها وفخذيها، وذراعيها، وأعلى صدرها، بنظام

وترتيب، يجفف العرق بالبودرة، بيدين مدربتين حاذقتين، في حركة بطيئة فيها ملاطفة ناعمة نسائية الإيحاء، ورأى أنـه هو أيضا متوتر وهناك نتوء مرئي تحت جلابيته الحريريـة الشفافة المنسدلة عليه تهتز وهو يعمـل، وسـمع الراقصـة تضحك فجأة بخفوت وكأنما بمتعة وملل في الوقـت نفسـه وهي تقول : خلصيني بقى يا أختى ورانـا شـغل تـاني . وفوجئ بهذا النداء . وقام بسرعة قبل أن تعـود الراقصـة للحوش، ولف من وراء البيت . وقف في الشارع، في هواء الليل، أصوات الفرح المختلطة غامضة الآن، تحـت سـماء داكنة الزرقة حريرية الملمس، مثقوبة بنقط فضـية لامعـة، حتى جف وجهه الغارق في العرق قبل أن يصعد السلالم إلى بيتهم، ووجد صحن الفول على ترابيزة الوسط في الفسـحة، وأكله بشهية وجوع وغضب .

في الليل، في ضوء المصباح الكهربائي القوي، كان وحده، على الكنبة الإسطمبولي، وحده يقرأ روايـة "السـهم الأسود" على مائدته الرخامية البيضاوية المفروشـة بكتبـه وقواميسه، وإلى جانبه دولاب الملابس العالي، خشبه البنـي لامع ومصقول، وعلى كل من ضلفتيه مرآة بلجيكية سـميكة

بللورية النقاء . ساقان بيضاوان يومضـان بـاللحم النـاعم وينضمان على المثلث المقبب الممسود، والنسـيج الأسـود " الساتان " يلتصق بالاستدارة الصغيرة وينتهي تحـت تكـور الردفين بنمنمة " الدانتيللا "، يتراوح سوادها المشغول بـين خرومها الدقيقة مع بياض الجسد المتنـزي المتقلـب الـذي يحتضن انبثاق الصلابة الجياشة بالدم والمتعـة المحبوسـة، حتى تنبجس، من جديد، سورة ميـاه الطوفـان، ويتقـوض الجسم .

جاء من محرم بيك، مشيا إلى محطة الرمل، تـرك وراءه أحزان صباح ثقيل السحاب فـي سـماء الإسـكندرية الفضية، المقفلة على نفسها فوق البحر، وعبر السلسة، ووقف عند الشاطبي . ترك الكورنيش، ونزل على سلالم متعرجـة منحوتة في الصخر المتآكل الزلق تحت قدميه وكانت السلالم تغوص في مياه بحرية هادئة ويهتز موجها في دوائر تتسـع حتى تصل إلى حافة جدران الصخر فتصـطدم بـه بخفـة، رغوتها متقلبة الزبد . وتحت قدميه العاريتين، بالضبط عنـد التقاء الماء بالصخر، طحلب مخضر كـث الوبرة،مخضـل بالبلولة اللازجة ؛ إذا انحسرت عنه موجـة المـاء الشـفافة،

الهفهافة القوام، جفّ الطحلب بسرعة، واصفر لونه قليلاً ونشف الماء تماما . يبيض جسد الطحلب شيئًا فشيئًا فإذا هو غض وناعم وأملس يلتف بلادونة ملتصقًا بحافة الصخر الدائرية، حتى يرتفع الماء فجأة، ويلاطمه برفق، فيبتل من جديد، ويعود أخضر غضرا كثيف اللحم .

النور يأتي من فتحة علوية واسعة منقورة في السقف الحجري مضطربة الحواف، فيغمر هذا الاتساع الداخلي المحصور بين صخور مشققة عليها طبقات بارزة قليلاً ملتوية الخطوط بلون أكثر صفرة كأنها هشة ومتماسكة بالكاد . وينفتح، إلى جانبه، في الجدار المحبب، نفق منحدر نصفه الأعلى القريب منه جاف، مدور، أرضيته رملية مفروشة بقواقع صغيرة بيضاء كثيرة، ثم يهوي النفق إلى الماء وتلتطم الأمواج فيه ويرتفع سطحها المتراوح المرتطم ويضيق حيز الفراغ فوق الموج حتى يغوص النفق تماما في الماء الذي يملؤه، بلونه الأزرق الداكن، حتى العمق المدفون الذاهب إلى تحت في ظلمة القاع.

يعرف أن فتحة النفق التي تدعوه مغوية، ومفضية إلى التهلكة، وينزل بثقة على سلالم يعرف أنها ستهبط به في

الماء، إلى كهوف أخرى، واحدا بعد واحد، منقورة كلها فـي قلب صخر البحر الداخلي، تحت الأمواج، عاليـة وفسـيحة يخب فيها نسيم رقيق ملحي الطعم، منيرة بضوء خاص مـن غير شمس ولا مصابيح ولا شموع، فيها فتحات على الرمل الأبيض الذي تغمر سطحه بالكاد، مياه قليلة، مترجرجة .

حتى وصل بعد رحلة لا جهد فيها ماشيا كأنه يسـبح في الهواء، إلى أرض رملية فسيحة غارقة في شمس السماء تحيط بها أسوار النحاس المصمتة العالية سمكية وساخنة، إن دققت عليها جاءك صدى أجوف عميق، لا باب فيها ؛ دائرية تماما ولكن شاسعة لا يكاد البصر أن يحيط بدائريتها المرمية على أقصى سعة الأفق، بإحكام لا منفذ منه، ولا رغبة له في الخروج منها .

وإلى هذه الساحة الرملية الخاوية سوف يخرج، بعـد أن يغتسل ويتطهر في البحر الملح .

يخرج إليها الماء يقطر منه، يضع رأسه على فخذيها اللدنتين العاريتين، وهي جالسة على الرمل، تبتسم، وشعرها الفاتح ينسدل على كتفيها الرشيقتين، ويغمض عينيه بـالقرب من بطنها المدور المحبوك، ويرى من خلال جفنيه المطبقين،

دوائر مشعة ملونة بالأحمر الداكن، تتسع وتتسـع وتضـيق، ويأتي بعدها نور حريري ناعم لا ألوان فيـه . وأعـرف أن الظلال السوداء عندئذ، سوف ترفرف علي، وتسـقط، مـن السماء الخاوية .

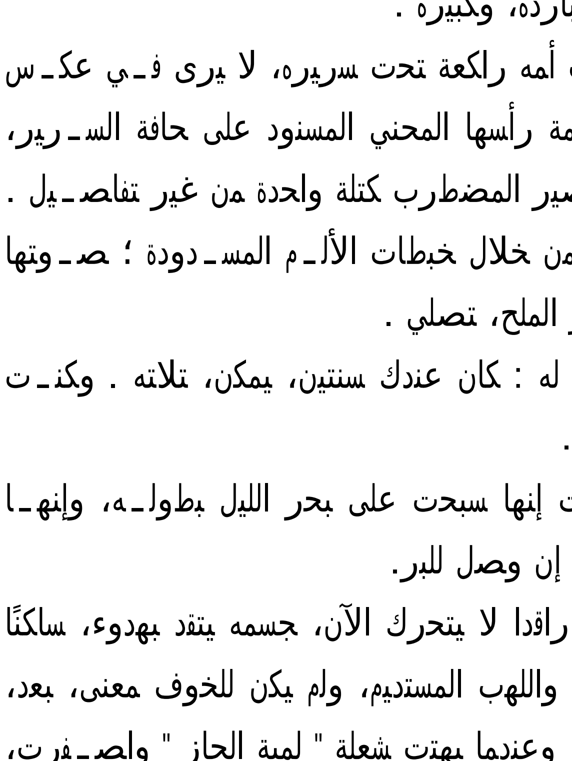
لماذا أنثر حبات قلبي على الرمـال، تحـت أقـدام العابرين، من سوف يلتقطها ؟ وماذا سيفعل بها ؟

٦) النوارس بيضاء الجناح

سمع الطفل رفرفة أجنحة الملاك .

غرفة نومه كأنها واحدة، متكررة في بيوت متعاقبة، دافئة وليلية ومزدحمة بالسرير العالي ذي الأعمدة الأربعـة، داير السرير التُلّ الأبيض المخرم، عليه نقـوش مشـغولة، لسلال مخصوفة متهدلة بالورد المفتوح، يحاصره من فـوق، ثابت وساقط في النور . " لمبة الجاز " نمرة خمسـة معلقـة على الحائط، كأنها قريبة إليه جدا، شعلتها البيضاء مدببـة، لسانها رفيع صاعد يذوب في سن من النار ترتعش وتتجـدد من وراء زجاجها الرقيق .

والألم في أذنه كان ثاقبا، ودائما، لا يخـف ولكـن ينبض، يهزه بإيقاع متكرر، مستمر والطفل كان قد قبل هـذا الألم الذي لم يكن الرجل يقبله، أبدا . ورقبته كانت ضـخمة، متورمة تملأ عليه إحساسه، ملفوفة بربطـة بيضـاء عليهـا قماش ملوي بعضه على بعض، طري بشيء لـزج وداكـن اللون والنار كانت في وجهه، ورأسه، كأنها قد أصبحت مادة جسمه نفسها . كان قد سكت الآن يغفي قليلاً كأنه يحس أنـه نائم، ويستيقظ، في الليل، وكأنه نائم، ودقات الوجع الممـزق



في جانب وجهه، منتظمة بإصرار لا ينتهى، وهو يرى شعلة النار الدقيقة باردة، وكبيرة .

كانت أمه راكعة تحت سريره، لا يرى فـي عكـس النور إلا ظلمة رأسها المحني المسنود على حافة السـرير، وشعرها القصير المضطرب كتلة واحدة من غير تفاصـيل . وكان يسمع من خلال خبطات الألـم المسـدودة ؛ صـوتها الخافت الحار الملح، تصلي .

قالت له : كان عندك سنتين، يمكن، تلاته . وكنـت هتروح مني .

وقالت إنها سبحت على بحر الليل بطولـه، وإنهـا نذرته للملاك إن وصل للبر.

كان راقدا لا يتحرك الآن، جسمه يتقد بهدوء، ساكنًا بسطوع الألم واللهب المستديم، ولم يكن للخوف معنى، بعد، ولا للحركة . وعندما بهتت شعلة " لمبة الجاز " واصـفرت، آخر الليل، وبطنها الشفاف أصبح داكن الزجاج قليلاً، ودخل الغرفة ما يشبه نور الأشياء عندما لا تعود مظلمة، كانت أمه قد تركت رأسها على حرف السرير، وهي مازالت راكعـة،

ولكنها كانت هادئة تماما، منتظمة الأنفاس، نائمة كان الليـل في آخره صامتًا فسيحا جدا وصامتًا .

عندئذ سمع رفرفة الأجنحة، واهتز دايـر السـرير فوقه، وتموج، وهبت في الغرفة المقفلة الكثيفة أنفاس ريـح باردة منعشة، وكأنها نفحة من بخور خفيف عبق بعذوبة لـم يعرفها أبدا من بعد .

ولا يذكر شيئًا آخر .

كنا في بيت بسيوني، في شارع الأنهار الذي ينتهـي ببيت أم توتو .

وله شرفة واسعة تطـل، عبـر الشـارع الترابـي النظيف، على جنينة فيها شجر ونخل وكانت أمي تقوم فـي آخر الليل وتعجن فطير الملاك في قصعة فخار واسعة، فـي هذه الشرفة، وأستيقظ على طبطبة العجـين فـأجري حافيـا وأقف أراقبها، وفي أول الصبح تأتي أقراص الفطير سـاخنة من الفرن، هشة مكورة ومنداحة قلـيلاً، وجههـا محمـوش محروق الصفرة لامع من زيت السيرج وعليه النقوش باللغة القبطية والصليب المورق الأطراف . وكانت أمي كل سـنة، تضع الأقراص في " كرسي عباس " زجاجي كأنـه زهـرة

بللورية ضخمة مفتوحة التويج، ساقها الرشيقة قائمة تـومض في الضوء، تحمل السعة الشفافة الرقراقة المضلعة وترسـل منها في أطباق واسعة مسطحة من الصيني الأبيض المنقوش بزهور صغيرة زرقاء إلى الجيران والحبايب، وأم محمـود، وأم حسن وأم توتو، وخالي حنا، وخـالتي لبيبـة . وكـان جيرانها من المسلمين يرسلون إليها أطباق العاشـوراء فـي موسمها، وأباريق الخشاف في رمضـان، ونتبـادل أطبـاق الكعك والبسكويت والغريبة والقراقيش بـاللبن، فـي أعيـاد القيامة والأضحى والميلاد والفطر، مكسوة بفـوط ناصـعة البياض، مكوية، أو ملونة بمربعات ذات شراشـيب، وتظـل أمي تقارن بين فضائل كعك كـل جـارة وعيوبـه، لدونـة العجمية فيه أو صلابة قوامه، ونعومة الغريبة أو حبيبيتهـا، وتخمن، بالتذوق والاسـتطعام، نـوع السـمن، بقـري أو جاموسي، صعيدي أو فلاحي، المصنوع منه البسكوت .

ومن هذا البيت أخذتني خالتي سارة، من يـدي، أول مرة، وذهبت معي إلى روضة الكرمة القبطية الأرثوذكسـية في شارع نزيب . وكانت خالتي سـارة صـغيرة لا تكـاد تكبرني إلا بسنوات ولكنها كانت " الألفة " في درس مدارس

الأحد التي تقام في الروضة بعد خروج الكنيسة، تنظف الغرفة الكبيرة وتعدها وتمسح السبورة وترص أصابع الطباشير الملونة بالأحمر والأصفر والأخضر، وترتب الصور الدينية التي توزع على الصغار مجانًا، وتجمع كتب الترانيم بعد الدرس .

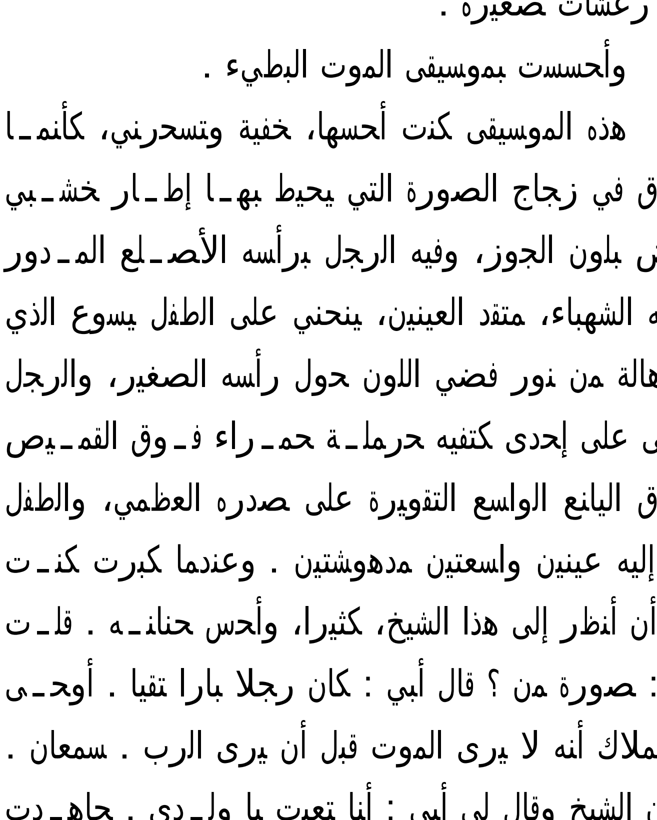
ويومها كانت الدنيا قد أمطرت طول الليل، وكان الشارع موحلاً، وكان حذائي الأسود الجديد يغوص في الطين، وهي تمسك بيدي، وشرابي الأبيض الناصع انتشرت عليه نقط الماء الطيني الأسود وحزنت عليه جدا ودخلت معها غرفة الناظر، وجلست على كرسي عالٍ عالي جدا، وكان على حيطان الغرفة المدهونة بطلاء أصفر لامع صور معلقة للأسد والجمل والزرافة، وخريطة لمصر ملونة بالأخضر والأزرق والبني المحمر، وفي أسفل الصور الورقية المبطنة بالقماش المسدلة بين قضيبين خشبيين عرضيين، بلون داكن، كتابة عرفت بعد ذلك بكثير أنها بالعربي والإنجليزي وتعلمت أن أقرأ أسماءها .

دخل منصور أفندي الناظر، طويلاً، قائم العود، صارما وحنون النظرة وجهه أسمر، وفيه نقر الجدري

القديمة الدقيقة الغائرة . وأحببته على الفور لأنه سـلم علـي باليد، وكلمني كما يكلم الرجال، ومعه " مس كاترين " نحيلة وبيضاء الوجه كالأطفال وشعرها البني الفاتح ينهمر ناعمـا ومصقولاً على كتفيها، وقبلتني على خدي، وكانت هي التـي علمتني الأبجدية بالإنجليزي وأن أقول الأرقـام وأسـتهجى كات . مات .. مان .. ران .. تحت صور القطة والحصيرة والرجل والولد الذي يجري بلا توقف .

وعندما رجعت مـن الروضـة، مليئًـا بالأخبـار والحكايات، كانت أمي قد ذهبت، بالملاءة السوداء، إلى حلقة السمك في الأنفوشي ورجعت بالترام إلى غيط العنب، ومعها شروة سمك، بلطي وقراميط وثعابين، وجنبري . وقبـل أن يغلبني النوم دخلت المطبخ، أشرب . وكان مظلما فـي أول الليل، وبمجرد أن عبرت باب المطـبخ انخطـف بصـري، وتوقف، مسحورا .

كان الجنبري الكبير شفافًا ومنيرا في الظلمة، طافيـا وممدا في الطشت النحاسي الكبير المملـوء بالمـاء، علـى الأرض . كل واحدة على حدة، إحـداهما فـوق الأخـرى، وجنب إحداها الأخرى، تلمع بنورهـا، مرسـومة بخطـوط

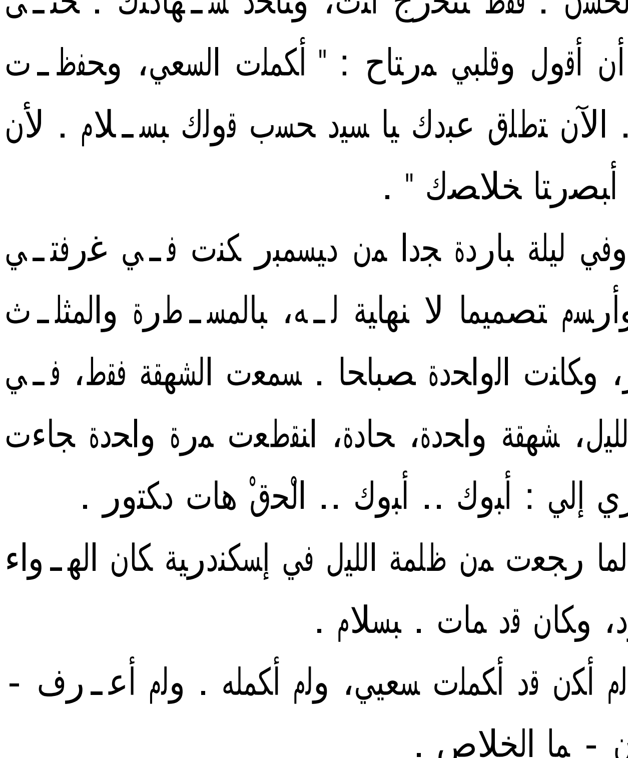


فسفورية مضيئة في عتمة الماء، من الرأس حتى الذيل، والخيوط الرفيعة السوداء تحدد هيكل العظام الدقيقة، واللحم الأبيض متوهج تحت القشرة الهشة، يضيء بإشعاع ساطع، وذيولها تتحرك أهون حركة، ترسل في الماء الذي يغمرها بالكاد رعشات صغيرة .

وأحسست بموسيقى الموت البطيء .

هذه الموسيقى كنت أحسها، خفية وتسحرني، كأنما تترقرق في زجاج الصورة التي يحيط بها إطار خشبي عريض بلون الجوز، وفيه الرجل برأسه الأصلع المدور ولحيته الشهباء، متقد العينين، ينحني على الطفل يسوع الذي تشع هالة من نور فضي اللون حول رأسه الصغير، والرجل قد ألقى على إحدى كتفيه حرملة حمراء فوق القميص الأزرق اليانع الواسع التقويرة على صدره العظمي، والطفل يرفع إليه عينين واسعتين مدهوشتين . وعندما كبرت كنت أحب أن أنظر إلى هذا الشيخ، كثيرا، وأحس حنانه . قلت لأبي : صورة من ؟ قال أبي : كان رجلا بارا تقيا . أوحى إليه الملاك أنه لا يرى الموت قبل أن يرى الرب . سمعان . سمعان الشيخ وقال لي أبي : أنا تعبت يا ولدي . جاهدت

الجهاد الحسن . فقط تتخرج أنت، وتأخذ شـهادتك . حتـى أستطيع أن أقول وقلبي مرتاح : " أكملت السعي، وحفظـت الإيمان . الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسـلام . لأن عيني قد أبصرتا خلاصك " .



وفي ليلة باردة جدا من ديسمبر كنت فـي غرفتـي أذاكر، وأرسم تصميما لا نهاية لـه، بالمسـطرة والمثلـث والبركار، وكانت الواحدة صباحا . سمعت الشهقة فقط، فـي صمت الليل، شهقة واحدة، حادة، انقطعت مرة واحدة جاءت أمي تجري إلي : أبوك .. أبوك .. الْحقْ هات دكتور .

لما رجعت من ظلمة الليل في إسكندرية كان الهـواء حاد البرد، وكان قد مات . بسلام .

لم أكن قد أكملت سعيي، ولم أكمله . ولم أعـرف - حتى الآن - ما الخلاص .

في حارة الجلنار في راغب باشا، كان البرد في بيتنا لاذعا للعظم، ولكنه لم يكن أبدا جافًا ولا قاسـيا، بـل كـان مبلولاً بشكل ما، ورطب الهواء وكنت أنزل فأشتري الفحـم من عم عبده البقال، ونضع قطع الفحم الهشة، تلمع بقطرات الجاز القليلة المصبوبة عليها، على التـراب فـي الموقـدة

الفخار، وعلى أصابعنا آثار سواده الناعم، يدخن الفحم قلـيلاً برائحة نفاذة، ثم تتطاير ألسنة النار الصغيرة ونحـن نـنفخ عليها، حتى تتقد حبات الفحم وتسطع ويتحول جسمها الهـش إلى جمرات متوهجة الحمرة فيها خطوط رقيقة أكثر اتقـادا وحمرتها أكثر التماعا، وتتكون عليها طبقة من رماد أبـيض كالدقيق، وتظل محتفظة مع ذلك بشكلها، وتكسـر حناياهـا الحادة وطبقاتها المتراوحة الحمرة، ولا تنهار إلا إذا حركنـا الموقدة، وجددنا الفحم، ووضعنا عليه حبات " أبـو فـروة " بقشرها البني الجاف المتجعد، نتخاطفهـا سـاخنة ومحمـرة البطن ولها عبق خفيف فيه نفحة من حلاوة السكر وطزاجـة الفطير في الفرن .

وكان أبي يجلس على الشلتة، على الأرض، وأمامه الطبلية المنخفضة، وعليها خمسـينية " الكونيـاك، وشـقائق البيض المسلوق المقشر وقد عصر عليهـا الليمـون، وورك الفرخة المحمر، وشرائح الجبنة التركـي الصـفراء يابسـة ومشققة وندية في الوقت نفسه بزيتها الناضـح مـن لحمهـا الداخلي، وأرغفة الخبز الصغيرة المقببة، وجهها المحمـوش الرقيق مغروس بحبة البركة المنقط والسمسم السريع التفتت .

وكان يحكي لنا حكايات، ويضحك قليلاً جدا عنـدما أغـالط أخواتي في عدد أبي فروة وأستولي لنفسي على واحدة أكثر، ولا يأخذ منه شيئًا .

المطر يقرقع على زجاج الشـبابيك بإيقـاع مطـرد سريع، الدفء داخل الغرفة يصنع غشاء كالضـباب، رقيقًـا على لوحة الزجاج الخارجية، وأرى أنوار الحارة من خـلال نداوة الماء المغبشة على الزجاج كأنها نجوم صغيرة كثيـرة متشععة، وعندما ينْعق البرق في خطفات ساطعة تثب فيهـا البيوت وسطوحها وسحب السماء في ضوء فضي باهر ثـم يختفي، تتلوها بعد ثوان فرقعة الرعد المليئة الصدر، يجلجل متلاحق الارتطام، كالطبل الضخم، كان قلبي يبـتهج جـدا، وتصرخ عايدة أختي صرخة صغيرة وتجـري هنـاء إلـى حضن أمي، فتضحك أمي ويهدئ أبي من روعها، وأحس مع ذلك لمسة من الخوف تحبك البهجة أكثر إثارة وأكثر توهجا، وإحساسا بالأمن والكِن في الغرفة التـي دفئـت، وطابـت، والفحم قد صفا، ناره رائقة، وبعد اصطفاق صـنوج الرعـد الهائلة الفسيحة المدى يكون للفحم هسيس خافـت ووشـيش مكتوم في اشتعاله الفرح الهادئ .

وفي الحرب غلا الفحم، وشح، وركنت فـي الثقافـة العامة، أتدفأ " بوابو" الجاز، أضعه يفح ويئز أزيزا متصـلاً ملهوقًا، فوقه كوز مليء بالماء، جنب رجلي، وأنـا أذاكـر دروسي على مائدتي الرخام المثقلـة الآن بالكتـب، وأفـتح "كتاب التنين للشعر " طبعة أكسفورد ١٩٣٦، بجلدته الصلبة الزرقاء الداكنة، وأقرأ شيلي بالإنجليزية، يتغنى بأوزيمانديياس ملك الملوك الذي تحت ساقيه الهائلتين المكسـورتين تمتـد الرمال موحشة ومصوحة ومسواة إلى بعيد، بينمـا الغرفـة تمتلئ برائحة " الجاز " المحروق الممتـزج ببخـار المـاء ووشيش " الوابور " المسـتمر، وكـان اسـم أوزيمانـدياس يسحرني، وأمجاد الهوى المشبوب الذى نحته شيلي في وجهه المقوض الملقى على الرمال الساخنة تزلزل قلبي بينما يسقط المطر يدق خشب البلكونة المقفل دقات متلاحقة، لا تنقطـع، تجعل جسمي المتوتر مشدود الجوارح، لا ينطفئ . وكانـت شهوات الصبا ومعاشقه حادة ناتئة الشظايا .

وكأنما كان أبي يسير معي، ممسكًا بيدي، وأنا أسير في شارع الفراهدة في أول المساء، وأعمدة النور معلقة بهـا

الكرات المدورة الزرقاء تريق ضوءها الشاحب، وكنت أفتقده جدا، ومخازن الخشب العريضة مقفلة الأبواب .

ظهرت من آخر الشـارع جماعـة مـن العسـاكر الإنجليز، يجري بعضهم وراء بعض، ويصرخون بأصـوات ثاقبة، صبيانًا في مثل سني، سكرانين مـن يقـين المـوت القريب، محترقين بلدغات الأجسام المقضي عليها مـن الآن، وأهل البلد القليلون يسيرون بسرعة، على جنب، في حـالهم، ويتبع العساكر ولد "سفروت" أكرت الشـعر، علـى سـاقيه السوداوين الممصوصين " شورت كاكي " واسع ومقطـوع، وعلى كتفيه " جاكتة " بحاري زرقاء باهتة في نـور الليـل حافي القدمين، أراه يقتفيهم بحـذر وتـربص حتـى يهـدأ ضجيجهم قليلاً، فيقترب بجرأة ويدخل معهم على الفور فـي مفاوضات سريعة منخفضة الصـوت وملحـة، بإنجليزيـة شوارع إسكندرية في الحرب ويقودهم بثقة وهم ينحرفون معا في حارة جانبية مظلمة . وأنا أمر أمام " البارات " الصغيرة، المتعاقبة في الشارع، تتدلى فوق أبوابها فوانيس محمرة داكنة على اللافتات المكتوبة بالإنجليزية : القـط الأسـود، كـنج جورج، نجمة لندن، الحصان الأبيض، والباب ينفتح فجأة عن

نور صاخب مدخن يقطع أسفلت الشارع وموسـيقى حـادة ولغط الشرب ودندنة السكارى وطنين الحديث تقطعه ضحكة نسوية فاقعة ثم يصمت فجأة بارتداد الباب، ويعود الظلام .

بعد سنة أو أكثر من موت أبي كنت أشتغل مسـاعد "مخزنجي" في مخزن ٦ للبحريـة البريطانيـة، فـي كفـر عشري، وأواصل دراستي "الهندسة" . أستيقظ من النوم فـي الخامسة صباحا لكي أفتح المخزن في السادسة، وأعمل حتى الثالثة بعد الظهر . وكنت أنقل المحاضرات من صديق نوبي دمث الوجه ومنخفض الصوت دائما، ذهبت به أمواج الأيـام عن كل شواطئي، ولم ألتق به أبدا بعد أن تخرجت، ومازال صوته الهادئ يطوف بي حتى الآن . وكنت أستأذن أحيانًـا من مستر لي، رئيس المخزن، لكي أخرج فأحضر العمل أو أقدم المشروع، فكان يأذن لي، غالبا، بل يأمر سائقه اليوناني المجند فيوصلني لغاية الكلية في محرم بك، بسـيارة جيـب مفتوحة من سيارات البحرية البريطانية، وأعـود بـالترام، وأشتغل ساعتين أو ثلاثًا في دورية بعد الظهر فيحسبها لي " أوفر تايم " أو لا يحسبها، حسب المزاج، أو أخبار الحرب . وعند وصول البواخر بشحنات جديدة أطبق وردتين فأصـل

بيتنا في راغب باشا قبل منتصف الليل، ميتًا مـن التعـب .
وإذا وجدت أن عباس قد ترك لي الكشكول أسهر فـي نقـل المحاضرة، ومع ذلك أقرأ في السياسة أو في الشـعر مـن مجلات كانت تصل إلي بالبريد من فرنسا وإنجلترا، قبـل أن أنام ساعتين، وتوقظني أمي في الخامسة، وأخطـف منهـا خمس دقائق نوم زيادة، ثم ألحق بأول ترام في شارع راغب باشا وأُغَير إلى ترام القباري، وأفتح المخزن في السادسة .

كنا في ١٩٤٤، وكنت في الثامنة عشرة، ومزعـزع الإيمان وشديد الورع، غارقًا في جسمي وطُهرانيا لم أذهـب إلى امرأة قط، وأعتبر نفسي " حر الفكر" وسوداوي المزاج، على الطريقة الرومانتيكية .

وكنت في مخزن ٦ مسئولا عن العمال المصـريين، أشغلهم وأترجم لهم وعنهم وأحسب أجـورهم . وفـي الأول كنت غريبا بينهم، قليلاً، ولكنني عندما أكلت معهـم العـيش والملح والبطاطس المقلية والجبنة التركي، وتعلمت أن أشخر لهم بالإسكندراني وأن أشتمهم بـالأب والأم والملـة، حتـى الآخر، وأطلب لهم مكافآت خاصة في الوقت نفسه وأزود لهم قليلاً في الأجر الإضافي، ووصلنا إلى اتفاق عـام مضـمر

بالتغاضي عن السرقات الهايفة فأقيدها في الأذون والدفاتر " خسائر" أو "مفقود عند التفريغ " وأن أبلغ فقط، مـع الـريس نونو، عن السرقات الكبيرة المحترمة ؛ عندئذ قبلوني واحـدا منهم، وكنا يعز بعضنا بعضا جدا . وما زلت أحن - بسذاجة - إلى صحبتهم.

ليلتها، بعد أن انصرفت الوردية الثانية، في العاشرة تماما، قال لي مستر لي أن أنتظر، ودخل مكتبـه الزجـاجي وتكلم بالتليفون، وناداني وقال لي: إن عندنا ورديـة ثالثـة طوارئ، وغن باخرة وصلت الآن فجأة بشحنة كبيـرة، وأن سيارات النقل العسكرية ستصل من الميناء في أي وقت الآن، وقال إنه متأسف جدا لأن سائقه اليوناني قد أخذ السيارة ليعيد التذاكر التي قد حجزها لحفلة الساعة التاسـعة فـي سـينما رويال، وإنه سيصرف لي بدل انتقال لأن علي أن أذهب إلى بيت الريس نونو أكلفه أن يتولى جمع العمال، بما فيهم عـم علي الونشمان، والأسطى مرسـي النجـار، مـن منـازلهم ومقاهيهم، وأننا سنشتغل، كلنا، ومعنا مستر ويلـز ومسـتر رينشو حتى نفرغ الحمولة ونرصها في المخزن . وأعطاني عنوان الريس نونو : ٣١ حارة القاضي الفاضل المتفرع من

شارع الفراهدة، وقال: إن الساعة الآن العاشرة وسبع دقائق، وأنه ينتظر الريس نونو والعمال في تمـام السـاعة الثانيـة عشرة وقال " الثانية عشرة"، على دقة الساعة، مـن غيـر معلهش " فقلت له، بحدة : " الثانية عشرة" على دقة الساعة، وليس هناك معلهش، ومن فضلك لا داعي للأفكار الجـاهزة ولا للانحيازات، لأن أولاد البلد - هـؤلاء " الِنيتڤْـز " أو " الوجز " كما تقولون - يعرفون معنى الواجب والشرف فـي العمل . فابتسم لي بعينيه فقط مـن وراء زجـاج نظارتـه السمكية قعر الكوب، وقال " رايت أو" . فقط .

ركبت ترام السبع بنات، ونزلت في محطة كركـون اللبان، وخَرمت على الفراهدة مباشرة . لماذا افتقدت أبـي، فجأة، وأنا أسير في الشارع، بأنواره الزرقـاء، وباراتـه ، وبيوته الغامضة ؟ .

انطلقت قريبا مني عربة "حنطور" مثقلـة بالعسـاكر الاستراليين، مكومين فيها ومتدلين مـن جانبيهـا ومعلقـين بمؤخرتها، بقبعاتهم المدورة العريضـة وجثـثهم الضـخمة الشاهقة، عملاق منهم أخذ مكان " العربجي الذي انحشر جنبه فارغ اليدين مسلما أمره ، والعملاق أخذ يفرقع بالكربـاج

فوق ظهر الحصان فراح يعدو كأنه قد جمح بالعربة المائلـة إلى جانبها بخطورة، والأسترال يصفرون صفيرا ثاقبا يائسا ويصرخون باستماتة : ها .. شي .. شي .. بأعلى أصواتهم، في صمت الشارع الخالي .

وجدت حارة القاضي مباشرة بعد أنقاض البيت الذي سقط عليه " طوربيد " طلياني، السنة اللي فاتـت، وتكومـت أحجاره القديمة وترابه وخشبه ونبتت فيها عناقيد ملتفة مـن النباتات والحشائش شكلها بالليل مهدد، وكانت رائحة البحـر دافئة .

عندما دخلت الحارة الطويلة أحسست بأمـان أكثـر، كانت مصابيح النور الزرقاء متباعدة وأبواب البيوت مفتوحة ومظلمة كأنها لا تغلق أبدا، ورأيت جماعات صـغيرة مـن العساكر " الأفريكان "السود الضخام، والإنجليز الشقر الناحلي القامات، وعددا قليلاً من أهل البلـد بالجلاليـب والبلاطـي الخفيفة أو البنطلونات، معظمهم كبار في السن جدا، يخرجون ويدخلون البيوت بصمت وسرية . ومررت، وأنا أحـاول أن أقرأ أرقام البيوت، على بار واحد ضيق الباب وعليه كلمـة واحدة بالإنجليزية " بار " تومض وتنطفئ لمبة كروية حمراء

فوقها، وعلى قمة الحارة التالية عربة الكبدة والطحال، عليها صينية مدورة فوق " وابور" جاز يفح بصوت واضح أبح في سكون الليل، ونشيش مرقة الكبدة ورائحتها المقلية تفغمنـي وتفتح نفسي للأكل .

وصلت البيت رقم ٣١، وخرج إلي من الظلمة وراء الباب، فجأة، رجل طويل ومخروط الوجه وشـمعي اللـون، يعرج قليلاً خفيف الساقين سد علـي البـاب وهـو يسـأل بخشونة : رايح فين يافندي ؟ بلهجة ممطوطـة ومنـذرة . ترددت لحظة ولكنني أجبت طائعا : عايز الريس نونو . مش دا نمرة ٣١ برضو ؟ فنظر إلي نظـرة ثاقبـة كأنـه يـزن صدقي، ومعدني، وأفسح الطريق بخطـوة جانبيـة مفاجئـة وقال :ٍ اتفضل . الكات التالت فوق . اتفضل ُأمال يافندي .

هبت علي من بير السلم رائحة رطوبة قديمة، وكانت الأنوار تتخايل على السلالم، فوق .

كانت أبواب الشقق كلها مفتوحة وساطعة . وكانـت درجات السلالم الحجرية البيضاء ناعمة الحواف، انبرت من الرجل طالعة نازلة .

في أول دور، على الباب الذي يتقد في الفسحة وراءه مباشرة " كلوب غاز" متوهج، وقفت بنت، في الثانية عشرة ؟ أصغر ؟ عارية تقريبا . صدرها لم يكد ينهد، صغيرا وقليـل الصلابة . كانت تستند إلى قائمة الباب من الداخل، والنـور يسقط على شعرها الجعد القصير الخشن اللفلفة، تلبس قيمصا بحمالات، موجزا جدا، أسود ولامعا وواسعا قليلاً يكشف كل كتفيها النحيلتين وظهرها ينزل إلى أعلى وركيها الـرفيعتين المدورتين، ترفع يدها المطلية الأظافر بالمـانيكير الأحمـر، بسيجارة مشتعلة لا تدخنها، إلى شفتيها الداكنتين بحمرة قانية، وفي يدها الأخرى المدلاة إلى فخذها العارية علبـة بلايـرز إنجليزي زرقاء فاتحة، وتخشخش حلقتـان مـن الأسـاور الكهرمانية الصفراء على ذراعها السمراء الضاوية، وعيناها ثقيلتان بالأسود الذي يحددهما، وعظام وجهها تومض، وهي تنظر إلي .

لمحت في الشقة بنتين أو ثلاثًا من سـنها أو أكبـر قليلاً، كأنهن أسماك ملونة داخل " أكواريوم " زجاجي منير، في درجات متراوحة من العري، جالسات بصمت وانكسـار على " كنبة إسطمبولي " طويلة، ناحلات، مسـوخ صـغيرة

مزوقة ببذاءة . وسمعت فجأة صوتًا مبحوحـا أجـش مـن الحشيش، لم أر من صاحبته، أو صاحبه، من داخل الفسحة : اتفضل يافندي، عندنا حاجة على ذوقك والنبي . وبربع جني بس . اتفضل ياخويا . على عينك يا تاجر . واللى ما يشتري يتفرج . وتمتمت بشيء كأنه متشكر أو ما يشـبهها وكـدت أتعثر بالسلالم، والصوت يلاحقني بضحكة مبحوحة محملـة بإيماء لم أفهمه : يوه .. هو انته من بتوع فوق يا جدع .. ! ياختي بلا وكسة .. !

في الدور الثاني كانت دكة خشبية موضـوعة أمـام الباب المفتوح، تكاد تسده، شور لي الرجـل الـذي يجلـس عليها، بيديه . كان باهظ البدانة، عليه جلابية ممزقة غليظـة النسيج و" جاكتة كاكي " فوقها من غير أكمام . خرجت مـن فمه المتدلي أصوات مليئة ملحة وأدركت أنه أخرس، كانـت في حشرجته دعوة خشنة مباشرة وفيها يأس لا يأتي إلا فـي أصوات الخرس التي تجاهد بشق النفس، للطلوع . ومد إلـي يدين متضخمتين حيتين، أظافرهما طويلة انحشـرت تحتهـا خطوط سواد قديم، وأوشك أن يجذبني إليه بقوة خارقة وهـو مازال يزوم ويحزق ويغص بالحمحمة والمجاهـدة، رأيـت

وراء الدكة شلتة عريضة نام عليها ولد صغير السن، طويل الجسم، يلبس جلبابا أبيض شفافًا يكشف عن قمـيص بنـاتي فسدقي اللون بحمالات، وقد رفع أمامـه سـاقيه العـاريتين الملساوين بحيث أخفي عري ما بينهما، وكـان ينظـر إلـى السقف، وفمه مصبوغ بما يشبه الدم السائل وعيناه مكحولتان بدقة وحاجباه قوسان رفيعان مدوران، ويبدو كأنه لا ينتظـر شيئًا ولا يريد ولا يرفض شيئًا .

وفكرت أننا ربما ما زلنا أول الليل وأن الزبائن لـم يصلوا بعد .

كان دمي قد نشف عندما خبطت على باب الـريس نونو، وخرج إلي، منتفخ العينين قليلاً، بالصديري واللبـاس الإسكندراني المنفوخ المتراكب الطيات، ورحب بي جـدا . وكنت أعرف أنه قد طلق امرأته وأنها تعيش مع أولاده فـي السيالة وأنه وحده في هذا البيت الغريب، ولكنه عزم علـي بشاي ثقيل عمله بنفسه وقال لي : ولا يهمك يافنـدي، طـب وحياة اللى خلقك، وسيدي المرسي أبو العبـاس، دول كلهـم غلابة، واهو كله أكل عيش برضو .. وضحكنا، ونزل معي حتى باب الشارع . ولم نتكلم .

وكان البيت، ونحن ننزل مظلما وهادئـا، والسـلالم صامتة تماما والأبواب مغلقة .

وفي "الثانية عشرة" إلا دقائق كـان الـريس نونـو، وعماله الصعايدة، والبحاروة وأولاد البلد وعم علي بعمامتـه البيضاء وجاكتته ومعرفته السـحرية بأسـرار " الـونش " والأسطى مرسي وعامل " البوفيه " أيضـا كلهـم، بربطـة المعلم، من " أبو شنب " العجوز الخشن الصوت الذي يتحرك بصعوبة إلى " حميدو شورتي " الولد السفروت الـذي فـي جسمه قوة رجلين، كلهم، علـى بـاب المخـزن . وكانـت السيارات الضخمة، تقف صفا في الظلام، وعالية وسـوداء ومغطاة بالتاربولين المطاط الداكن المشمع اللمعة، تكاد تسـد الحارة أمام المخزن . ودخل العمال من الباب الحديدي الكبير وهم يسلمون على عسكري الحراسة اليوناني الذي يعـرفهم واحدا واحدا . وبدأ الشغل فورا على الأنوار القويـة، وهـم يغنون، والريس نونو يحثهم ويمد يديه في الشغل ويقود الغناء وأنا أهتف بهم وأشتم ضاحكًا وأناديهم بالاسم، وهم يعتلـون الصناديق الكبيرة والبالات الهائلة، وأزيز الونش يصعد بهـا إلى النافذة المفتوحة الكبيرة في الدور الثاني، وينزل، سلاسلة

الحديدية تصلصل وتصطفق، حتى الفجر . وفرشوا حصيرة نظيفة في الحوش، يشربون الشاي بشفط مسموع، ويتكلمون بأصوات خافتة، مهدودة .

وقفت بجانب " الونش " على حافة النافـذة الكبيـرة المفتوحة بعرض الحائط كله، مـن غيـر حـاجز، خطـرة ومغوية، وكنت أنظر إليهم، فـي نـور الفجـر الغـامض الشاحب . وارتعدت من نسمة البحر التـي هبـت بـاردة، مفاجئة، وكنت غائر القلب، غاضبا .

قبل ذلك بسنتين تقريبا كنت قد أخـذت التوجيهيـة، علمي، بتفوق . وكنت أبحث عن عمـل فـي أول الأجـازة الصيفية . كان أبي يقطع من لحمه الحي ليعطيني مصروفي اليومي المتراوح من نصف الفرنك إلى الشلن، أو البريزة في أيام الشبرقة الخاصة جدا . وكنت قد تعلمت الرِواح للسينما، ريو أو بلازا، بل ورويال - أحيانًا قليلة . فقد كانت تذكرتها بستة صاغ ونصف - وكان صاحبي جورج يـدفع تذكرتـه ويستلف مني القرش التعريفة ليشتري ثلاث سـجائر فـرط، ماركة الفيل، وكنت لا أدخن ولا أسترد السلف . واشـتريت أيامها، بأربعة قروش صاغ أول كتاب إنجليزي وكان اسمه "

آريبل " كتبه " أندريه موروا " عن "شيلي"، وكانت طبعـة " البنجوين " خفيفة الورق وغلافها داكن الزرقة . جـاء إلـى بيتنا في راغب باشا صاحبي جورج الذي كان أبـوه نـاظر محطة ترام سيدي جابر، خط الرمل، وعنـده دكـان بقالـة صغير في شارع دارا في سيدي جابر أمام بيـتهم مباشـرة، وقال لي: إن له قريبا يشتغل فـي شـركة فرنسـية اسـمها باتينيول تبني مشروع الميناء في الدخيلة، وإنهـم يريـدون ملاحظ عمال، باليومية، وإنه أخذ لي ميعادا هناك في الثامنة صباحا يوم الاثنين بعد غد .

صحوت مبكرا جدا، من القلق والتشوق، كأننا في شم النسيم . ونزلت من راغب باشا في السادسة صباحا وجريت وراء ترام المكس ولحقته وركبتـه مـع العمـال وصـغار الموظفين الطالعين على رزقهم في أول الصـبح الصـيفي المنعش البرد، ذاهبين إلى الميناء والفبارك ومخازن القطـن والسكة الحديد في القباري والورديـان وكـوبري التـاريخ ورصيف الفحم، والمدابغ التي هجمت علي رائحتها النفـاذة وأنا في الترام المتأرجح بعد أن خلا قليلاً من ركابه، وقرأت على واجهة المبنى العريضة ذي البوابة الحجريـة الواسـعة

كلمة " آباتوار " الفرنسية " بحروف بارزة من طراز القـرن التاسع . وفي المكس عبرت " الكوبري " الخشـبي الرقيـق المهتز، بفِلِقِه الخشبية المنفرجة قليلاً أرى منها الماء في لسان البحر الضيق، وركبت "الأتوبيس " إلى الدخيلـة وخرمـت ناحية البحر، على الرمل، حتى وصلت إلى الكشك الخشـبي الذي أقامته الشركة، تحت لافتة ضخمة باسمها وعنوانها في فرنسا، في موقع العمل على حافـة الصـخور، والخلجـان الصغيرة بينها يضرب فيها الموج ويزيد قليلاً على الحصـى والرمل الخشن، برغوته البيضاء المستنفدة .

لم أكن ألبس ساعة في تلك الأيام، وسـألت سـواق "الأوتوبيس" الذي ذكرني بخالي ناثان، علـى نحـو، فقـال: "الثامنة إلا ربعا" وارتاح قلبي .

كان الكشك مغلقًا، ومن نافذته الصـغيرة المسـدودة بشبكة خضراء دقيقة الخروم، ضد الذباب والناموس، رأيـت وجها مدورا متهدل الخدين، وصدر الرجل السمين المرتخي في قميص مفتوح حتى بطنه الذي يضغط على مائدة خشـبية محملة بالمساطر والمثلثات ولفـات ورق الرسـم والأدوات الهندسية، وعندما طرقت البـاب الخشـبي سـمعته يقـول

بالفرنسية: " ادخل " وفهمت أنه المهندس الفرنسـي ولـيس قريب صاحبي، وصبحت عليه بالفرنسـية فـرد باقتضـاب وشيء من الدهشة وقلت له بفرنسـية جاهـدت أن تكـون صحيحة كنت قد تدربت عليها وحدي الليلة الفائتة :إنني جئت من أجل الوظيفة وأكملنا الحديث كلـه بفرنسـية واضـحة ومحددة وبطيئة النطق وسليمة النحو . قال اقفل الباب مـن فضلك، بلهجة ممطوطة فأدركت أنني أخطأت وأقفلت البـاب بيدين مضطربتين، وعاد ضوء المصباح الكهربائي العـاري المائتي شمعة يتقد بصمت في عتمة الكشك الداخليـة كأنـه قمرة مضيئة تغوص في عمق البحر، وتأملني الرجل قلـيلاً بعينين كعيون السمك ولكنها زرقاء فاتحة جدا وقـال لـي، بأدب : إنه آسف حقا ولكن المركز قد شغل بالفعل . اكتـب لي اسمك وعنوانك على هذه الورقة وسنتصل بـك عنـدما نحتاج إلى خدماتك . ومد إلي ورقة رسم عليها تصـميمات وخطوطا رأسية وأفقية ومساقط ومقاطع وكتابـة بحـروف مفردة كبيرة، فانحنيت وأنا واقف وأحسست عينـي مبللتـين بالعرق، وكتبت بقلم أبنوس تدفق حبره فجأة بعد لحظة جفاف وجيزة، ولم أكن ألبس نظارة ولم أعرف أننـي كنـت أرى

العالم كله غائما ومتميع الحواف إلا بعد ذلك الصيف عنـدما دخلت الكلية، وفي كشف النظر دهش الدكتور وقال لي: كيف تقرأ وتكتب ؟ وكتب لي على نظارة . قـال لـي المهنـدس الفرنسي بصوته الدهنى قليلاً ورأسه الأصلع يلمع في النور، وجسمه العريان المتراكب الطوايا ينضح بعرق خفيف : نهار طيب إذن، وقلت له: نهار طيب . ولم يتصـل بـي أبـدا، خرجت إلى بهرة شمس أخذت تحمي قليلاً ولكني أحسسـت رعدة مفاجئة تنفض جسمي . وكـان الهـواء بـاردا علـى وجهي، وكان العمال جالسين تحت سور حجـري مـنخفض على الشاطئ أمام الكشك، في حلقات صغيرة غير مسـتبينة، يتكلمون بأصوات منخفضة ويشربون الشاي، ولاح من بعيد فندق " سي جلْ " حيطانه بيضاء حائلة اللون ناحية البحـر، وشبابيكه مغلقة بالخشب الأخضر الباهت، وكـان صـاحبي جورج قد حكى لي كيف أنه يأخذ المرأة الإيطالية التي كـان يرافقها إلى هذا الفندق، يستأجران غرفة بـاليوم، ويقضـيان النهار هناك، وقال :إنه مكان هادئ جدا لا يسأل فيه أحد عن شيء ويمكن أن يقتل دون أن يحس به أحد . وقال: إن هـذه المرأة كان زوجها قد اعتقله الإنجليز عندما دخلـت إيطاليـا

الحرب، وإنها علمته من فنون صنع الحب أشياء وأشياء، ولم أسأله، عن شوقي إلى السؤال، وكان حصيفًا فلم يـدخل فـي التفاصيل .

ودخلت الكلية بنصف مجانية ومات أبـي فأخـذت مجانية كاملة واشتغلت في المخزن ولم يدخل صاحبي جورج الجامعة، وتطوع مجندا في الطيران الإنجليزي وبـدأ يـتعلم الطيران، ورأيناه فعلاً في حلة عسكرية بريطانيـة " كـاكي" أنيقة وعلى كمه شريطان بالأخضر، ثم رأيناه بعد ذلك مـن غير اللباس العسكري ولم يشرح لنا أبدا لماذا لم يستمر فـي الجيش البريطاني ولكن دكان البقالة الصغير في شارع دارا كان محطا وموئلاً لجماعات متعاقبة من العساكر الأفريكـان والأستراليين والإنجليز، وكان جورج يجيد الحديث معهـم، كلٍ على مقتضى الحال، باللهجـات الكـوكني والأسـترالي والأفريكان كأنه من أبناء كل بلد على حدة، وكنـت عنـدما أمرعليه أجدهم يقفون في الدكان يأخذون كأسا أو كأسين من برميل " الكونياك " الصغير ذي الصنبور الخشـبي الـدقيق، خفية وبسرعة، فلم يكن عنده تصريح بتقديم الخمر، وكانـت عربات الجيش الإنجليزي المحملة تقف أمـام الـدكان فـي

ساعات محسوبة بدقة، بين ورديـات " البيكيـت" الحربـي، وتفرغ جانبا محسوبا بدقة في حمولة " البلوبيف" أو"البلاطي" العسكرية وبر الجمل التي كانت مطلوبة جدا في السـوق، أو علب اللبن المركّز المسكر، أو البطاطين، تختفي في المنـور خلف الدكان، على الفور . وكانت له أيضا شـبكة علاقـات واسعة مع النسوة اليونانيات والإيطاليـات والشـاميات فـي الإبراهيمية وكامب شيزار ومع العساكر والضباط، في الوقت نفسه، وكانت ساحة " الباتيناج " في " سبورتنج " هي مكـان التواعد والتعرف وإنهاء الصفقات . وبعد الحـرب اشـترى جورج عربتين " لوري" واشتغل بالنقـل وفـتح ا عليـه . وكانت عنده غرفة على البحر، في فندق سيرانادا في ستانلي، صيفًا وشتاء . وكانت الغرفة زجاجية كلها من ثلاث نـواح، وداخلة في قلب الخليج الواسع .

تخرجت واشتغلت في المتحف اليوناني الروماني بعد فترة تعطل طويلة وانخرطت في الحركة الثورية التي كـان يتمخض بها البلد ويمور، وطلعت في المظاهرات واشتركت في تنظيم الاضطرابات وكونت خلايا سرية، وكتبت بيانـات وتحليلات ومنشورات، ودخلت المعتقلات، وخرجت منهـا،

ويئست من العمل السياسي، ومن الحب، ومن الحيـاة، ولـم يكن جورج يفهم ماذا أفعل ولماذا، طوال الوقت، ولـم يكـن يبالي، ولكنه كان على الأقل لا يسخر مني وينصحني فقـط بأن أكون عاقلاً ويتمنى أن يتوب ربنا علي وكنا قريبين جدا أحدنا من الآخر، ثم تباعدنا، ولا أعرف، منذ سنين طويلـة، ماذا حدث له .

وفي ١١ فبراير ١٩٥١ كنت أتـوجس مـن حملـة البوليس التقليدية علينا في ليلة عيد ميلاد الملك، وطلبت مـن جورج أن أبيت فى غرفته في سـتانلي فأعطـاني المفتـاح بصمت وقال لي: عد إلي "بكرة" الصبح في المحل، فقـط . وكان موظف الاستقبال في فندق سيرانادا يعرفني من زمان فحياني بهزة من رأسه، وكان الممر المفضي إلـى الغرفـة خاويا ومعتما ووقع أقدامي على البلاط الأسود المغسول لـه رنين . ودخلت، وأدرت زر النور، فوجدت الغرفـة، حيـة وأحاطت بي .

كانت الغرفة ضيقة ودافئة، والسرير صغير ولكنـه ناعم لين رقدت عليه فورا من التعب والقلق، وغاص بـي، وعلى الأرض سجاد عميق الوبر طوبي اللون، وعلى الحائط

صور زيتية لنساء عاريات، راقـدات وراكعـات ولحمهـن محمر النسيج وأُملود الحنْيات، كأنهن سمكات أنثوية، فارغة العيون تماما .

كان البحر مصطخبا أسمع عجيجه من وراء الزجاج المغبش بالندى، والأنوار على الكورنيش الطويل أراها مـن ورائه بقعا صغيرة لها أسنة مشععة مهتزة، ممتدة واحدة بعد الأخرى بعيدا . ولم أستطع أن أقرأ فأطفأت نـور الحجـرة الكبيرة ونور " الأباجورة " الحمراء جنب السـرير، دخلـت تحت البطانية الصوف الكثيفة الناعمـة وأحسسـت جفـاف الملاءة النظيفة البيضاء تحتي، وكان ضجيج الأمواج يلـتطم تحت الغرفة، يضرب أحجار المبنى وأعمدته، وأسمع رشّاته المليئة تخبط وتنحسر ثم تعاود ارتطامها بصـخور البحـر وحيطان الفندق المتينة، وكنت أحس نفسـي وحيـدا جـدا، ومغلقًا علي تماما، في قلب هذا الهدير الرتيب الذي ما عدت أسمعه، في دويه المتصل، وحيدا وغريقًا أتنفس هواء غَرِقي الدفيء المريح، ونمت أخيرا وأنا أفكر في غمـوض الليـل الذي يدوم بهدير الموج المِلح المتراوح لا يكف عن الارتفاع والهبوط من جديد، ولا أفكر في شيء آخر .

وفي الفجر فتحت عيني فجأة، وقمت، وفتحت النافذة في الواجهة الزجاجية . نشقت الهواء الملح الرطب المنعش، مِلْء صدري، وفكرت : هل عدت الليلة على خير؟ وكـان البحر هادئًا تماما . وقد انجابت العاصـفة، وسـطحه سـاجٍ ممتد، زيتي السكون في النور الوليد الذي يضفي على العالم صمتًا مائيا كأنه ترقب، وانتظار للفرح .

كانت ترتفع من مرآة البحـر الرصاصـية اللـون صخرة ناتئة عريضة رأيتها مكسوة بأكملها بالنوارس، كأنما حطت عليها سحابة كثيفة مبطنة بالريش الأبـيض، سـاكنة عليها، متشبثة بها . النوارس متجـاورة متزاحمـة، الجسـم المطوي يلتصق بالجسم المطـوي، وقـد أحنـت رؤوسـها وأدخلت مناقيرها الطويلة في صدورها، محدبـة الظهـور، أجنحتها مطبقة إلى جانبهـا، وكانـت كلهـا تبـدو جافّـة، مكسورة .

وألوان البحر قد أخذت تتخطط، أمام عيني، بنفسجية وزرقاء وبيضاء فضية مشعة تحت سحاب أبـيض تختفـي الشمس وراءه، وتضيئه باحمرارٍ سائلٍ مشاع، وهدوء البحر عميق، صفحة مبسوطة لا تكاد تترجرج، ووشوشة المـوج

الذي يترقرق، على مهل، ناعمة، أسـمع صـوت الصـمت المطبق تطرزه وتنمنمه، فجأة، زقزقة العصافير التي تتواثب على الرمل الطري، وتنقر العشب اللازج والودع والصـدف الحي بمناقيرها الصغيرة السريعة . ومن بعيد صـدى نـداء يتردد على الكورنيش : سيد .. حسونة .. لا يكـاد يسـمع، وعلى آخر المدى أرى عاشقين غامضـين علـى الرمـال العذراء . في هذا الفجر ؟! أي هيام لا يقاوم ؟ أيـة رغبـة مبهمة وخرساء، مطلقة تدفعهما يمشيان علـى هـذا الشـط الموحش المبلول ؟

عند التقاء الرمل بالموج خط الطحاب الأخضر الذي يبيض حينما ينحسر عنه الماء، غض ويابس على التـوالي، بلا توقف . قلت لنفسي : أبدي، دائم، أمام فنائنا وانتهائنا .

وقلت : أوقوف، بلا رحمة ولا دموع، على ما بـاد من طلل، واندثر؟ فماذا يجدي ؟ وبم يقام ؟

وقلت : هل من معولٍ – بالعكس – إلا على الرسوم الدوارس ؟

الشاطئ طويل هش مشـدود، ملقـى بـين الفـراغ والملْءِ، خصر هضيم ضامر مسحوب، قابل للانكسار فـي

أية لحظة، في أية بقعة، لا بؤرة له يتكثف وراءها ويحميهـا بنطاق وراء نطاق من الحواجز الواقية، خط متموج يقع على حرف هوة لا قرار لها، متلاطمةٍ، وخادعة عندما تهدأ لأنها دائما مهددة بالعصف وضاربة بحبال الماء، سحرها جذاب لا يقاوم، وجمالها لا يمكن أبدا الإحاطة به ولا الانتهاء من تملي مفاتنه، قوية الأذرع ممدودة إلي تدعوني دعـاء لا أعـرف كيف أصده، دعاء في الاستجابة له وقوع القضـاء الـذي لا مرد منه . على هذه الحافة الهشة القلقة، بين الحياة والعـدم، وطني الذي لا أعرف كيف أستقر إليه .

أنظر إلى البحر وأفقه الغامض، أعرف أنه لا شـيء وراءه، ابدا، هذا امتداد لا نهاية له للعباب المجهول، إلى مـا لا نهاية له . وكأنني أرى شاطئ الموت نفسه، سوف أعبره، بلا عودة ولا وصول .

مياه كثيرة لا تغرق عشقي، والسـيول لا تغمـره . صخرة ناعمة الحنايا أنت في قلب الطوفان، سفوحها ناعمـة غضة بالزروع اليانعة، بالسوسن والبيلسان، ترابها زعفران، خصب وحي، ترف عليها حمامة سوداء جناحاها مبسوطان حتى النهاية، لا تكفّ رفرفتها في قلبي .

٧) السيف البرونزي الأخضر

كأن ساحة المنشية عنده – هو ساكن غيط العنـب – ليست من هذا العالم .

لأن العالم كان غيط العنب .

الفراغ الشاسع في ميدان المنشية، ومبانيه الشـاهقة بأعمدتها المدورة الرخامية الشكل، ونخيله السلطاني العـالي بجذوعه البيضاء الرشيقة الناعمة، تميس صفوفًا على طرفي الحدائق الطويلة، اليانعة دائما بعشب غض وطري، والتـرام يتخطر ويدور حولها، أصفر ونظيف ويـومض، وعربـات الحنطور خيولها الصهباء سنابكها تدق موسيقى موقعة علـى الأرض السوداء تلمع بالبلل، وهذا الهدوء، والجمال، والسعة الفسيحة، هذا أسطوري مخيف قليلاً، ومغوٍ جدا .

أما هو فيعيش بين البيوت الصغيرة، من دوريـن أو ثلاثة بالكثير، مبنية غالبا من الطوب الأحمر القاتم، العـاري من غير ملاط، والشوارع بينها ترابية وأشجارها وجناينهـا كثة وريفية الشكل .

قال : لم أكن أعرف أن البكاء على الأطلال موجـع بهذا الشكل .

أطلال الطفولة والصبا والشـباب التـي تقوضـت، ومازالت رسومها ماثلة، غير دارسة بعد، وأنقـاض القلـب الذي دمرته أمجاد معاشقه ولكن أعمدته قائمـة لا تريـد أن تنقض ولا تريد أن تنقضي .

في يوم أحد الشعانين ذهبوا إلى الكنيسة وحضـروا القداس وعادوا بالسعف اللبني الخضرة، أبيض تقريبا وغض الجلد، مخصوفا على شكل صلبان صغيرة وكبيرة وأكاليـل مشبكة ومدورة متداخلة ومازال طل الماء المقدس يبللهـا . وفي العصر زارهم فارس أفنـدي، وكـان صـديقًا لأبيـه، وزوجته الست أم اليسر من حبايب أمه . وكان موظفًا بالسكة الحديد وقصيرا بدينًا مكور الجسم ويلـبس نظـارة سـميكة الزجاج وطربوشًا ضيقًا على جبهته المنحدرة إلى الوراء .

كان يسمعهم أحيانًا يقولـون: إن ألـيس لميخائيـل، وكانت البنت البيضاء المدورة تُنَفره جدا بضـحكتها البلهـاء ونظرتها الزيتية،وجلس فارس أفندي مع أبيه علـى كرسـي الصالون الجديد، كان كرشـه المتضـخم المحـزوق فـي "بنطلونه " المرفوع قليلاً يستقر علـى فخذيـه القصـيرتين المدملجتين، براحة، وكان في كلامه خنة خفيفة . دخل الولد

يسلم عليه، ألحت أمه عليه : ادخل بقى سلم علـى الراجـل ادخل يا ، فسمع أباه يحكي للضيف حكاية مضطربة متقلبـة الأدوار عن النحاس باشا عندما كان مسافرا مع الزعماء إلى مؤتمر في بني سويف، فحاصر الجنود المحطـة بأسـلحتهم وأوقفت الحكومة سفر القطار كله فلم يدخل المحطة أصـلاً، وقضى النحاس باشا ليلته على رصيف المحطـة فـي بنـي سويف، ونام على مقعد خشبي طويل من مقاعد الانتظـار . وعندما اقتحم الناس المحطة فـي الصـباح، فـي صـفوف متراصة وسط الرصاص، ضرب العساكر النحـاس باشـا بالعصي الغليظة وافتداه سينوت حنا بك بذراعه فانكسـرت، بينما كان الناس يحطمون، بالبلاط والفئوس، سلاسل الحديـد الممدودة على باب المحطة، وقتل وجرح كثير . وكان فارس أفندي غاضبا وقال :إن النحاس باشا زعيم الرعاع . ولم يكن الولد يعرف هذه الكلمة ولكنه فهم فورا أنها شتيمة وأن الناس رعاع، ورد أبوه بحمية على صديقه وقال :إن النحاس خليفة سعد وزعيم الأمة وعدو الاحتلال الإنجليزي،وإنه يحمي البلد من جشع هذا الملك الذي ينبح بصوت كلاب عندما يتكلم .

وكان الوالد ساكتًا ولم ير أباه يتكلم أبدا من قبل بهذا العنف وهذه الحدة .

وفي يوم اثنين البصخَة، بعد الظهر، نزل مـع أمـه ليشتريا حاجات العيد الكبير . ذهبا بعربة حنطور انسطاسيي، ووقفت أمه بعيدا، قليلاً عن باب المحل وذهب هو يجري إلى أبيه فخرج معه من الشغل قبل ميعاده، وقطعوا شارع السبع بنات مشيا حتى المنشية، ولفوا على المحلات بـين كنيسـة سانت كاترين والكنيسة اليونانية في المنشية الصغيرة ودخلوا هانو وشركة بيع المصنوعات المصـرية . واشـترت أمـه خمسة أمتار من قماش حريري منقوش ستفصـلها فسـاتين لأخواته البنات، ومترين بوبلين أزرق فاتح مقلم لتصنع لـه جلابية جديدة على العيد، وبكرات الخيط الأبيض والملون و " فانلات " وألبسة وشرابات وحذاء جديدا لـه مـن الجلـد الأبيض السميك له نعل كثيف، وأحذية ملونة بسيور وزراير لأخواته، واشترت لنفسها قميص نوم فضي اللون " سـاتان " لامعا بحمالات له وبرة خفيفة ناعمة وموشى بالدانتللا مـن تحت ومن فوق، ولم يشتر أبوه لنفسه شيئًا وقال :إنـه الآن عنده كل شيء ما داموا قد اشتروا لهـم لـوازمهم وعـادوا

يحملون اللفف والربط وعلب الجزم الملفوفة " بالـدوبارة " .
وعلى مقدم المساء ركبوا ترام غيط العنب من أول محطة في ميدان المنشية .

كانت بهجته بملابس العيد الجديد، وتشوقه إلى فرحة شم النسيم يوم الاثنين القادم، تمتزج بحسه الممِض الغريـب بأن أسبوع الآلام قد بدأ وأن المسيح سيرفع على الصـليب، في العراء، يوم الجمعة الحزينة وعلى رأسه تـاج الشـوك، ويطلب ماء فيعطى شرابا من النبيذ والخل، وأنه سيموت من أجلنا وإن كان رئيس الملائكة ميخائيل سيدحرج الحجر عـن فُم القبر المقدس ليلة سبت النور، وسيقوم المسيح، مجيـدا، من بين الأموات .

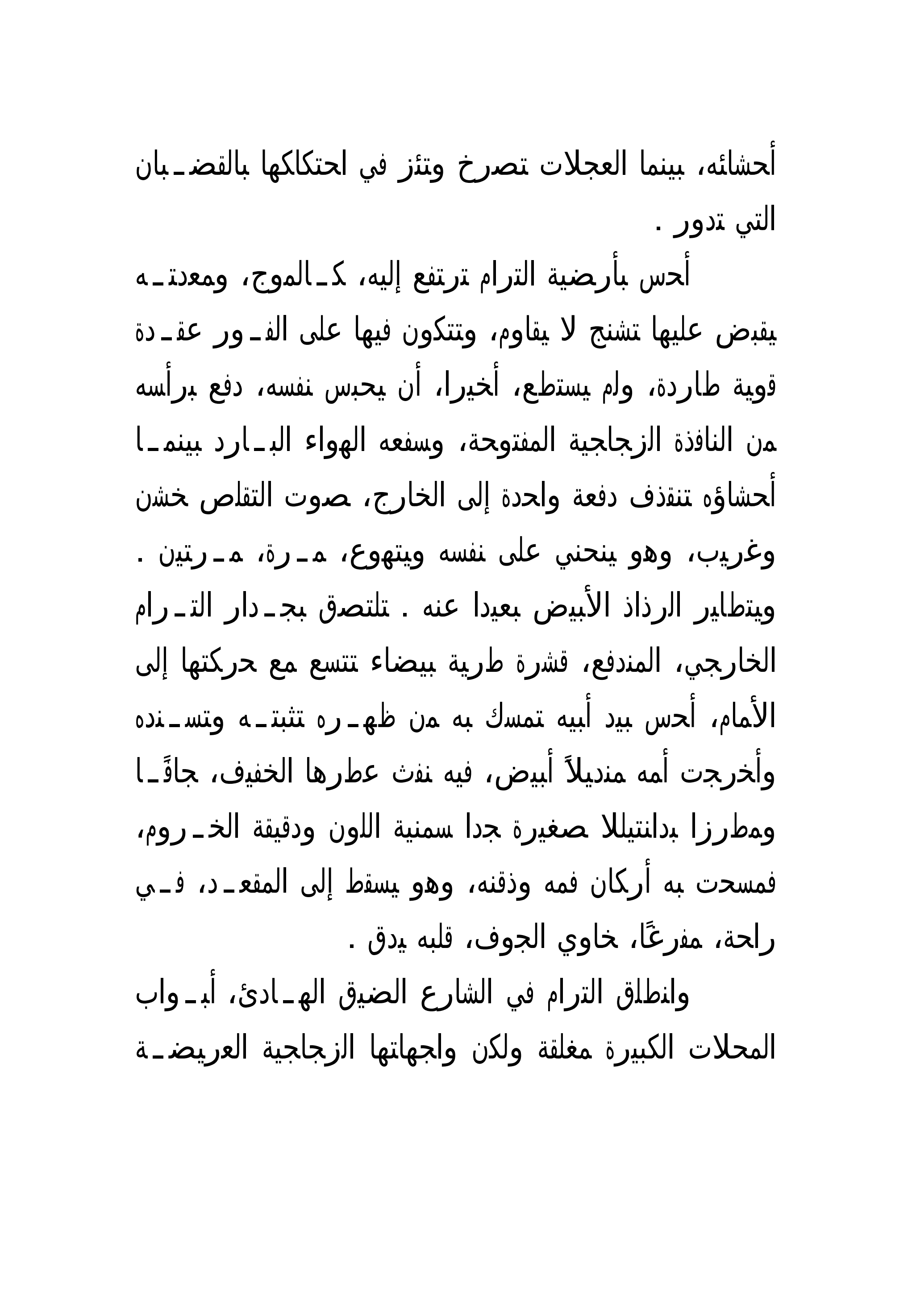
كان الترام خاليا، تقريبا، والمصابيح الكهربائية القوية الشكل تصب نورها الثابت الأبيض على المقاعد الخشـبية، مقوسة ومتينة، من أضلاع خشبية مصقولة في لون الكهرمان الفاتح، متلاصقة، وأرضية الترام من ألواح خشب عريضـة متجاورة، بينها شقوق رفيعة جدا، تربطها سـيور عريضـة لامعة فيها مسامير ممسوحة الرؤوس . وكان الولد يحـس،

في جسمه، وثاقة " الترام "، وطاقته المنطلقة بقـوة كامنـة، وهو يدور حول الميدان الفسيح .

الحصان يقوم في وسط الميدان، عاليا وساكنًا . رقيق الخصر، صافنًا، يرفع سـاقه الأماميـة مثنيـة كأنـه يهـم بالانطلاق ولا يتحرك أبدا، والفارس فوقه شامخ ومـتمكن، داكن الخضرة، عمامته كبيرة ومتعددة الطبقات، يطير الهواء بثيابه وعباءته الفضفاضة، والسيف البرونزي الأخضر مدلّى إلى جانبه، كامن شره وتهديده، مخبوء، ولكنه ماثل .

وحول قاعدة التمثال الرخامية الناصعة حديقة صغيرة مدورة لها سياج حديدي من حلقات واسعة متداخلة، دائـري، تعلو فوقها مصابيح النور، عناقيد خماسية من حبات كبيـرة بيضاء لدنة النور، تصب ضوءها اللبني على الخضرة اليانعة القصيرة العشب .

كان هواء الليل يدخل إليـه مـن نافـذة " التـرام " المفتوحة، يهب على وجهه الذي يحسه مندى بعـرق بـارد، قلقلة " الترام " تهز معدته فتطفو، و تمـوع، فـي داخلـه، ويتجلد، يتعلم كيف يصبر على نفسه، كيف يقاوم اضـطراب



أحشائه، بينما العجلات تصرخ وتئز في احتكاكها بالقضـبان التي تدور .

أحس بأرضية الترام ترتفع إليه، كـالموج، ومعدتـه يقبض عليها تشنج لا يقاوم، وتتكون فيها على الفـور عقـدة قوية طاردة، ولم يستطع، أخيرا، أن يحبس نفسه، دفع برأسه من النافذة الزجاجية المفتوحة، وسفعه الهواء البـارد بينمـا أحشاؤه تنقذف دفعة واحدة إلى الخارج، صوت التقلص خشن وغريب، وهو ينحني على نفسه ويتهوع، مـرة، مـرتين . ويتطاير الرذاذ الأبيض بعيدا عنه . تلتصق بجـدار التـرام الخارجي، المندفع، قشرة طرية بيضاء تتسع مع حركتها إلى الأمام، أحس بيد أبيه تمسك به من ظهـره تثبتـه وتسـنده وأخرجت أمه منديلاً أبيض، فيه نفث عطرها الخفيف، جافًـا ومطرزا بدانتيللا صغيرة جدا سمنية اللون ودقيقة الخـروم، فمسحت به أركان فمه وذقنه، وهو يسقط إلى المقعـد، فـي راحة، مفرغًا، خاوي الجوف، قلبه يدق .

وانطلق الترام في الشارع الضيق الهـادئ، أبـواب المحلات الكبيرة مغلقة ولكن واجهاتها الزجاجية العريضـة

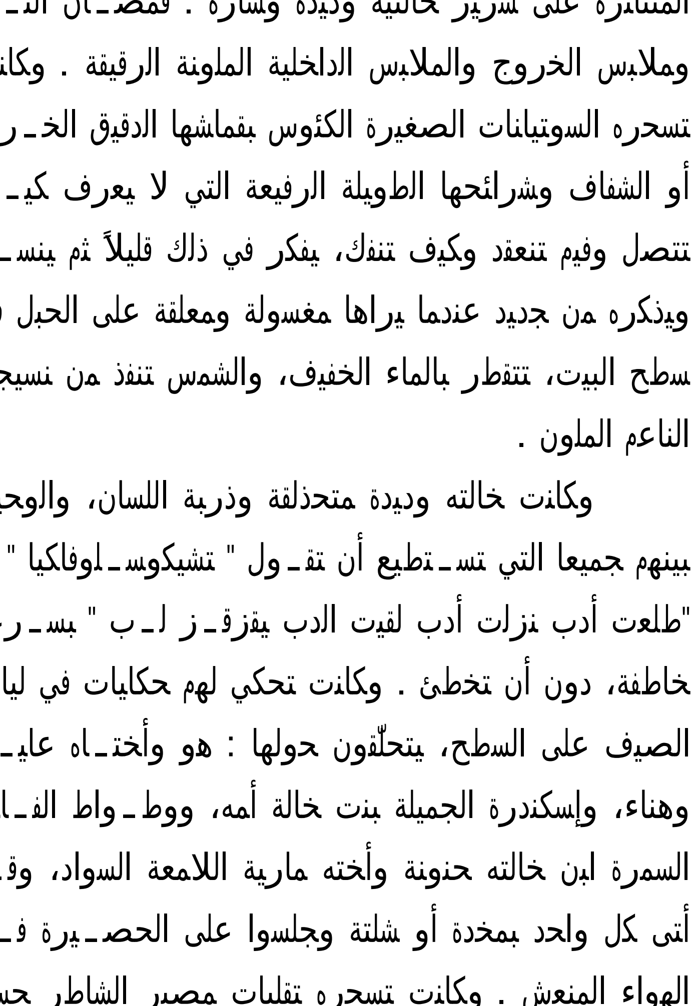
منيرة على الملابس والأحذية والأقمشة المفرودة، وله جلجلة بهيجة ذات صدى .

أغفى الولد قليلاً من الحركة المهتـزة المتأرجحـة، وتعب النهار، والهواءِ الطلق، وأحس بالفراغ والاطمئنان في معدته، ورأى في غبشة النوم والصحو كأن النحـاس باشـا واقف بالليل على رصيف محطة مصر، تحت سماء معتمـة فسيحة، وكأن صدره عارٍ ونحيلٌ، وعلى رأسـه مـا يشـبه الطربوش ولكنه حاد الحافة مسنن بأسنان سلك شائك، وكـأن عسكريا رومانيا بخوذة ودرع، يندفع إليه في فراغ المحطـة الخاوية، وعلى حقويه شرائط معدنية تلتـف حـول سـاقيه المتينتين ويضربه بالحربة الطويلة في جنبه، وكأن الحربـة تغوص في ذراع رجل أسمر عريض بشارب قوي في كامل ملابسه الرسمية، وكأن صوتًا قال له : سينوت حنـا بـك . ولكن الدم ينز ببطء من يدي النحـاس باشـا المبسـوطتين المدقوقتين بآثار ندبة غائرة سوداء . وكأن جماهير غفيـرة من الناس تهجم وهي تزأر بهتاف يدوي كالهدير، ويصطفق، كأنه رعد، فانتفض، وأحس أباه يهزه برفق ويقول : اصـح

ياسيدي .. يا بن ستي .. وصلنا خلاص، ورأى الترام يصل إلى نهاية الخط، أمام الكركون، بالقرب من بيتهم .

وعندما نزلوا من الترام كان يحس ساقيه مفـرغتين وليس لهما قوام، فأمسك بيد أبيه بقوة، وهو يصـعد سـلالم بيتهم المظلمة دائما، الغامضة بحياة محتشدة وخفيفة دائمـا . وفتحت لهم خالته وديدة، وكانت بيضـاء الوجـه ومنتفخـة العينين قليلاً وفيهما حول خفيف، وشعرها الجعد بني داكـن وخشن الملمس ورشيقة الجسم هضيمة، أطـول مـن كـل أخواتها . وقالت له : ياخْتي .. ! مالك يـابني ياضـنايا دا وشك زي اللبن الحليب .. تعال معايا . وأخذته إليها، ناحيـة غرفتها وأخرجت من صدرها، خفية، قطعة " توفي"، أحسها في فمه دافئة ولدنة .

كانت هذه الغرفة الكبيرة، في آخـر البيـت، فيهـا سريران متجاوران بينهما ممر ضيق. وكانت جدته أماليا تنام أحيانا مع بنتيها، وأحيانا في سرير جده، يكتشف ذلك عنـدما يستيقظ مبكرا جدا ويجري في البيت النائم ويدخل عليهم في هذه الغرفة الخفية بأسرارها، وكان ذلك كله يحيره جـدا ولا يستطيع أن يسأل عنه . وتحيره أيضا قطع الملابس النسائية



المتناثرة على سرير خالتيه وديدة وسارة . قمصان النوم وملابس الخروج والملابس الداخلية الملونة الرقيقة . وكانت تسحره السوتيانات الصغيرة الكئوس بقماشها الدقيق الخروم أو الشفاف وشرائحها الطويلة الرفيعة التي لا يعرف كيف تتصل وفيم تنعقد وكيف تنفك، يفكر في ذلك قليلاً ثم ينسى ويذكره من جديد عندما يراها مغسولة ومعلقة على الحبل في سطح البيت، تتقطر بالماء الخفيف، والشمس تنفذ من نسيجها الناعم الملون .

وكانت خالته وديدة متحذلقة وذربة اللسان، والوحيدة بينهم جميعا التي تستطيع أن تقول " تشيكوسلوفاكيا " أو "طلعت أدب نزلت أدب لقيت الدب يقزقز لب " بسرعة خاطفة، دون أن تخطئ . وكانت تحكي لهم حكايات في ليالي الصيف على السطح، يتحلّقون حولها : هو وأختاه عايدة وهناء، وإسكندرة الجميلة بنت خالة أمه، ووطواط الفاتح السمرة ابن خالته حنونة وأخته مارية اللامعة السواد، وقد أتى كل واحد بمخدة أو شلتة وجلسوا على الحصيرة في الهواء المنعش . وكانت تسحره تقلبات مصير الشاطر حسن وحيله لصعود القصر العالي لكي يرى ست الحسن والجمال

ولكي يهرب من أمنا الغولة، ومصير الأميرة بنـت الملـوك والسلاطين عندما تسخطها العجوز السحارة إلى بقرة حلوب خصيبة تذبح وتجمع عظامها في حفرة حتى يأتي الأمير ابن ملك البلاد التي في آخر الأرض عند جبـل القمـر، فيضـم العظام التي تئن وتتوجع في حضنه، يدفئها بحبه ويغمرهـا بدمعه، فيعيدها عروسا باهرة الحسن والجمـال . وتمضـي الحكايات وتتجسد له شخوصها، في الليل الهادئ الصـامت، وجسده مغمور بالقمر، ويقترب أكثر من خالته وديدة حتـى يحس أمنها، ودفئها، بجانبه، ويستيقظ فيجد نفسه في سريره، في غرفته، في أول الصبح، بجنب أختيه النائمتين، لا يعرف كيف وصل إلى هناك .

ويستيقظ بالليل فجأة على سريره العـالي المـزدحم باللحاف الثقيل، أعمدته الأربعة السوداء تحاصره، والكـرات النحاسية داكنة الصفرة، عيون جاحظة ومقفولة تنظر إليه مع ذلك، تعرفه . واللمبة نمرة خمسة مضيئة على الحائط، بنور محمر شرير متراوح الظلال .

البيت الغاص بالناس كأنه مهجور، وقد ناموا جميعا وتركوه وحده .

أحس في دفء الغرفة، وصمتها الليلي، أنفاسًا غريبة، هواؤها ثقيل ورأى على الحائط ظل شيء ما، يتحرك ويتموج فوق الدولاب، ويهتز على خشب النافذة المغلقة .

لكنه لم ير ما هو، أحس فقط حضوره المهدد، يراوده، يتربص به ويقصده .

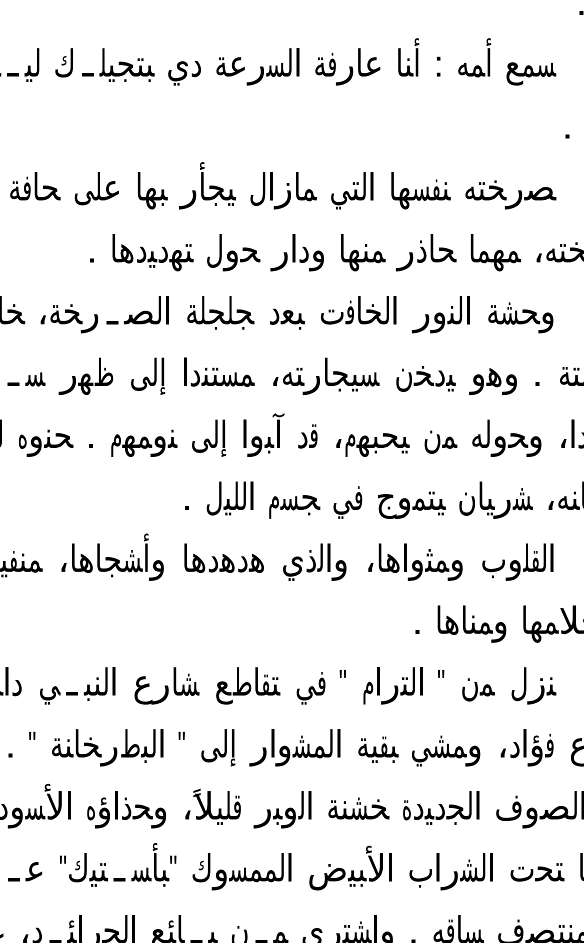
أحس به يقترب، ما زال لا يراه ليس له جسم، ولكنه هناك . لفح أنفاسه بارد، وظله يتكاثف، ويتجسم من غير أن يرى، ويقترب ويقترب .

كل الرعب الذي في قلبه لم يعد يطاق .

صرخ صرخة تمزق لها الليل، والصمت .

صرخة لم يعد في العالم إلا طلب النجدة النهائية فيها، طلب ثاقب، يجأر ينادي ملأ كل فراغ، وخرج من كل حصار .

والأقدام تجري إليه، وأخته الصغيرة تبكي في غرفة نومها مفزعة، وهو يضع رأسه في حضن أمه، ويغمض عينيه في صدرها، ولم يكن يبكي بل جسمه كله ينتفض . وفي اللحظة التي غاص فيها في حضن أمه رأى أباه واقفًا



على الباب في عكس نور مصباح الفسحة الخارجية، لم ير وجهه، بل قامة طويلة مظلمة ولكن شامخة وحنون في الوقت نفسه .

سمع أمه : أنا عارفة السرعة دي بتجيلـك ليـه يـا ضنايا .

صرخته نفسها التي مازال يجأر بها على حافة نـوم شيخوخته، مهما حاذر منها ودار حول تهديدها .

وحشة النور الخافت بعد جلجلة الصـرخة، خاويـة وصامتة . وهو يدخن سيجارته، مستندا إلى ظهر سـريره، مستَنْفدا، وحوله من يحبهم، قد آبوا إلى نومهم . حنوه لهـم، وعرفانه، شريان يتموج في جسم الليل .

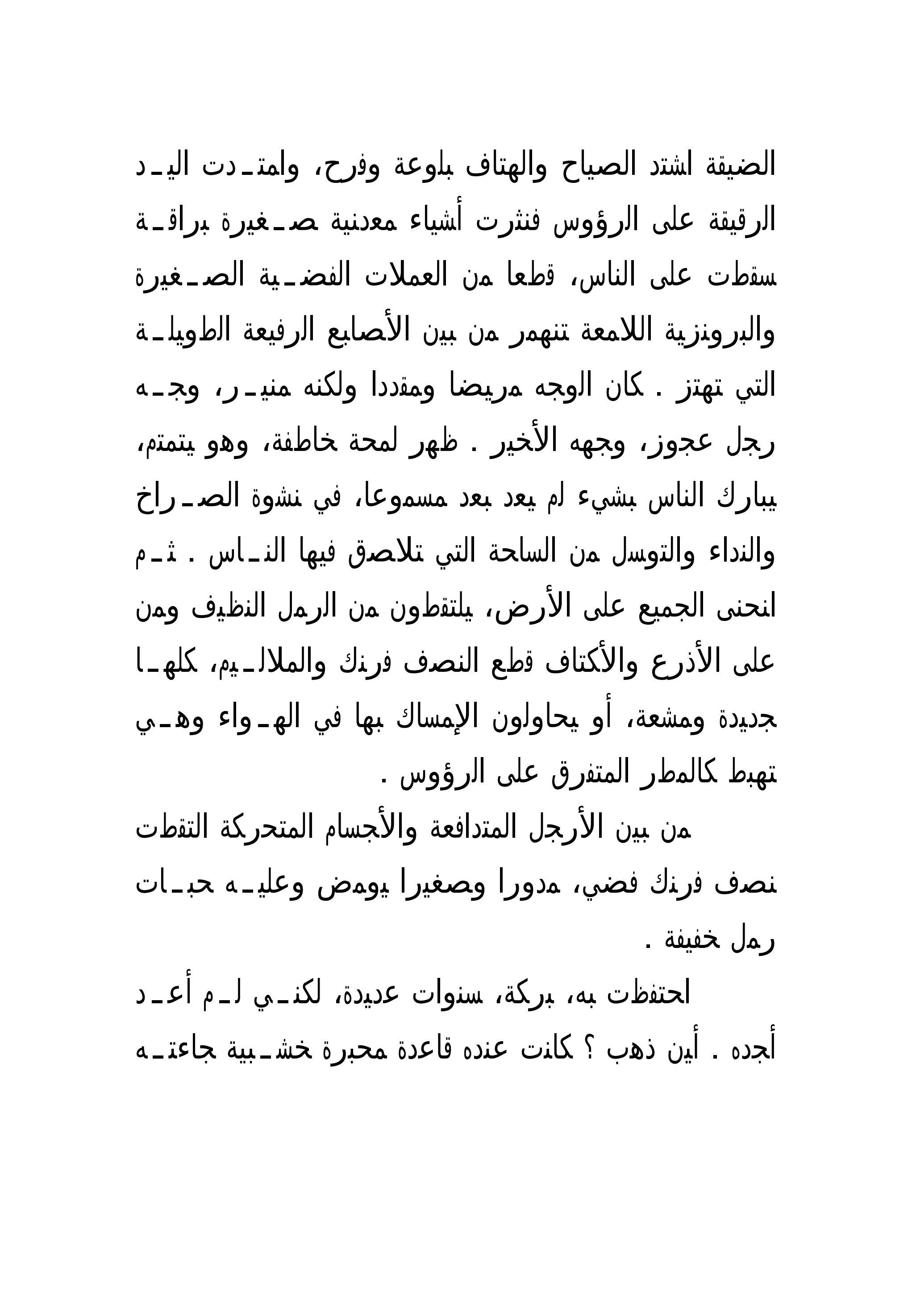
القلوب ومثواها، والذي هدهدها وأشجاها، منفية أبدا في أحلامها ومناها .

نزل من " الترام " في تقاطع شارع النبـي دانيـال وشارع فؤاد، ومشي بقية المشوار إلى " البطرخانة " . كانت بدلته الصوف الجديدة خشنة الوبر قليلاً، وحذاؤه الأسود ثقيلاً ولامعا تحت الشراب الأبيض الممسوك "بأسـتيك" عـريض على منتصف ساقه . واشترى مـن بـائع الجرائـد، علـى

رصيف الشارع، مجلة اللطـائف المصـورة، ورأى علـى غلافها صورة مرسومة تخيلها الرسام ولكنها شديدة الواقعية لقطار تطايرت عرباته وتناثرت، والعساكر الإنجليز ممدودو الأذرع والسيقان في الهـواء، طـوح الانفجـار بخـوذاتهم وبنادقهم،وتحتها أن الثوار الفلسطينيين الشجعان قـد نسـفوا قطارا حربيا محملاً بالمؤن والذخيرة والعتـاد العسـكري . وكانت جماعات الناس الفرحة تدخل إلى ساحة البطريركيـة من الباب الحديدي الضيق العالي .

كان القداس طويلاً، يعلو ويهبط، والكنيسة مزدحمـة بالناس الذين يحملون الأطفال الصغار في لففهم البيضـاء . هل كان هذا أحد التناصير ؟ جو العيد، وتراتيل الشمامسـة، وصراخ الأطفال، وصلصلة المثلث النحاسي، والقسيس يهز المجرة يتصاعد منها البخور، والسيدات والبنات في الجانـب الأيمن وفي الشرفة الحجرية التي تدور بصـحن الكنيسـة، ورؤوسهن مغطاة، وملابسهن ملونة، وهو يقف ثم يجلس ثم يقف مع المصلين، وقد شبع من النظر إلى الأيقونات الأربع والعشرين العالية المتلاصقة، التلاميذ الاثنا عشر مكـررون مرتين، ألوان الأيقونات في إطاراتها الذهبية زيتيـة داكنـة

الخضرة والحروف القبطية صغيرة رأسية على جانب كـل أيقونة . ورفع أبونا يديه فوق الرؤوس ورش بأصابعه الماء المصلى عليه فتناثرت على المصلين مع ارتفـاع التراتيـل، وأحس طل الماء المبارك على وجهه ثم تسـلل مـن أمـام المقاعد الخشبية المزدحمة وخرج إلـى الردهـة الرخاميـة النظيفة بين الأعمدة المدورة، ونزل الـدرجات العريضـة، وكانت ساحة الكنيسة مليئة بالناس، وباعة الصور المقدسـة الصغيرة، والأولاد يجري بعضهم وراء بعض ويصـيحون ويتنادون والناس يخرجون ويتحركون مسرعين، متلهفين . وفجأة تزاحم الناس ككتلة واحدة تحت البيت البطريركي فـي الممر الرملي الذي يفصـله عـن جـدار الكنيسـة العـالي المصمت، واشتد الزحام حوله، والرؤوس كلها مرفوعة إلى أعلى، والأجسام تتكاثف حوله، والناس يقول بعضهم لبعض في فرح : سيدنا .. سيدنا .. وفجأة ارتفعت صـيحة تهليـل واحدة من الناس جميعا، الرجال والنساء والأولاد يهتفـون : باركنا يا سيدنا .. باركنا .. باركنا . حتـى ظهـر الوجـه الضاوي النحيل، شفافًا في سمرته الرائقة وكأنـه مضـيء، بلحيته البيضاء السابغة، وعمامته السوداء المدورة في النافذة



الضيقة اشتد الصياح والهتاف بلوعة وفرح، وامتدت اليد الرقيقة على الرؤوس فنثرت أشياء معدنية صغيرة براقة سقطت على الناس، قطعا من العملات الفضية الصغيرة والبرونزية اللامعة تنهمر من بين الأصابع الرفيعة الطويلة التي تهتز . كان الوجه مريضا ومقددا ولكنه منير، وجه رجل عجوز، وجهه الأخير . ظهر لمحة خاطفة، وهو يتمتم، يبارك الناس بشيء لم يعد بعد مسموعا، في نشوة الصراخ والنداء والتوسل من الساحة التي تلاصق فيها الناس . ثم انحنى الجميع على الأرض، يلتقطون من الرمل النظيف ومن على الأذرع والأكتاف قطع النصف فرنك والملاليم، كلها جديدة ومشعة، أو يحاولون الإمساك بها في الهواء وهي تهبط كالمطر المتفرق على الرؤوس .

من بين الأرجل المتدافعة والأجسام المتحركة التقطت نصف فرنك فضي، مدورا وصغيرا يومض وعليه حبات رمل خفيفة .

احتفظت به، بركة، سنوات عديدة، لكني لم أعد أجده . أين ذهب ؟ كانت عنده قاعدة محبرة خشبية جاءته

هدية من ابن عمته بقطر، عندما عاد من القدس ومن يومهـا كانوا يقولون له المقدس بقطر .

كانت منحوتة على شـكل جمـل صـغير، رقيـق التفاصيل، من خشب ناعم صفرته داكنة ولامعة .

والجمل عنقه أتلع ممدود للأمام، ورأسـه غريـب، حي، كامل التدوير، عيناه مفتوحتان حالمتـان، ولـه سـنام محدب تنفتح فيه فجوة مستديرة، وسيقانه الطويلة كأنها تسير وحدها، على أخفافها اللينة المضـغوطة، بخَبـبٍ هـادئ لا يتوقف . كان الجمل قادرا. لم يضع فيه محبرة أبدا . وظلت النقرة المدورة الخام فاغرة، محببة النسيج . وكانت قاعدتـه خشنة الخشب أيضا، ومكتوبا على جانبها الأيسر بـالحروف القبطية وعلى جانبها الأيمن بالعربية " أورشليم ١٩٣٢ " .

كان يضع الجمل، بعنايـة فـي درج خـاص مـن "البوريه"، آخر درج من تحت . فيه الأشياء التي تحرص أمه عليها، أمشاط الشعر التـي علـى شـكل أقـواس مطعمـة بالعاج،وحبوب الصدف المتقلبة الضوء، وثـلاث زجاجـات عطر مركز، مغلقة بسدادات زجاجية محكمة ولكـن عبقهـا نفاذ، من الصندل السوداني، والياسـمين البلـدي، والعنبـر

اليمني، وحارق، ومكحلتها الفضية الصغيرة التي على شكل طاووس ناشر جناحيه وبجانبها المِرود اللامـع فـي حافتـه المستدقة الرأس أثر باهت من الكحل، وشرائط رفيعـة مـن القماش الحرير اللدن الملتف بعضه على بعض منسابا كأنـه حي يتلوى، والدانتللا الملونة الدقيقة الخروم، وعلبة معدنيـة رقيقة الجدران فيها دبابيس وإبر الخياطة وبجانبها المقـص الضخم بشفرتيه المضمومتين شرير ومنذر في رقدته، يتحدى من يمسكه، والجمل بين هذه الأشياء، كأنه ملك . يعتَز بـه، يمسكه يحيط بيديه، ويخرجه من بين هذه الغابة من الأشـياء المحملة بشحنات غامضة فيهدأ جيشان قلبه عندما يراه فـي النور والهواء شامخًا ومتكبرا ووديع النظرة معا .

ضاع مني بعد ذلك بسنين ولم أجده مهمـا حاولـت ومهما بحثت .

وأحسست حرجا مكتوما غائرا لا يندمل، ولعله لـم يندمل حتى الآن .

كانت أمي، وخالتي وديدة وستي أماليا يقلن عن عـم مقار – زوج خالتي حنونة – بصوت فيـه سـخرية خفيفـة

أحيانًا . وغيظ : العبد التَنْتُون كان هائل الجسم، وجهه أسمر لامع وطيب، ويعمل في السكة الحديد .

تزوجته خالتي حنونة – وهي صغيرة جـدا – عـن طريق الكنيسة، فلم يكن له أهل يعـرفهم، الكنيسـة ربتـه، وعلمته، وشغلته . ووافق جدي ساويرس، أما سـتي أماليـا فكانت خائفة على عدل البنتين وديدة وسارة، ولم يرض قلبها على عم مقار إلا بعد ذلك بسنين طويلة، عندما شاخت جدا، وكانت عندهم في البيت، وكان هو الذي يؤكلها بيده، وكـان جسمها قد ضمر، وصغر، ولم تعد تستطيع أن تمشي فكانت تزحف على الأرض، وكان عم مقار هو الذي ينظفها كل يوم عندما توسخ نفسها، ويحميها بالماء السـاخن فـي الشـتاء، والماء البارد في الصيف، بيده، وكانت تـدعو لـه ولأولاده بالصحة وطول العمر وأن يحفظهم المسيح ويطـرح فـيهم البركة .

وكان عندهم بيت ملك على قمة شارع كريم وشارع العيون في آخر غيط العنب، بالقرب من جامع سيدي كريم، وكان عندهم مجلات مصر والمقتطف ومجلة السكة الحديـد اللامعة الورق نصفها بالعربية ونصفها بالإنجليزيـة وفيهـا

صور قاطرة تاريخية ورسوم هندسية للصمامات والغلايـات والمكنات وشوايك العجلات، أتملاها بشغف . وكنت ألعـب مع ابن خالتي وطواط وكان وجهه مدورا وباسما وفي لـون الكاكاو باللبن وكله شقاوة وعفرتة، وأحبه جدا . كنا معا في ثاني سنة من مدرسة الكرمة الأولية القبطية الأرثوذكسـية، وكنا نهرب، أحيانًا، من المدرسة، فـي الفسـحة الكبيـرة، ونجري إلى بيتهم ونتسلق عمود النور ونقفز منه إلى سـطح البيت ونقع بين الفراخ التي تنق والديك المتلع العنـق الـذي يهاجمنا بعرفه الأحمر ومنقاره المشرع، بشراسة، بينما تثغو الماعز المربوطة بحبل إلى مسمار في الحائط، ثغاء شـاكيا، وننزل معا وثبا على السلالم المفتوحة المبنية بالطوب الأحمر فتفزع خالتي حنونة وهي تخبز أمام الفـرن فـي الحـوش الصغير جالسة على الأرض وتشتمنا ثم تضحك معنا .

كنا نسكن أيامها في شارع الباب، أمام وابور الطحين ومدرسة البنات، وللبيت شرفة كبيرة أرضها من الأسـمنت الرمادي المعجون بالحصى اللامع المنعم المصـقول ولهـا حاجز حديدي مشغول، وتطل على دوران الترام، بعد مسافة، أمام الكركون .

وكان وطواط ابن خالتي يأتي ونلعب الاستغماية على السطح وندخل أقفاص الفراخ ونغلق أبوابها المصنوعة مـن السلك علينا ونختبئ جنـب حـائط غرفـة الغسـيل ووراء الملايات والملابس المنشورة ونجري على البلاط الأبـيض النظيف بين صغار الـبط بمناقيرهـا الصـفراء المبططـة والكتاكيت التي تجرى مفزعة ورقيقة جـدا بـين أرجلنـا، ونصنع بيوتًا من علب السجائر البيضاء وعليها رسم مذهب بخطوط رمادية لرمسيس الثاني وعجلـة عربتـه الدائريـة وحصانه المنطلق أبدا إلى الأمام، ثابـت الجـري، أبـدا، لا يصل إلى غايته، وقبل الأعياد نعاكس الخـروف المربـوط فيهجم علينا بقرنيه المتشابكين الغليظين، ويقف عندما يشـتد الحبل حول رقبته الغليظة ويتوتر ويكاد ينقطع وهو يزفـر، محنيا رأسه، ونحن نثب أمامه ونصرخ من الرعب والفرح .

وفي عصر يوم غائم وثقيـل السـماء كنـت أقـف بالشرفة مع خالتي وديدة وخالتي سارة، ورأينا الترام يأخـذ الدوران الواسع قبل محطته الأخيرة، بعيدا أمـام الكركـون، وعجلاته تصرخ في احتكاك حاد، ثم يبطئ فـي اندفاعـه، ويقف قبل المحطة . وسمعنا نداء الناس وصيحاتهم، ورأيت

جسم الولد الصغيرة يتدحرج تحت العجلات، غير واضـح، وأشياء مقطوعة تبدو لا صلة لها بهذا الجسم الذى غاب تحته أرضية الترام العالية . وأخرج الناس ما بقـي مـن الولـد وحملوه على الرصيف والدم يسقط منه فـي خـيط متصـل مهتز، ووضعوه على الرصيف أمام سور الحديقة الكبيـرة، القاتم اللون، تحت أغصان الشجر الكثيفة الملتفـة السـاقطة على السور . وسمعت جلجلة جرس عربة الإسعاف ورأيـت الجسم الصغيرة المكوم يحمل على النقالة ويغيب فـي بطـن العربة الحمراء البيضاء . وكانت صدمة الحادث قد هـزت قلوبنا، وكنا نسأل يا ترى من الذي سـقط وقالـت خـالتي وديدة : ياضنايا ياحبيبي .. ! ربنا يصبر قلب أمه عليه .. !

لم نعرف إلا في آخر الليل أن ابن خالتي وطواط هو الذى سقط تحت عجلات الترام، ومات قبل أن تصل به عربة الإسعاف إلى المستشفى الأميري .

هل كان هذا أول فقدان ؟ وهل كانت الضـربة مـن القوة حتى كدت أن أنساها، وأنسى أول وأقرب صديق لي في الطفولة، وآخرهم أيضا، الذي أحببته ولعبت معـه بحريـة صافية في لعب لم أعرفها مع أحد بعد ذلك، إلا فـي صـنع

الحب مع من عشقت في آخر العمر؟ كنت أطوف معه، ومع العيال، القبط والمسلمين سواء علـى البيـوت فـي ليـالي رمضان، ومعنا، كلنا، فـوانيس رمضـان، ونأخـذ النقـل والمكسرات من على أبواب البيوت ونحن نهـز الفـوانيس الملونة المشتعلة بنار شمعها البيضاء، ونغني حـاللو حـاللو رمضان كريم يا حاللو، ونفرق ما حصلنا عليه، وبالتسـاوي بين الكل . وكنا نلعب الكرة الشراب وحاوريني يـا كيكـة وكلاوا بامية، تحت عمود النور بزجاجه المربع الـذي يئـز بطعنة الغاز الأبيض الثابت، ثم نجلس تحت العمـود علـى الأرض، ونسمع بشغف، وقلوب واجفة، لحكايات العفريـت الذي طلع لأكبر الأولاد في الحلقة وسد عليه السكة، ولم ينقذه منه إلا فارس روماني في يده حربة طويلة، وحـول رأسـه نور باهر يعشي العينين، وعلى درعـه علامـة الصـليب، كبيرة، وهاجة .

وأنا أستيقظ من نوم قلق على السرير غير المألوف، الغرفة جافة الهواء من التدفئة المركزية، وأفتح شقا صـغيرا في النافذة فيهاجمني هواء قارس قـاطع، أنظـر مـن وراء لوحي المزدوج إلى الساحة التي يغطيها ثلج بلـون أردوازي

باهت كأنه أكوام صغيرة من طباشير رمادي هـش، تشـقها قضبان الترام وأنهار الشوارع المسفلتة المتقاطعـة، غرفـة الفندق القديم مازالت معتمة في الصبح الباكر، فيها "فوتيي " عريض،فرشه الأحمر المضلع حائل كأن التراب قد تغلغـل في قماشه ورسخ في فتائل النسيج، والسـتائر الثقيلـة لهـا شراشيب مشعثة، مصنوعة من القماش نفسه . وعندما فتحت الدولاب الخشبي وجدت أبوابه صعبة الحركة وفيـه رائحـة ملتبسة .

كانت صفوف متعاقبة من الناس تأتي إلـى محطـة الترام في وسط الساحة، ملففة بالمعاطف، والجلـد والفـرو والقماش السميك، ورؤوسها مغطـاة بـالقلابق والشَـابكات، ألوانها كلها قاتمة، ويتدفق الناس، ويركبون صـامتين كـل مهموم بنفسه، أيديهم مدفونة بعمق فـي جيـوبهم أو مكفّنَـة بالقفافيز الغليظة، والترام يمضي بهم، كبيرا أصـفر اللـون يتأرجح، وأسمع من وراء الزجاج الثقيـل قلقلـة عجلاتـه وصراخها الحاد في الدوران . والثلج قد تجمد بكتلته الصلبة اللينة الشكل مع ذلك، لونه شـاحب تحـت نـور مصـابيح الماغنسيوم في الشارع، بصفرته الحادة، دوائر النور الأصفر

على أفاريز المباني القاتمة العريقة وأعمدتها المنحوتـة فـي الحيطان المتينة الحجر، وعلى أغصان الأشـجار الرفيعـة المسننة، بجذوعها السوداء كأنها محروقة في الشتاء .

الطفل الذي كان ترام راغب باشا يمخض قلبه، تحت السيف البرونزي الأخضر، كان يركب معـي هـذا التـرام المضيء الدافئ في برد أول الصبح، يقطـع هـذه المدينـة الجميلة الشهيدة، عرفت متعة خضرتها ونشوة مبانيها الناعمة في ربيعها الذي سرعان ما انطفأ، وعرفت قسـوة الصـمت فيها، والحصار، وهبتْ علي من قتيلها كاف المسيخ أنفاسـه الدؤوب المكتومة في عالم كابوسه الدقيق الحاد .

كان يراقب أباه وهو يحلق ذقنه كل صـباح، وقبـل حمامه، في المساء ثلاث مرات في الأسبوع أيـام الاثنـين والخميس والسبت، بانتظام، أو كلما عن له أيضا فـي غيـر هذه الأيام .

يحلق بموسي طويلة قديمة الطراز، مثل التي عنـد الحلاقين، من الصلب الأبيض الرقيق القوي، مقعـرة قلـيلاً على طول منتصفها، شفرتها القاطعة لونها أقل لمعانًـا مـن جسم الموسي نفسه، ولها جراب قاتم الملمس من مادة عظمية

مفَصل على آخر الموسى بحيث إذا انطـوت انثنـت علـى المفصلة داخلة في الجراب بصوت ارتطام مفاجئ . ومعـه جادة عريضة، سميكة، يعلقها بمسمار في حائط الحمام، يسن عليها شفرة الموسي إذ يحكها بالجلـد بضـربات عريضـة منتظمة حاذقة وثيقة الملمس لها صوت طري، حتى تصـبح الشفرة رفيعة جدا ومرهفة وناعمة الحد ليست فيها ذرة مـن الخشونة . وكان أبوه يرغي بالفرشاة العريضة مـن شـعر الخيل، في قصعة عميقة من المعدن الذي يلمع، حتى يرتفـع زبد الصابون ويتكاثف بياضه بوشيش بارد يخفت تـدريجيا ويهبط بعد انتفاخ، ثم يمر بالموسي على ذقنه بحركة عريضة محكمة، وينفض الرغوة القليلة المكحوتة، بلونهـا المغبـر، نفضات سريعة في حوض الحمام ويترك الماء المنصب على الحنفية يغسلها، فتعود الموسي حادة من جديد ولامعة .

في الليالي التي يستحم فيها أبوه، تسـخن لـه أمـه صفيحة الماء على " وابور الجاز " وتدخلها له في الحمـام، يتصاعد منها البخار في حلقات متطايرة بيضـاء . طقـوس الخلاص المنْهل الصغير من يوم العالم، طقـوس الخلـوص الحميم الرث الى جسم الحب .

وبعد أن يخلص أبوه من الحمام ويدخل غرفة نومه، جديدا وفواحا برائحة الرجولة والنظافة، وكأس " الكونيـاك " مليئة، ونسيرة الفرخة أو الديك، وشرائح البـيض المسـلوق المقطع الجاهز تحيط به حبات الزيتون الأسود الغضة الجلد، كان الولد يرى أحيانًا في الحمام كومة صغيرة مبلولـة مـن الشعر المحلوق الرقيق، أسود وأبيض، لم تنزلق بها الميـاه إلى الفتحة المدورة المظلمة . ويخطف قلبه الـروع وقـدماه تكادان تنحدران به إلى الفوهة الغامضة الفاغرة التي تفضي إلى عالم ما تحت الأرض بما يقطنه من أولئك الذين يـأتون إليه في رعب الليل بعد النوم، بأنفاسهم اللافحـة وأجسـامهم المتموجة، وحضورهم محسوس حي وغير مرئي سـيقانهم تدق بلاط البيت بحوافر مشقوقة، خطوها مسترق ومتربص . ويسمعها تئن أنين الحزن الذي لا شفاء له وبنـات الظـلام يخرجن إليه على هيئة أمه، أو خالته، أو جارتهم اليونانية أم توتو، أذرعهن الناعمة تدور حول عنقه في الليل بحنان قاتل معتصر . والبقرة الذبيحة تخرج بعد هبوط النوم، وتجمـع عظامها الجافة التي تفرقع وتخشخش، ومـا زالـت عظمـة الكعب ناقصة، ضائعة، والبقرة تنوح، مـن غيـر العظمـة

المفقودة لن ينفك الرصد ولن تعود البقرة إلى جسمها الأصلي قبل أن تسخطها ضربتها الساحرة الشـريرة، امـرأة بـاهرة الحسن والجمال عارية تسرع إلى تغطية مـا بـين فخـذيها بأوراق شجرة الجميز الخضراء التي لابد أن تضفرها معـا وتجدلها بخيط مفتول من سرتها المفتوحة تدور فـي الشـقة المظلمة الآن، تبحث عن سر الرصد، وتهمهم بلهفة والتياع .

يتقلب في مفازع الكابوس الموحش، وحـده، حتـى الآن .

كان بين النوم واليقظة، في غرفة النوم التـي تبـدو فسيحة وخالية ولكن ثقيلة وغريبة . وكانت الحمى، ورعشة البرد المتكررة تنفضه، لا يدرك تماما أين هو، بينما يسـعل سعالاً جافًا ممزقًا، يريد أن يطرد من غورٍ عميق في صدره شيئًا رازحا ومتشبثًا . ألذلك كان ينام، وحده، على السـرير العالي المنصوب، وحده، في الليل، أوراق الصحف القديمـة ملفوفة حول صدره، جفّ السبرتو والخل عنهـا، تخشـخش قليلاً خشونتها على عظمه ، تحت الفانلة والبيجامـا؟ وهـل كانوا قد انتقلوا إلى بيت عبده في محرم بك، والأثاث مازال مفكوكًا في الغرف الثلاثة والفسحة . جاء الليل علـيهم ولـم

يفرغوا بعد من تركيب العفش ونقله إلـى أماكنـه، رصـت القفف والسلال والربط، الكنبات معووجة لم تفـرش بعـد، الكراسي بعضها فوق بعض، أخشاب السـراير والـدولاب قائمة على الحيطان وممدودة على الأرض أخرجوا الأطبـاق والحلل والملاعق وتعشوا على الطبلية، كيفما اتفق ! ألـذلك كانت أخواته ينمن على مرتبة الكنبة الإسطنبولي المفـرودة على حصيرة علـى الأرض مغطـاة بـالملاءات البيضـاء النظيفة، وهو وحده، لأن عنده حرارة ورعشة، ينـام علـى السرير؟ أكانت أمه قد غلت صفيحة الماء، بعد هدة النهـار وكد العِزال، وفرغ أبوه من الحمام، واستحمت بعده، ونامـا الآن على مرتبة السرير الكبيرة على الأرض، تحته، بعيـدا في ظلمة الليل ؟

سمع، في صمت النوم الثقيـل، الصـوت الخشـن، هامسا، ملحا . وحفيف الأغطية والملاءات، تتحرك، ولم يكن يرى شيئًا . وجاء الصوت الخافت، فيه تمرد، حار النبـرة : لأ .. لأ .. مش عايزة .. لأ وعاد الصوت المحبوس القوي، مطموسا في لهفته لا يقاوم، ليس فيـه إلا عنـف التطلـب والاقتحام . أما هو فقد تجمد في رقدته، انعقد السـعال فـي

صدره وتكور ورسخ، صلبا، لا ينزاح، كأنه مرصود، تحول حجرا وفقد كل حواسه إلا السمع الذي يلتقط الآن، بوضـوح الشهقات المتلاحقة، والفحيح العنيـد، والارتطـام الطـري، والنفس المتسارع، ثم الأنين الأبح المكتوم، آخر دفقات الجهد المبذول، مفسوحا ودفينًا، ينتهي إلى تنهيدة الراحة، وصـمت مفاجئ ميت .

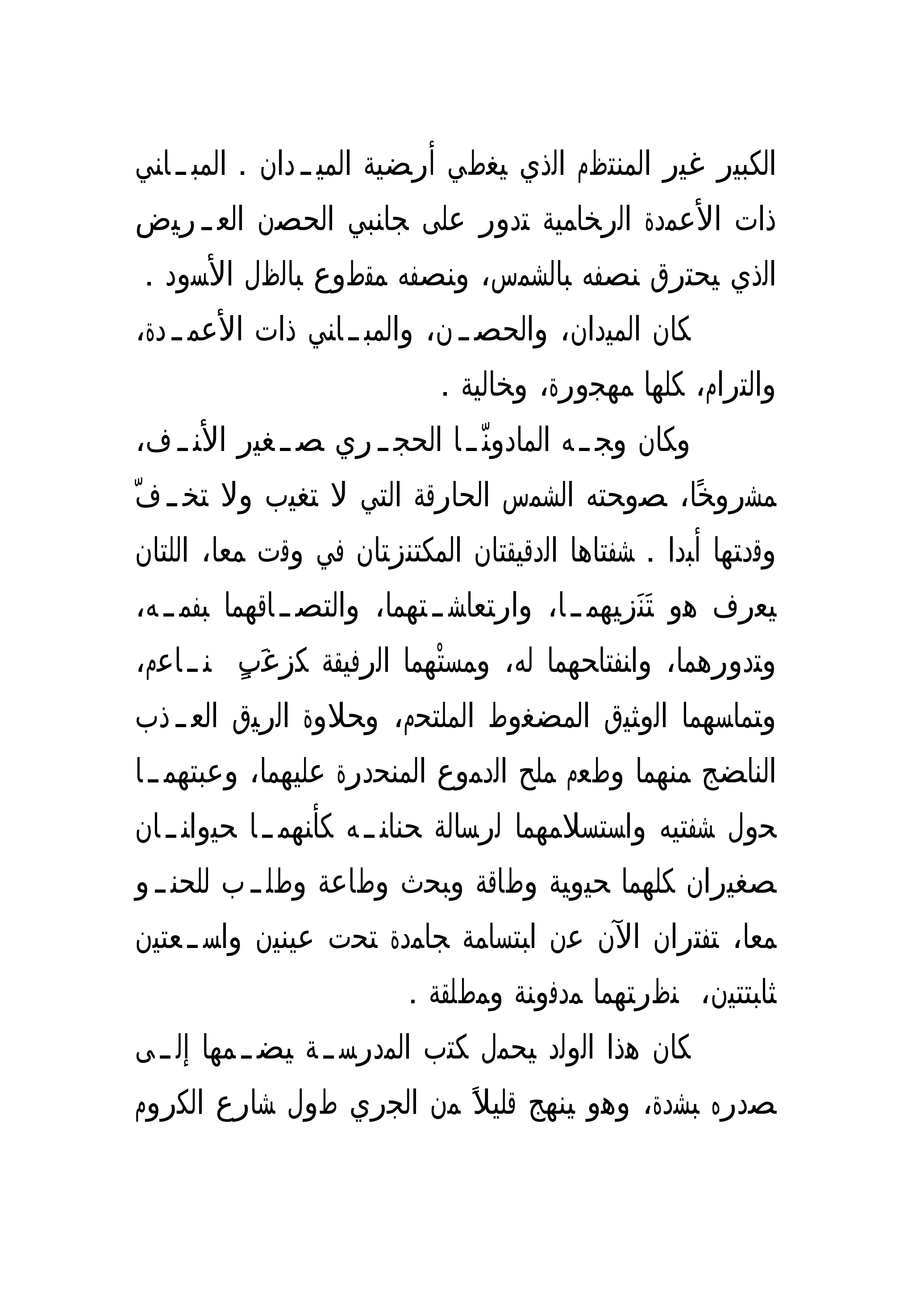
في غمرات الحمى كنت قد انزلقت إلى أرض ساخنة عامرة، وكأنني أطوف بأعمدة الجرانيـت فـي " منـف "، وباحات الرخام في " كورنثة "، وتحت عقود بغداد وقبابهـا المنقوشة بالخط الكوفي، وكان الترام يتأرجح بي في شـارع النبي دانيال، ودخلت إلـى عرصـة حـارة ببخـار المـاء المتصاعد من نوافير تمجها أفواه سباع مكفتـة بالفسيفسـاء، وكنت عاريا وحوالي الجواري الخّـود، أراهـن وأحسـهن ناعمات، مليئات الأجساد، ينسبن من بـين يـدي، ويتثنـين عاريات كاسيات في غلالات من الخز الموصـلي، سـوداء وشفافة وفضية وهفهافة ومطرزة بالذهب البنـدقي ومفوفـة بوشي مشمشي دقيق الخروم، وكُـن كثيـرات ومتعـددات وواحديات، يختفين ويظهرن، يتخطرن مقبلات علي ويرغْن،

كالنعام، يهب بهن هواء حار فينحسر النسيج السلسال علـى أثدائهن مكورة ومخروطة وقائمة وادنة وكبيرة وتفيض على اليدين وصغيرة وصلبة القوام، لكن منها نبقتـه فـي لـون العنبر، أو عِنَبته الطويلة المترعة بلون النبيذ، بطونهن مقببة من عاج لدن جسدي بحت، وأطرافهن تتموج وتسبح في لجة هادئة كثيفة لا أراها ولكن مائيتها تغمرني، وكن ضـارعات وشرسات ومطاوعات ونوافر وحائرات وهائمات في غسـق محمر يسيل كأنه يترك عليهن زبدا داكنًا ينسـرب رقراقًـا برغوة ذائبة على اللحم الأنثوى المبتل الحي بحيـاة غريبـة وأجنبية لكنها حميمة وثيقة القربى، في داخلي، وكـان الـدم يضرب في جسمي ويدور جائشًا ومتقلبا في كل جـوارحي، وكنت أعرف من ذلك أن السياف هنا مشرع سلاحه القاطع المخوف، ولكنني لا أراه، وكنت أعرف أن التـي تتجـاوز الجدار منهن إنما تعبره إلى ساحة مقتلهـا، وأن أجسـامهن المشتهاة تسقط صريعة الضربة المصمية، وكان لضـربات السيف بالأعناق الممدودة على النطع صدمة ارتطام جافـة، ومنتظمة الإيقاع، رتيبة، ومازلن يظهرن لي، ويختفين مني . الرعب والشهوة والغضب والرحمة لجج طامية ملتطمة فـي

يقظتي، متوترا، مطعونًا، ســاقطًا علــى ســريري منهــوك الأوصال .

كانت الشمس المنصبة على الحيطان العتيقة العالية شفرة موسى تومض في تقاب عتمة الحام الساطع، وكان الحام مبنيا بحجر عريض وسيطي، شقق الزمن جاده الخشن ولكنه أبقى على نعومة جسده الخفية . والحيطان تدور بوثاقة وإحكام حتى تنتهي، في كل من طرفيها، إلى برج قصير مدكوك مربع حاد الأركان، ليس فيه نوافذ . وكان الميدان الصخري مهجورا في الظهر، والظلال السوداء جاءت محددة وواضحة كأنها مقطوعة، مرمية بثقل على شكل منقار بجعة كبيرة، منحوتة، رمادية، أكلت الأيام والمياه القديمة حواف أجنحتها الحجرية المفرودة، يحيط بها سور من الصخر الأبيض الخام دائري قليل الارتفاع .

وكان الترام يقف أمام البوابة المقوسة إلــى الــداخل قليلاً، بابها الخشبي القديم له ضلفتان مــدججتان بالأحزمــة الحديدية العريضة، برؤوس مسامير غليظة مثمنة الأضلاع، تحت شجرة عجوز وعفية واسعة الأغصان ثابتة الــورق . قضبان الترام المزدوجة تشق مسارها اللامع فــي البازلــت

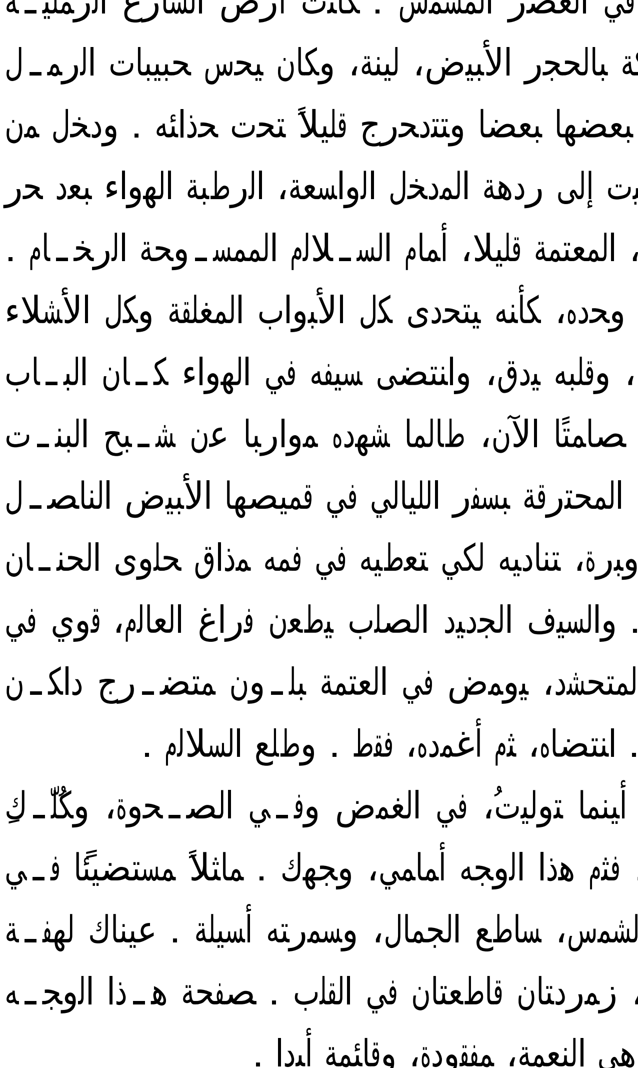


الكبير غير المنتظم الذي يغطي أرضية الميـدان . المبـاني ذات الأعمدة الرخامية تدور على جانبي الحصن العـريض الذي يحترق نصفه بالشمس، ونصفه مقطوع بالظل الأسود .

كان الميدان، والحصـن، والمبـاني ذات الأعمـدة، والترام، كلها مهجورة، وخالية .

وكان وجـه المادونّـا الحجـري صـغير الأنـف، مشروخًا، صوحته الشمس الحارقة التي لا تغيب ولا تخـفّ وقدتها أبدا . شفتاها الدقيقتان المكتنزتان في وقت معا، اللتان يعرف هو تَنَزيهمـا، وارتعاشـتهما، والتصـاقهما بفمـه، وتدورهما، وانفتاحهما له، ومسّْهما الرفيقة كزغَبٍ نـاعم، وتماسهما الوثيق المضغوط الملتحم، وحلاوة الريق العـذب الناضج منهما وطعم ملح الدموع المنحدرة عليهما، وعبثهمـا حول شفتيه واستسلامهما لرسالة حنانـه كأنهمـا حيوانـان صغيران كلهما حيوية وطاقة وبحث وطاعة وطلـب للحنـو معا، تفتران الآن عن ابتسامة جامدة تحت عينين واسـعتين ثابتتين، نظرتهما مدفونة ومطلقة .

كان هذا الولد يحمل كتب المدرسـة يضـمها إلـى صدره بشدة، وهو ينهج قليلاً من الجري طول شارع الكروم



الخالي في العصر المشمس . كانت أرض الشارع الرملية المدكوكة بالحجر الأبيض، لينة، وكان يحس حبيبات الرمل تجرش بعضها بعضا وتتدحرج قليلاً تحت حذائه . ودخل من باب البيت إلى ردهة المدخل الواسعة، الرطبة الهواء بعد حر الشارع، المعتمة قليلا، أمام السلالم الممسوحة الرخام . ووقف، وحده، كأنه يتحدى كل الأبواب المغلقة وكل الأشلاء الممزقة، وقلبه يدق، وانتضى سيفه في الهواء كان الباب موصدا صامتًا الآن، طالما شهده مواربا عن شبح البنت النحيلة، المحترقة بسفر الليالي في قميصها الأبيض الناصل اللدن الوبرة، تناديه لكي تعطيه في فمه مذاق حلوى الحنان الذائبة . والسيف الجديد الصلب يطعن فراغ العالم، قوي في نبضه المتحشد، يومض في العتمة بلون متضرج داكن القتامة . انتضاه، ثم أغمده، فقط . وطلع السلالم .

أينما توليتُ، في الغمض وفي الصحوة، وكُلٌّ كِ مشتهاة، فثم هذا الوجه أمامي، وجهك . ماثلاً مستضيئًا في حرقة الشمس، ساطع الجمال، وسمرته أسيلة . عيناك لهفة الوجود، زمردتان قاطعتان في القلب . صفحة هذا الوجه الرخيم هي النعمة، مفقودة، وقائمة أبدا .

فرس جموح، تشقين السحاب، وساحة روحي هـي بريتك الفسيحة المتموجة السفوح .

دوائر فخذيك ذهب خمري مسبوك، ملسـاء بـاردة تحت خدي، لامعة وقاطعة بين يدي .

ثدياك، عناقيد كرم، ومازال سـيفي علـى فخـذي مسلولاً أمام هول الليل في يم عشقي الملتطم .

وفمك حلو، ومازلت أنهل خمري الصهباء الصـافية لا تغيض أبدا، من عناقيـد نهـديك، ومـن كـأس سـرتك المدورة . سكرت من سرف سلافتك التي لا تسـعها بحـور السموات والأرضين، ومازال لساني جافًا مقطوعا على سن سكينتك، أنيني ويقيني : هل من مزيد ؟

وعلى يديك ينطف دمي، والعسل والخـل، واللـبن والنبيذ، معا .

في الآخر، استيقظ دفعة واحدة، السماء صحو وليس فيها شمس ولا قمر وسحابها شفاف وثقيـل، كـان جسـمها الخمري العاري، بكل بضاضته، ممشوقًا مع ذلك كالسـيف وناعما كأنه موجة عالية وثابتة، أمام النافذة، شرائح حصيرة النافذة المسدلة يتسلل منها نور القمر، مشاعا، ليس فيه حدة،

كأنه سائل لبني اللون ورقراق، وصوت الماء يأتي من وراء الحجر السميك، خافتًا، رغوته خفيفة، والهواء الملحي يمـلأ صدره، والعالم منفي وكأنه غير موجود .

أحس طعنة من سـن حـادة، مدفونـة فـي جنبـه باطمئنان، دون ألم . لا يعرف ما هي، سيف، سكين، خنجر رفيع ثاقب كالإبرة ؟ كان جالسا على حجـر أبـيض كبيـر مستقر على الرمل المتماسك، على سيف بحر سـاكن لونـه كلون الصدف، يلمع ويخبو .

أدار وجهه إلى جنب، وقذف من فمه كتلة دم صغيرة متخثرة، أحسها دافئة ومكورة .أحس على جانب شفتيه خيطًا رفيعا لزجا من الدم، متعلقًا بوجهه . لم يمسحه .

قال لنفسه : في الرئة : نافذ إلى الرئة . ولكن لمـاذا لا أجد ألما، ولا صعوبة في التنفس ؟

وعرف أنه مقتول .

٨) الظل تحت عناقيد العنب

كانت إسكندرة بنت خالتي لبيبة، كعروسة المولد . صـافية، خمريـة، ملسـاء . عيناهـا واسـعتان خضراوان، وشعرها الوحف ذهبي داكن .

ولم تكن خالتي لبيبة، أمها، خـالتي علـى الحقيقة، بل خالة أمي ولكن إسكندرة كانت في مثـل سـني، يمكن، أو أكبر قليلاً وكانت تلبس فستانًا حريريـا، أبـيض، مخنصرا، وواسع الحاشية، واسع التقويرة علـى صـدرها . وكأنها لم يكن عندها غيره . وصدرها لم يكد ينبت، ولكنـه على صغره، ناهد، وقوي .

وكنت، في كل مرة، واجف القلب وأنا أزورهم فـي بيتهم في شارع نزيب قريب من بيتنا . أدخل من باب خشبي كبير، كأبواب المخازن، يفتح على حوش طويل كأنه حـارة داخلية، فيه حنفية ماء سوداء غليظة الفوهـة، قائمـة مـن الأرض، عمودية، أمام مرحاض مبني على الحجر الأبـيض الخام، وحده في الحوش، يخدم البيت كله، وقد نشع الماء في تموج قاتم يدور بحيطانه الأربعة، وتهب منه، دائما رائحـة خاصة نفاذة . تظلله شجرة توت ضخمة،في الموسم تطـرح

حبها الأحمر الغض الدسم، وأحس أن فـي داخـل جـذعها العريض المفتول حياة خاصة وباقية .

ركِنَتْ على حائط الحوش عجلات خشـبية عاليـة، هائلة الاستدارة، مخلوعة مـن عربـات الكـارو الضـيقة الضخمة، وصفائح مياه صدئة، وطسوت سـوداء وكرسـي مكسور الأرجل، وأنا أخطو بحذر وتوجس بـين الكراكيـب وبرك الطين المبلولة دائما، أمام ثـلاث غـرف متتابعـة، وأبوابها مفتوحة عن بوابير الجاز التي تتقـد وتفـح تحـت الطبيخ والغسيل والستات اللاتي تربعن على الأرض بلحمهن وهدومهن القليلة المفتوحة عن أفخـاذ مدموكـة وصـدور محصورة منبعجة، أو متهدلة ساقطة في أفواه الرضع حتـى أصل إلى غرفة خالتي – خالة أمـي – لبيبـة، فـي آخـر الحوش، جنب السلم الحجري الخارجي الذي نصعد منه إلـى سطح البيت، أنا وإسكندرة، ويأتي معنا أحيانًا، أخوها زكي، صغير الجسم، صموتًا وثاقب العينين .

نترجى خالتي لبيبة لتعطينا مفتـاح بـاب السـطح، فتخرجه لنا من تحت رأس المرتبة على سـريرهم الوحيـد،

وكان مفتاحا حديديا طويلاً له رأس على شكل حلقة مفرغـة كبيرة .

كان السطح هو الذي يسحرني .

كان مسورا من الخارج بالحجر، وطويلاً، وله بـاب رقيق الخشب باهت اللون نفتحه بالمفتاح الصـدئ الكبيـر، وعندما يصر الباب، وينفتح، تفاجئني، كل مرة، تكعيبة العنب التي تغطي السطح كله، مورقة، ومظللة وبليلـة الأنفـاس، والهدوء الساري، وخفوت كل ضـجيج، والـبلاط الأبـيض النظيف ليس عليه إلا ورق عنب جاف ساقط وجذاذات رفيعة يابسة من فروعه وتراب خفيف مكنوس .

والنور تحت التعريشة اللّفاء الممتدة خفيف كأنه خمر عطِر الخضرة وكانت رقرقة الهـواء بـين أوراق العنـب المتربة قليلاً، المتدلية من التعريشة، واهتزاز حلقات الضوء المستديرة تلعب بها الشمس على البلاط الأسود بين الظـلال الصغيرة المتراوحة كأنها رنين موسيقى خافتة مـن أصـابع كريستال بللورية طويلة متأرجحة، وفي آخر الصـيف أشـم سكر العنب الذي يستوي مترعا بعصارته، على مهل .

كانت إسكندرة تأتي إلى بيتنا، قبل الأعياد وقبل رفاع الصيام، لتشتري من وابور الطحين الذي أمام البيت نصف كيلة دقيق ناعم نمرة واحد، وتصنع منه خالتي لبيبة الفطير الفلاحي المشلتت على مرق الوزة أو ذكر البط . وكنت أصحبها إلى الوابور أساعدها في شراء وحمل الدقيق، وأكون معها .

كان هذا المطحن يختلف عن مطحن راغب باشا الذي بعد الكوبري .

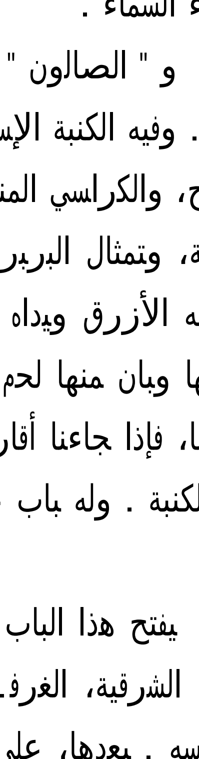
هنا كنا ندخل، أنا وإسكندرة، من فتحة صغيرة مربعة مقطوعة في جسم الباب الخشبي الضخم، نعبر فوق عتبة رخامية مرتفعة قليلاً فكأننا ننزل منها إلى عمق فسيح متموج الهواء معتم قليلاً بعد الشارع بنوره الحاد، نجد أنفسنا في باحة عريضة عالية السقف، خافتة الضوء، تسبح فيها ذرات الدقيق كأنها ضباب جاف وشفاف ورقيق جدا، وأرضها سوداء صلبة الحجر . ويقف في مواجهتنا، في آخر الباحة، حاجز عالٍ من السلك الأخضر دقيق الخروم وفيه ثغرة مربعة مقابلة تماما للشق المفتوح في الشارع .

ووراء السلك في حزمة من نور الشمس تسقط فتحة مدورة مغطاة بالزجاج في السقف، تقوم الأقمـاع الحديديـة الهائلة، جنبها سلالم معدنية مكشـوفة مثبتـة إلـى الحـائط بقضبان أفقية . تنصب الأقماع في مواسير أسطوانية تهتـز باستمرار وتدور حولها السيور الجلدية العريضة التي تـدخل فجأة من شقوق ضيقة مفتوحة على مقاسها تماما في حـائط حجري تقع وراءه منطقة المحركـات الخفيـة والمحظـورة علينا . في المطحن كله تتجاوب أصوات الدق المتواتر الذي يأتي من وراء الحائط رتيبا ومنتظما، ينبض بقوة قلب معدني هائل، وخشخشة غربلة مستمرة متراوحة الإيقـاع ووشـيش احتكاك الحبوب بسلك الشبكات المعدنية كوشيش الماء علـى شطٍ خَشِنِ الرمل .

كان بيتنا الذي أمام هذا المطحن في شـارع البـان، مزدحما ولكنه واسع فسيح مليء بالحركة والحياة .

كنا نشغل الحجرات الثلاث من الناحية القبلية . ننـام أنا وأخواتي البنات في غرفة منيرة تطل على حوش خلفـي بين البيوت، هادئ ومزورع وفيه تعريشة لبلاب كثة نراهـا من شباكنا ملتفة على الحيطان وعلى قوائم خشـبية قديمـة

وعلى جذوع ثلاث نخلات طوال سامقة تنبع كلها من جذر واحد عريض متشابك، وتميس بسعفها بين حيطان البيوت التي تنزل عليها من كل ناحية مواسير الماء والمجاري، رفيعة وسميكة، مدورة متجاورة، ومواسير صرف مياه المطر المفتوحة عند آخرها على الأرض ترويها في الشتاء من ماء السماء .



و " الصالون " يقع بين غرفتنا وغرفة نوم أبي وأمي . وفيه الكنبة الإسطمبولي العريضة، والجرامفون ببوقه المفتوح، والكراسي المنجدة والخيزران، ومائدة الأكل الطويلة، وتمثال البربري الصغير الملون بعمامته الحمراء وقفطانه الأزرق ويداه تحملان منفضة سجاير تقشرت أطرافها وبان منها لحم الجبس الهش الأبيض . فيه نستقبل ضيوفنا، فإذا جاءنا أقارب أبي من الصعيد فرشنا لهم وناموا على الكنبة . وله باب عريض من ضلفتين من نسيج الزجاج نفسه .

يفتح هذا الباب على فسحة كبيرة طويلة، فيها، من الناحية الشرقية، الغرفة التي أخذها خالي سوريال وعروسه . بعدها، على طول، غرفة المطبخ المشمسة

الكبيرة المليئة بالحلل والبرطمانات على الرفوف والمغـارف والأطباق الصيني في النملية وموائد الطبيخ المزدحمة ببوابير الجاز .

في مقابل غرفة خالي سوريال حمامان طويلان، لكل منهما نافذة عالية مدورة، ودوش، والمرحاض فـي واحـد منهما بلدي، وهو الذي أوثره وأعرفه، وفي الآخر إفرنجـي ولا أدخله .

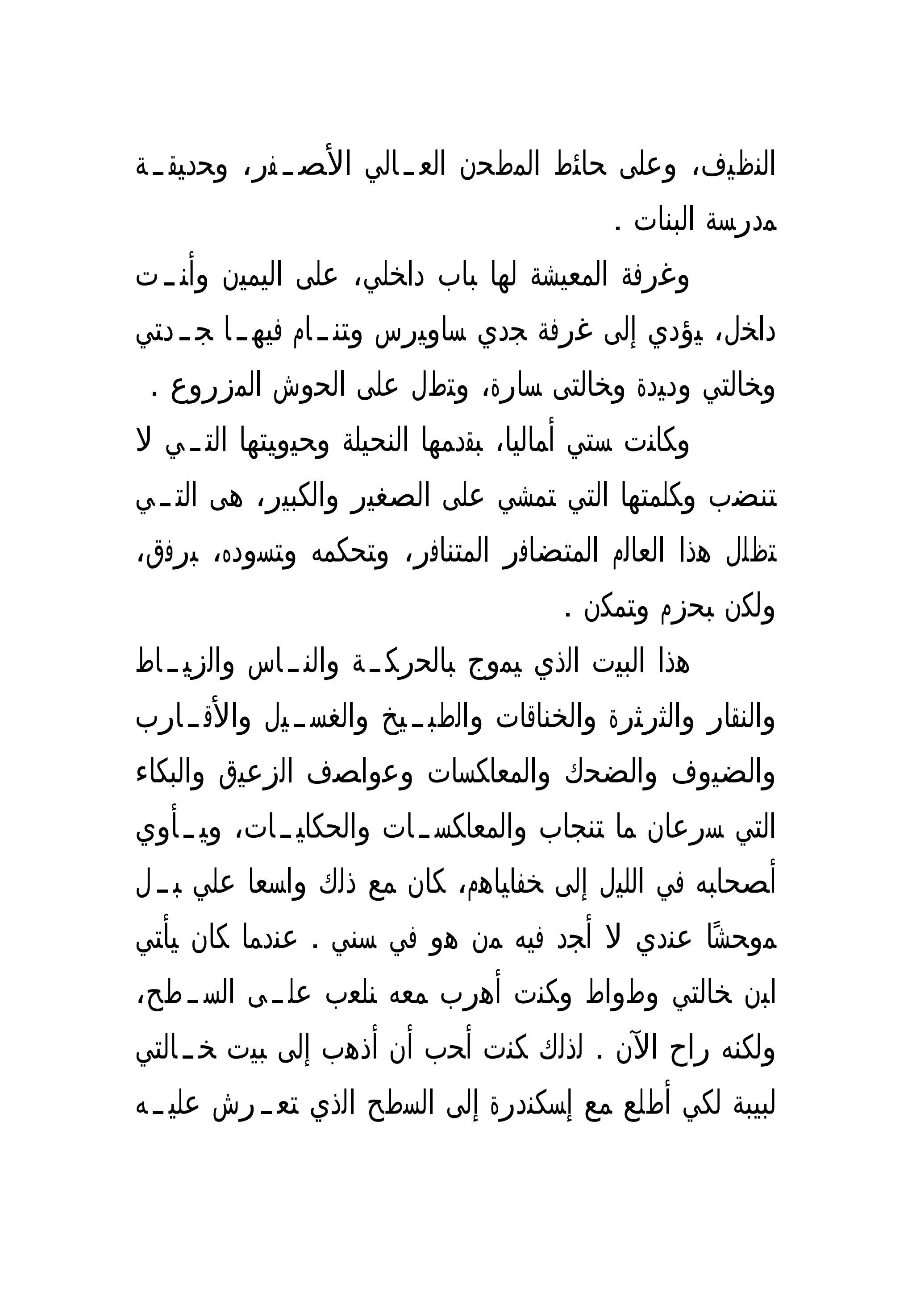
أما في مواجهة المطبخ فالباب من الداخل على غرفة خالي يونان وامرأة خالي إستر التي كانت تحبنـي، وكانـت أيامها قد خلفت يعقوب، فقط منذ قليل، وترضـعه . وكـان خالي يونان مازال عنده تاكسي ملك يسوقه ويكسـب منـه الشهد، ومازال يشتغل في النقابة مع البرنس عباس حليم .

أما خالي ناثان فلم يكن يسكن معنا وإن كـان يـأتي أحيانًا على الفجر، يصحي البيت ويفطر وينام، وكنت أعرف أنه يشتغل على سيارة لوري ضخمة يسوقها إلى دمنهور كل ليلة ويبيت هناك معظم الأيام، ولم يتزوج خالي ناثان إلا بعد ذلك بسنوات عندما شبع من الخبص مع النسوان ولم تخلـف له امرأته فكتوريا بنت عم أرساني إلا بنتهما الواحدة . ولـم

أر بنت خالي هذه أبدا، إلا مرة واحدة، بالمصادفة، في كنيسة جبانة الشاطبي، عندما ماتت أمي . وهى التي عرفتني بنفسها أنها تزوجت، وخلفت .

الباب الزجاجي الذي كان يفضي إلى ناحيتنـا فـي البيت أمامه بالضبط في آخر الفسحة الطويلة، بـاب مماثـل تماما يفتح على غرفة المعيشة المشتركة الكبيرة التـي فيهـا ماكينة الخياطة السنجر، والبوريه الرخامي، وكنبه إسطمبولي أخت كنبتنا، وكراسي الطقم الجديـد الـذى صـنعه خـالي سوريال عند زواجه، والمائدة البيضـاوية الرخاميـة التـي حفظت عليها جدول الضرب والإملاء الإنجليـزي، وفيهـا أيضا يضع جدي ساويرس بوص الصيد الطويل وعدته .

وتنفتح هذه الغرفة على الشرفة التي لها سور حديدي مشغول وتطل على مدرسة البنات، ووابور الطحين، ونـرى منها، على جنب، دوران التـرام فـي آخـر محطـة لـه، والكركون، والجنينة الغامضة ذات الشجر الكثيف الذي تسقط فروعه الملتفة على الشارع . وكنت أحب أن أجلـس فيهـا وأطل من بين حديد السور على شارع ١٢ الواسع المسـفلت


النظيف، وعلى حائط المطحن العالي الأصفر، وحديقة مدرسة البنات .

وغرفة المعيشة لها باب داخلي، على اليمين وأنت داخل، يؤدي إلى غرفة جدي ساويرس وتنام فيها جدتي وخالتي وديدة وخالتى سارة، وتطل على الحوش المزروع .

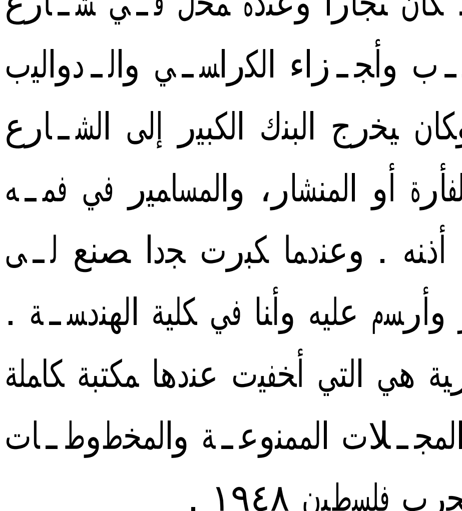
وكانت ستي أماليا، بقدمها النحيلة وحيويتها التي لا تنضب وكلمتها التي تمشي على الصغير والكبير، هى التي تظلل هذا العالم المتضافر المتنافر، وتحكمه وتسوده، برفق، ولكن بحزم وتمكن .

هذا البيت الذي يموج بالحركة والناس والزياط والنقار والثرثرة والخناقات والطبيخ والغسيل والأقارب والضيوف والضحك والمعاكسات وعواصف الزعيق والبكاء التي سرعان ما تنجاب والمعاكسات والحكايات، ويأوي أصحابه في الليل إلى خفاياهم، كان مع ذلك واسعا علي بل موحشًا عندي لا أجد فيه من هو في سني . عندما كان يأتي ابن خالتي وطواط وكنت أهرب معه نلعب على السطح، ولكنه راح الآن . لذلك كنت أحب أن أذهب إلى بيت خالتي لبيبة لكي أطلع مع إسكندرة إلى السطح الذي تعرش عليه

تكعيبة العنب الطويلة المورقة، في الصمت المظلل بحفيـف ورق العنب .

كنت أحيانًا، أستيقظ من النوم مبكرا، وأجـري إلـى باب غرفة خالي سوريال، أطرقه بخفة حتى لا أوقظ أحـدا آخر . ومهما بكرت في اليقظة كنت دائما أجد خالي سوريال وقد أفطر ولبس ويستعد للنزول . ولكنه يقول لـى : تعـال ادخل .. اقعد افطر مع مراة خالك . وكانـت هـذه الغرفـة ضيقة قليلاً، محصورة، نافذتها الوحيدة يسدها الدولاب الجديد ببابه الواحد الذي تشغل واجهته كلها مرآة عريضـة تـردد صورة السرير وعليه المفرش الساتان الأحمر الداكن اللامع، والسجاد البني المحروق الكثيف الوبرة الذي يدغـدغ بـاطن رجلي الحافيتين . وكان فيها مصباح كهربائي عال له شعب مضيئة دائما في النجفة المتعددة الأوراق، حمرتهـا فاتحـة وفيها عروق بيضاء متعرجة، وكانت الغرفة تثيرنـي كلمـا دخلت إليها، بأثاثها الجديد الذي تفوح منه رائحـة اللوسـتر النفاذة، والمراتب القطنية العالية اللحـاف الـريش المنجـد بساتان من لون الفرش، أحمر داكن فيه غرز مدفونة مـاكرة الصنعة، وعبق الجنس وسره المغلق ينضح به وجه امـرأة

خالي الصعيدية الصموت، مدورا وغضا وبه آثار الزواق الخفيف على شفتيها المكتنزتين والكحل كأنه طبيعي في عينيها السواداوين العميقتين . وكانت تلبس " روب دي شامبر " بالدانتيللا ضافيا وسابغًا على قميص نوم من الساتان الأحمر الداكن نفسه، فتحته واسعة على صدرها الأسمر الوفير، ولم أكن رأيت شيئًا مثل هذا من قبل، كأنما كانت خجولاً من هذا السر نفسه وكأنما كانت تخفي هذا الخجل عندما تناديني إليها، فيرفعني خالي سوريال إلى السرير جنبها، وتضمني إليها فأنشق منها رائحة الحمام والصابون المعطر ونفح الجسد الأنثوي الجديد اليقظ، وتعطيني بيضة مسلوقة مقشرة من الطبق الذي على الكومودينو جنب السرير، أو بسكوتة بالمربى، وتعزم علي بشفطة شاي باللبن من الكوب الذي تشرب منه، ويخرج خالي سوريال وهو يقول لي : خل بالك على مراة خالك، من الغجر دول .. أنا سايب معاها راجل أهوه . ويضحك ضحكة صافية ليس فيها سخرية بل إعزاز وحنان أبوي . وكنت أفهم أنه يشير إلى معاكسات خالتي سارة والنظرات الفاهمة المعابثة التي تحدجها بها خالتي وديدة، وأحس بالفخر والقوة .

وكان خالي سوريال نحيلاً وقصير القامة نوعا ما، ولكنه قوي والعضل في ذراعية مفتول جاف ومضلع كأن فيه طاقة خفية، وضحكته عريضة كالماء البللوري الرقراق ويعشق عروسه الجديدة بنت عم عبد المسيح، الصعيدية الحنون المليئة الجسم . كان نجارا وعنده محل في شارع 
الرند، مزدحم بالخشب وأجزاء الكراسي والدواليب والترابيزات والعدد، وكان يخرج البنك الكبير إلى الشارع الهادئ يشتغل عليه بالفأرة أو المنشار، والمسامير في فمه والقلم الرصاص خاف أذنه . وعندما كبرت جدا صنع لى مكتبا كبيرا كنت أذاكر وأرسم عليه وأنا في كلية الهندسة . وكانت امرأة خالي مارية هي التي أخفيت عندها مكتبة كاملة من الكتب الثورية والمجلات الممنوعة والمخطوطات والمنشورات قبل قيام حرب فلسطين ١٩٤٨ .

وعندما اعتقلات أحرقتها كلها في الفرن الذي يخبزون فيه على سطح بيتهم وراء الكركون تماما، حرصا علي، وعندما خرجت من المعتقلات لم أرها إلا لماما حتى ماتت بعد خالي سوريال، وبعد أن زوجت كل أولادها ومازلت أذكرها، صموتًا وجميلة وعميقة العينين، بمحبة، وأبتسم

عندما أذكر كيف كان جدي ساويرس يقول عنها : الصعيدية بنت الصعيدي، ولكنه لا يقول ذلك أبدا على مسمع من أبي .

كان جدي ساويرس قائم العود، وجهه طويل ووسيم وواضح التجاعيد لوحته الشمس بسمرة خاصة صحية، وكان يدهشني عندما يشمر كميه ليغسـل ذراعيـه تحـت حنفيـة الحوض، أن أجدهما، فوق الرسغين، بيضاوين جدا . عرفت عندما كبرت أنه كان " باشكاتب " حسابات قد الدنيا في البنك الزراعي في شبراخيت، وأنه استقال في عز كهولته ليعـود إلى أرضه في الطرانة، وأنه أنفق عن بذخ علـى الشـرب والأكل والمضيفة ورهن الأرض ولعب علـى القطـن فـي البورصة حتى لم يعد لديه إلا قراريط، ثم حملته ستي أماليـا على أن يؤجرها ويعود ليعيش مع أولاده وبناته فـي غـيط العنب . وعندما خاف أخوالي عيالهم الكثار وانتقلنا نحن إلى بيت شارع الكروم أمام إصطبل العربات، عاد جـدي إلـى الطرانة، وبعدها بقليل نشبت الحرب وكنا نذهب أنا وأخواتي إلى الفلاحين عندهم في أجازات الصيف .

أيامها كان مزاجه صيد السمك . كان يخرج كل يوم إلى المحمودية أو الملاحة ويقضي ساعات في غرفة المعيشة

الكبيرة، بعد الظهر، في نور "البلكونة " يصلح سنانير الصيد ويضبط بكراته ويشذب الفلّينات المدورة السوداء ويقطعهـا بمطواته الكبيرة ويركبها في الخيوط الرفيعة المثنية الملفوفة بعناية ويقطع بنفسه أطوال البوص وأنا أراقبـه مسـحورا . وعلى وجه الصبح، كل يوم على ا ، يخرج وعلـى كتفـه البوصة الخيزران الطويلة الناعمة، بعقدها المتتالية العريضة، لونها أدكن مصفرة وأخشن من سـاق البوصـة، والمخـلاة القماش التي اسود لونها، فيها الصفائح المدورة الصغيرة ذات الأغطية يتقلب فيها ويتلوى على بعضه البعض دود الطعـم والجمبرى الصغير الشاحب البياض، ويعود على العصـاري وفي المخلاة رزق اليوم : قرموط كبيـر مفلطـح الـرأس شواربه الطويلة تلعب وجلده اللازج أسود علـى أبـيض، أو البلطي الفضي القشر بلون الصدف المزرقّ المبلول أو حتى البساريا التي أفرح بها جدا لأن ستي أماليا تقليها وتعطينـي منها، من وراء أمي، جافةً محمصـة سـاخنة فـي الزيـت الفرنساوي تقرقع رؤوسها الهشة تحت أسناني، بلذة وعنـدما كنت في مدرسة الكرمة الأولية القبطية الأرثوذكسية سـألني منصور أفندى الناظر عما يشتغل أبي، فقلت بصوت خجول

وبلا اهتمام : تاجر بيض وبصل في شارع أنسطاسي . فلما سألني ماذا يشتغل جدي ساويرس قلـت بفخـر وكبريـاء، بصوت عال سريع : صياد سمك . وغضبت منه جـدا فـي سري عندما ضحك بصوت أجش وحان، ولكنني لم أغضب طويلا فلم أكن أسمعه يضحك أبدا . ولـم يأخـذني جـدي ساويرس معه للصيد، أبدا مـع أننـي كنـت أطلـب منـه باستمرار، بخجل وتردد في الأول، وبإلحاح وبكاء بعد ذلك، ثم من غير أمل أخيرا، ولكن من غيـر جـدوى فـي كـل الأحوال .

كان جدي ساويرس يطلب مني أن أنزل فـي الليـل فأشتري له حق الدخان أبوغزالة، من البقال الذي علـى أول حارة من اليمين، بعد وابور الطحين وكنت أحـس الـدخان طريا ولدن القوام من وراء الورق الخشن الداكن الخضـرة، وعليه رسم الغزالة بالخط الأسود تطير في الهواء بحريـة، رافعة الرأس، ساحاتها فسيحة، وأسعد بها وبالشارع المنيـر وهوائه الرحيب والبيوت النائمة، أنوارهـا صـغيرة تبـرق وتتخايل من وراء الشبابيك، وأنسى عندئذ، محنـة العـودة، وعبور العتبة، وطلوع السلم . لأن الدور السفلي من البيـت

كان مقفلا، ومهجورا طول إقامتنا فيه، مما سمعناه، أن امرأة قُتِلَتْ فيه، من زمان، بسبب العِرض ؟ ذبحها زوجها بالسكين، كما تذبح أمي الفراخ أو البط من غير أن يذكر عليها اسم ا . وحبسوه، ولم يفتح البيت من يومها ولم أكن أفهم تماما ما العِرض ولكنني أعرف بالتأكيد أنه من أسرار النساء . وكنت أحيانا، وأنا نائم في عز الليل أسمع الأنين الأنثوي الملتاع الطويل، يصعد إلي من تحت، وأسد أذني وأدخل تحت اللحاف، وأسقط في النوم بسرعة .

كان السلم في الليل مظلما ومخيفا، وفسحة الباب معتمة ويهب فيها هواء رطب كأنه أنفاس حية، ترعبني، وأحس صاحبتها تترصدني من وراء باب شقتها، وتهم بالإطباق علي . وعندما أدخل من الشارع يواجهني باب الشارع الخشبي الثقيل المشغول، تحت شرفتنا، دائما غامضا، وكأنني أدخله لأول مرة . أستمد الشجاعة من عمود مصباح الغاز في الشارع الذي يدخل نوره قليلا من العتبة إلى الداخل ثم ينقطع في ظلام دامس وسكون . أضع رجلا على العتبة ورجلا في الخارج، وأنادي كل مرة، كل مرة، بصوت مرتفع فيه كل شحنة شجاعتي، أنادي باسمي أنا، بإلحاح،

دون توقف، حتى يظهر النور من باب بيتنا فـوق، وتحملـه أمي أو خالتي سارة أو أمراة خـالي إسـتر التـي أحبهـا، وتتراقص شعلة اللمبة نمرة خمسة على السلالم والدرابزين، فترتد الأشباح وتنحل المفازع، وأسمع الصـوت : اطلـع .. تعالَ .. يا .. فأصعد السلالم وثبا، أربعا أربعـا، وقلبـي يخفق، كل مرة بالفرح،كنا في ليلة في أول الصيف، والعـالم قد خلا فجأة، أصبح مخُوفا، صفارات الإنذار تعول عـويلا موحشا، سمعت الكلاب تنبح بصوت مرتفع فـي السـكون، والظلام الذي سقط .

نزلنا السلالم مسرعين، من بيتنا، في حارة الجلنـار, إلى راغب باشا . كنت أمسك بيد أختي هنـاء مـن ناحيـة، وأختي لويزة من ناحية أخرى، وكانت أمي تحمل أخي إلبير الصغير، وأبي قد لبس البالطو على جلابيته البيتي البيضاء، ومعه أختي عايدة، صامتة وخَجلَى قليلا من أنها كبرت الآن ولم تعد طفلة . وعبرنا شارع راغب باشـا، وكـان معنـا جماعات صغيرة من الناس يتحدثون بهمس، ودخلنـا مـن ميدان صغير في تقاطع شارع إيزيس وشـارع صـغير لا أعرف اسمه، ودخلنا من الفناء الصغير إلى بـاب الكنيسـة

الإنجيلية المبنية بالحجر الأحمر، ووقفت بالباب بينما نـزل أبي وأمي وأخواتي إلى البدروم المتين الصلب الشكل .

كنا نعرف أن باب سدرة قد ضرب، أمس بطوربيد، ونشرت الأهرام والمصري والبلاغ خبرا واحدا وبنص واحد معا، أنه انهار بيتان كانا آيلين للسقوط وأنه لم تحدث خسائر في الأرواح وأصيب ثلاثة أشخاص إصابات طفيفة . وكنـا نعرف أن العمود، صباح ذلك اليوم، وقد غص بالجنـازات المتتالية وأن الكنيسة في جبانة الشاطبي أيضـا قـد ظلـت أجراسها تدق طول الصباح وأن العديد واللطم والشلشلة قـد فاضت من بين البيـوت والأنقـاض وأن صـلاة المـوتى والغائبين قد أقيمت في جامع المرسي أبـي العبـاس وفـي الكنيسة المرقسية في وقت واحد معا . وقال أبي إنـه فـي طريقه لشغله رأى فتحة واسعة غائرة ظهر الماء في قاعها، على دوران البياضة، ورأى من خـلال كـوردون عسـاكر الجيش المرابط، الحيطان المتهدمـة والأنقـاض والأحجـار المتراكبة، وأنه رأى بينها سراير حديدية متلوية ومحروقـة معلقا بها جلاليب وفساتين كأن أصحابها قـد خلعوهـا الآن فقط .

كانت السماء فوقي قد أصبحت شاسعة مخيفة، تحمل المـوت في بطنها الموت محددا وضاربا وثقيلا ونهائيا . وكان نـور القمر قاسيا في سطوعه الفسيح . وانطلقـت أسـنة الأشـعة الكاشفة سيوفا طويلة متحركة من النور القاطع، آتيـة مـن أطراف المدينة ومن وسطها معا، تدور في الزرقة الصـافية الحريرية، تتقاطع وتتجاذب وتتفارق وتتلاقى أطرافها لحظة وتتركز في نقطة واحدة وهاجة ثم تنشعب، تجوس في بطـن السماء المغلقة عليها، تبحث عن بؤرة مراوغة بينما طلقـات الآك الآك الرفيعة الثاقبة المتعاقبة تطقطق دون توقـف ثـم تنفجر في ورود حمراء معدنية تتناثر شظاياها علـى الفـور وتنطفيء، وهدير محرك الطائرة بعيد وعالٍ ولكنه مسـموع بين انبثاقات الطلقات من المدافع المضادة للطـائرات، فـي الصمت الذي يجعل المدينة أكثـر شـفافية واتسـاعا، مـن الأنفوشي إلى المندرة والمنتزه، من الرند والبان والنخيل في غيط العنب إلى اللبان ورأس التين وانسطاسي، من جليمـو نوبولو وزيزينيا إلى ستانلي والنزهة والورديان، من حجـر النواتية إلى كوم الناضورة، من سيدي جابر وسـيدي بشـر وباكوس إلى سموحة والمكس، ومن محكة مصر والرصافة

إلى مصطفى باشا عودا إلى عزبة الصيادين، كانت حبـات إسكندرية عارية مطروحة، تغطيها فقط أسـنة مـن شـبكة الأشعة التي تطعن السماء .

في تلك الليلة، عندما نزل الطوربيـد مـن الطيـارة الطليانية، على مقام سيدي أبي الدردار لم يصل إلى الأرض أبدا .

قال شهود العيان :إنه بينما كان الجسم الضخم يهبط ويتقلب، حافتة المدببة مصوبة إلى الأرض ويومض تحـت القمر بلمعة شريرة، انشقت قُبـة المقـام الخضـراء وسـط تعريشة العنب المورقة المسورة بسور رقيق من الحديد، ثـم التأمت على الفور، وصعد منها الحضور الأكرم لـولي ا . وكان من الصالحين، يفدي عزوته كل أبناء مدينته البيضـاء المحروسة، والبرنُس المغربـي السـمني الهفهـاف ينفـتح كالجناحين في الهواء، ووجهه كالبدر الطالع يكسـف بـدر السماء، سناه يعشي الأبصار، وفاحت رائحة المسك والعنبـر المدفون في المقام المصون، وإنه بسط ذراعيـه فـاذا همـا عريضتان، نورانيتان، وتلقى في حضنه الطوربيـد الهائـل المندفع كالصاعقة فإذا هو برد وسلام، وطار به كلمح البصر

أو أسرع فوصل به في الحال إلى أكمة الشـلالات العاليـة الخضراء الخالية من الناس، ووسده الأرض على جنبه، وقد نزع شِرته وأذاه، فرقد بين الشجر الملتف الأغصان حديـدا باردا ميتا بلا حول ولا قوة، وجده الناس فـي أول الصـباح فتوافدوا عليه ألوفا مؤلفة، وفككوه دون ضرر ودون عنـاء، وكل واحد أخذ منه قطعة حديد خردة للبركة والعبرة، وعندما وصل رجال الجيش المرابط وضربوا نطاقا حول المكان لـم يكن قد بقي من الطوربيد المهول إلا قطع صغيرة هشة مـن الصفيح، وكومة باردة مفتتة من البارود تشبه الفلفل الأحمـر المطحون .

ثاني يوم قال أبي :إن إسكندرية أصبحت خطرة على الأولاد وإن لقمة العيش وحدها هي التي تبقيه هنـا، فقالـت أمي: إنها لن تتركه وحده أبدا وسافرت أنا وأخوتي جميعـا إلى بيت جدي ساويرس في الطرانة، فيما عدا ألبير الصغير الذي بقي مع أمي، ومات بعد ذلك بسنتين بالتيفود .

وكنت قد عرفت الطرانـة وجئتهـا فـي الصـيفين السابقين، وعرفت لندة وأختها رحمة والولد برسـوم وبقيـة العيال ومنهم الولد مخلوف ابن الشيخ عيسى جارنا في نصف

القرية الذي لا يسكنه إلا النصارى، وحدهم تقريبـا مـع أن الكنيسة تقع في النصف الآخر، بالقرب من السراية الكبيـرة التي ضرب فيها أنيس افندى نفسه بالنار . وعرفت التجـوال الطويل على المدقات الترابية بين الغيطان العاليـة بالـذرة، لغاية الطاحونة وما بعدها، وعلى جسـر النيـل، واللسـان الحجري الداخل منه إلى عرض النهر الواسع، أقـف علـى طرفه، بين الأمواج والدوامات أنادي منه جنّية البحر التي لم تطلع أبدا هناك، وإنما جائتني في الآخـر بنشـوات الجسـد المسحور ومتعاته الجنونية التي يعرف غيـرهن أن يـذِقْنَها لعشاقهن، جنيات النهر العميق .

وكنا نلعب الاستغماية أنا وأخواتي والعيال والبنات، أمام بيت جدي تحت شجرة الجميز .

وفي حموة اللعب، مرة، هربت لندة فجأة من أمـامي إلى ما وراء بيت عم أرساني ودخلت إلى ممر ضيق مسدود بينه وبين بيت جدي، يظلله آخـر فـروع شـجرة الجميـز الفارهة، وكنت أرى كعبي رجليها، وهى تجري حافية تثيـر التراب من على الأرض، فيهما بيـاض متـورد وعليهمـا حبيبات التراب الناعمة الهشة وكنت ألاحقها، خلعت شبشبي

أنا أيضا، أحس التراب في الزنقة باردا وجافا تحـت بـاطن قدمي، وعندما أمسكت بها، في آخر الزنقة، وهـي تسـتدير تحاول أن تلفت من جانبي، مرنة، مسرعة، وتمرق من تحت ذراعي الممدودتين، ضممتها إلي، ووجدتها بين ذراعي، وقد أحاطا بها ـ كما كانت تريد من غير شك، قلـت لنفسـى – وأحسست صدرها الحر النافر، وهي تنهج علـى صـدري، مضرجة الخدين وعيناها السوداوان الحالكتان، متوقـدتان، وبطنها، في فستانها المشـجر بـالورد الأحمـر والأصـفر الصغير على أرضية برتقالية يصطدم بي، ويتلبـث لحظـة واحدة، خاطفة، لا نهاية لها، وهي تحس بانتصابي وتعرفـه، لحظة واحدة، خاطفة، تريده، ثم تتنحي عنه بينمـا وضـعت شفتي الجافتين، وأنفاسي متدافعة، على جانب وجهها الـذي وجدته أمامي في هذه الخطفة من الزمن، وأحسست نعومتـه وحراراته ونداوته الخفيفة من العرق، قريبا جدا مـن فمهـا المفتوح المبتسم، ونشقت رائحتها الزكية، أولية وبريئة ونقية، رائحة الجسم النسوي العذري اليقظ، ثم أفلتت مـن ذراعـي وجريت من ورائها خارجين من الزنقة التـي كانـت، منـذ لحظة، ساحة فسيحة ساطعة، فاذا بنا نكاد نصطدم، كلانـا،

بجدي ساويرس، وكان راجعا للبيت، يمشي ببطء مستندا إلى عصاه الصفراء الغليظة العقد، وانطلقنا نجـري مـن وراء الشجرة حتى الجرن .

عندما عدت على أواخر العصاري، بعد أن لبسـت شبشبي، وطسست وجهي بماء جارٍ حفنته من عنـد اللسـان الحجري في النيل، ونفضت التـراب مـن علـى جلابيتـي البيضاء التي كان طرفها السفلي قد ارمـد وابتـلّ بـالتراب المنعقد ولم تنفع فيه حيلة، ودخلت البيـت، نـاداني جـدي ساويرس بصوت كنت أتوقعه . عندما اقتربت منه، متوجسا ومتماسكا، سألني ماذا كنت أعمل في الزنقة مع البنت لندة ؟ فقلت كنا نلعب كلنا وليس فقط لندة، نظر إلى بعينين نافذتين وعارفتين وصلبتين، وبدون كلمة ارتفعت يـده وأحسسـت صدمة الصفعة الأولى والأخيرة في كل صباي، الوحيدة من أي أحد، بقوتها المفاجئة ووقع الإهانة وسخونتها أكبر بكثير من ألم الضربة ولذعها، وكنت أسـمعه، مـن وراء غيامـة الغضب وحرارته، يقول :إننا كبرنا جدا عن لعـب العيـال، ويتكلم عن الأصول وألسنة الفلاحين التي لا ترحم البنـات، تركته واستدرت . وصعدت إلى الجميزة، عاليا، إلى البقعـة

العريضة التي كنت أختبيء فيها، منذ سنتين، وأترك نفسـي لحلم الشجرة الوارفة وسماء النهار التي تغلفها وكأنها تنـزل إليها وتحيط بي، وأنا أرتقي إلى الجذع العريض الممتد بـين الفروع، يسعني ويحملني بثقة، وكنت أسمع أصوات البيـت من تحتي والشوارع المتلوية الضيقة فـي القريـة والنـاس والبهائم والكلاب كلها بعيدة ولكنها موجودة . وكان غضـبي يخامره كبرياء وعزة من معرفتي بأن تلك اللحظة لـم تكـن مسروقة تماما، ولا جاءت بالمصادفة تماما بل كانت بمعنـى ما مدبرة ومطلوبة .

وكانت ظلال الورق والهواء المنعش في أعلى شجرة الجميز المعزولة عن العالم، تهدهدني . ولعلني، بالرغم مـن الجرح، كنت قد نمت .

في ١٢ بؤونة من سنة قديمة، كنت في قاعة مدرسة الأحد في مبنى الكرمة الأولية القبطية الأرثوذكسية . كنـت أحب صوت مس كاترين النحيفة الطويلة البيضـاء الوجـه، جسمها كأنه نوراني في فستانها السابغ الأبـيض المرسـوم بزهور دقيقة حمراء فاتحة، وهي تعلمنا الترانيم في الغرفـة الواسعة المعتمة قليلا، فيها دكك خشبية طويلة صفراء لامعة،

وصلبة، وكانت القاعة رطبة الهواء قليلا، فيها شموع موقدة تحت أيقونة العذراء، بثوبها الأزرق الملفوف على كتفيهـا، تنظر إلينا نظرة غائبة، واسعة العينين جدا، وهي تحمل على حجرها الطفل البض المدملج الجسم، السعيد النظرة وعورته الصغيرة عارية وبريئة وطبيعية وتدعو قلبي للحنان . ولأنني أجدت الترنيم أخذت من مس كاترين صـورة ملونـة، فـي أعلاها كلمات بالقبطية ومقابلهـا بالعربيـة اللجنـة العامـة لمدارس القبطية الأرثوذكسية، وفي الصورة عملاقان يرفعان أذرعهما بالبشارة على خلفية السماء الزرقاء، وعلى حقويهما إزار من الجلد داكن ، يقفان على أرض صخرية عالية فيهـا نباتات غضيرة ووحشية الشكل، ويحملان بينهما عصا متينة يتدلى منها عنقود هائل من العنب، وموسى شيخ أبيض اللحية يصعد إليهما من تحت الأكمة مستندا إلى عصا معقوفة اليد، وتحت الصورة بالقبطية والعربية " عنـب أرض كنعـان "، والآية المختارة : "وأجبروه (موسى) وقالوا قد ذهبنا إلـى الأرض التي أرسلتنا إليها، وحقًا إنها تفيض لبنا وعسلا وهذا ثمرها "

كنت أُرنم وراء مس كاترين، بإيقاع يتردد في الغرفة الواسعة، له صدى كنز مجد في السما .. كنـز مجـد فـي السما .

ترنيمي إليكِ، الفَردانية المثَمنَة المتملكة ملكوتَ اليوم التاسع غير المنقوص وعندها الأيام الثمانية معا .

الوحدانية المنسوبة إلى بيرسيفون، منهكة، مهانتهـا تنوش نياطي، كامنة في نباتات سنوحي، ما تَنِي تنعب عبـر السنين فوق دندنة الأحزان، حسنية .

منشدتي الأولانية المثناة، عنتُها هيلينيـة النبـرات، سِيرينتي في سنَي الوسن كاترينا .

إسكندرة، سيرافينا الفينانة المغْدودِنة على غصـون الرنْد والعنب، نداوة جناحيها المنضمين علي لا نضوب لها .

هنية، ماندالا الحصين، دوران اختناقها فـي أنفـاس الإحن والمحنة مازال يرين على العرين الجنوبي المكين في الجنينة القبلية .

وفي نهج الجلّنار، منَى، النَفُور، نازعةً عني، رنوتها إلي سن مسنونة تـنخس نزواتـي فـي الجبانـة المنحوتـة بالصوان .

وفي الطرانة جميانة، أيقونة يانعـة مونقـة، نقطـة النجيع أرجوانية من طعنة سكين نجلاء حول لُجين العنق .

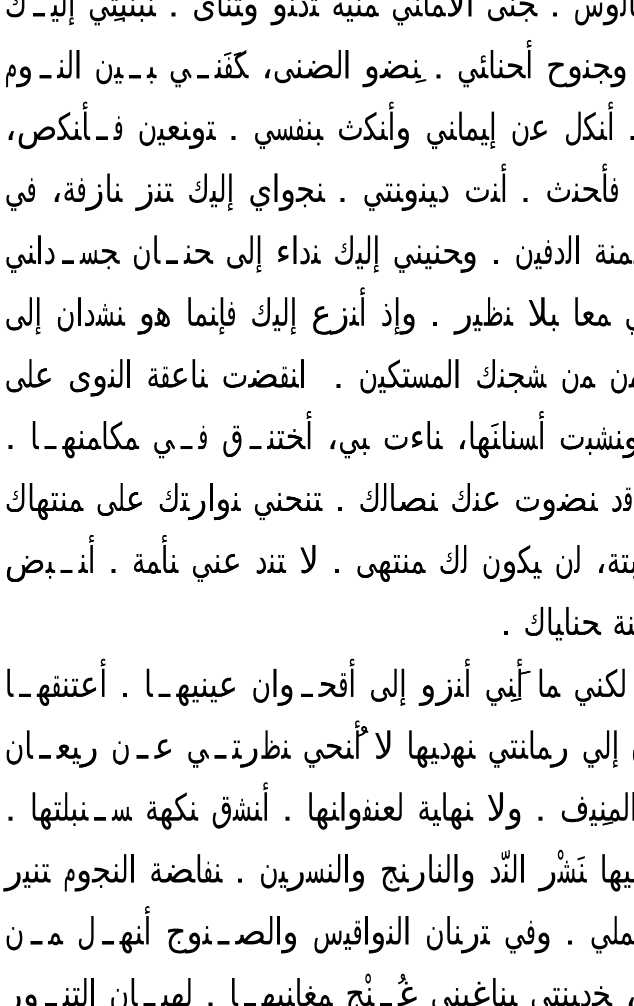
البانَةُ المتثنية نواسة تحت السنط النضير، لندة، تَبِض لها بواطني المتنزية، ونفحة بدنها نفث البشنين النـابع مـن غرين النيل .

أما نعمة، فوطني ومسكني، كنزي ونواتي، منيعـة، مانحتي حنانها وهناءتي وهي نقائي من أدراني وإليها أنيـب وفي حضنها أمني وركني ومنامي عند المنون .

وأما رانة فهي منفاي . الجنية النهمة مناسكي إليها، كاهنة التنين سوسنة منف، مناتي الوثنية وفينـوس مـدنفتي، سنديانة كنيستي، نخلة نجراني، زنبقة في زعفران، جمانـة النهار . النون .

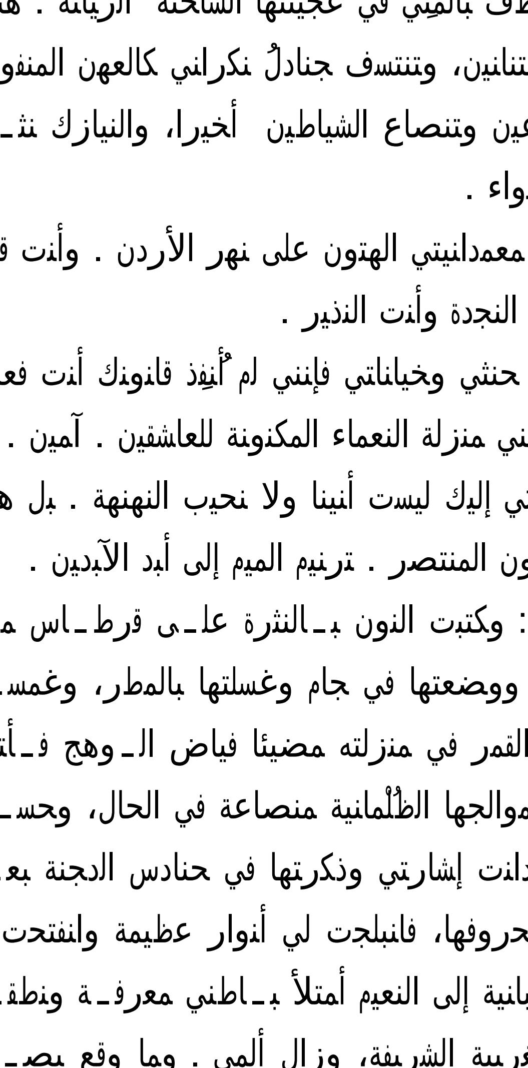
النورس المتنمـر ينقـر عناقيـد العنـب بمِنْسـره المحجون . وهو في آن يونان المكنون في بطن الدجنة ليس له منجاة، والنوتي الرهين ينقش المنمنمات سجينا في سفينته إلى نينوى التي لا منال لها .

وأنا في كِن نونِك، نصفك إلى يميـني يمـن ونعـيم الفتون ونشوات الجنات والجنون، ونصفك الداكن نير النكال



ونهش النيران حتى فناء الزمن، وعلى النصفين معا نقلتـي
التي تنتالوس . جنَى الأماني منيةُ تدنو وتنأى . نَبنَيِتي إليـك
وهنيني وجنوح أحنائي . نِضو الضنى، كَفَنـي بـين النـوم
والناي . أنكل عن إيماني وأنكث بنفسي . تونعين فـأنكص،
وتوقنين فأحنث . أنت دينونتي . نجواي إليك تنز نازفة، في
طين الدِمنة الدفين . وحنيني إليك نداء إلى حنـان جسـداني
ونوراني معا بلا نظير . وإذ أنزع إليك فإنما هو نشدان إلى
أن أطامن من شجنك المستكين . انقضت ناعقة النوى على
منكبي ونشبت أسنانَها، ناءت بي، أختنـق فـي مكامنهـا .
وهأنت قد نضوت عنك نصالك . تنحني نوارتك على منتهاك
غير منْبتة، لن يكون لك منتهى . لا تند عني نأمة . أنـبض
في سكينة حناياك .

لكني ما أَنِي أنزو إلى أقحـوان عينيهـا . أعتنقهـا
وأحتجن إلي رمانتي نهديها لا أُنحي نظرتـي عـن ريعـان
حسنها المنِيف . ولا نهاية لعنفوانها . أنشق نكهة سـنبلتها .
بين ردنيها نَشْر النّد والنارنج والنسرين . نفاضة النجوم تنير
على أناملي . وفي ترنان النواقيس والصـنوج أنهـل مـن
ينبوعها، خدينتي يناغيني غُـنْج مغانيهـا . لهبـان التنـور



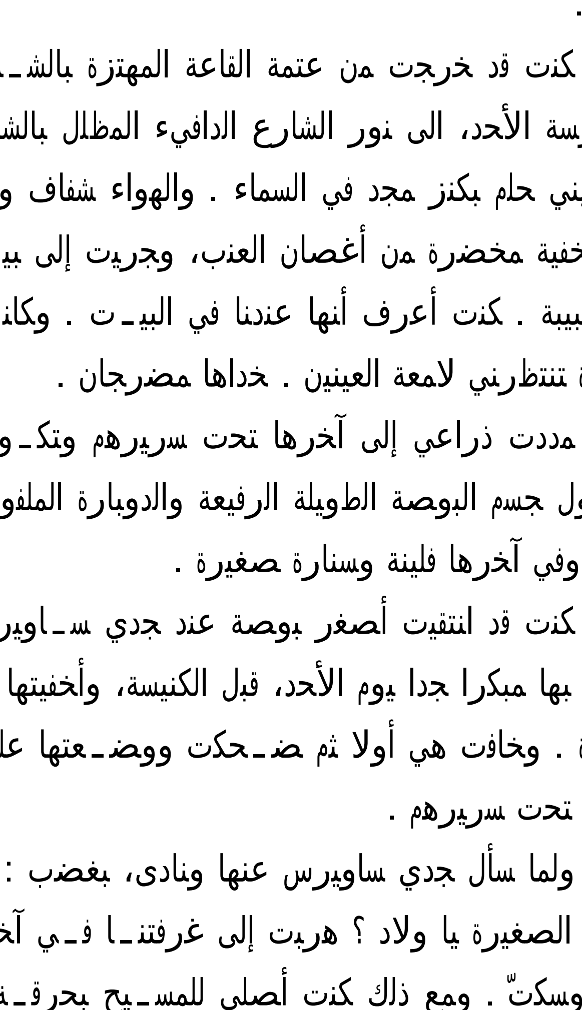
ينضجني فأنطفُ بالمِني في عجينتها الساخنة الريانة . هنالك تنبو أسنان التنانين، وتنتسف جنادلُ نكراني كالعهن المنفوش، تذعن الطواعين وتنصاع الشياطين أخيرا، والنيازك نثـارة في عنان الأنواء .

أنت معمدانيتي الهتون على نهر الأردن . وأنت قنينة النكتار وأنت النجدة وأنت النذير .

ومع حنثي وخياناتي فإنني لم أُنفِذ قانونك أنت فعنـد الميزان أنزليني منزلة النعماء المكنونة للعاشقين . آمين .

أغنّيتي إليك ليست أنينا ولا نحيب النهنهة . بل هزيم النسر المطعون المنتصر . ترنيم الميم إلى أبد الآبدين .

قال : وكتبت النون بـالنثرة علـى قرطـاس مـن رصاص آن ووضعتها في جام وغسلتها بالمطر، وغمسـت منها قلمي والقمر في منزلته مضيئا فياض الـوهج فـأتتني الحيتان من موالجها الظُلْمانية منصاعة في الحال، وحسـنَتْ عبارتي وازدانت إشارتي وذكرتها في حنادس الدجنة بعـدد قوى أسماء حروفها، فانبلجت لي أنوار عظيمة وانفتحت لي المخارج الربانية إلى النعيم أمتلأ بـاطني معرفـة ونطقـت بالنبوءات الغريبة الشريفة، وزال ألمي . وما وقع بصـري



بعد ذلك على أحد إلا ارتاع مِنّي وغرس ا في قلبه محبتي .

كنت قد خرجت من عتمة القاعة المهتزة بالشموع في مدرسة الأحد، الى نور الشارع الدافيء المظلل بالشجر، وفي عيني حلم بكنز مجد في السماء . والهواء شفاف وله رائحة خفية مخضرة من أغصان العنب، وجريت إلى بيت خالتي لبيبة . كنت أعرف أنها عندنا في البيت . وكانت إسكندرة تنتظرني لامعة العينين . خداها مضرجان .

مددت ذراعي إلى آخرها تحت سريرهم وتكورت يدي حول جسم البوصة الطويلة الرفيعة والدوبارة الملفوفة حولها، وفي آخرها فلينة وسنارة صغيرة .

كنت قد انتقيت أصغر بوصة عند جدي ساويرس، وتسللت بها مبكرا جدا يوم الأحد، قبل الكنيسة، وأخفيتها عند إسكندرة . وخافت هي أولا ثم ضحكت ووضعتها على الأرض تحت سريرهم .

ولما سأل جدي ساويرس عنها ونادى، بغضب : فين البوصة الصغيرة يا ولاد ؟ هربت إلى غرفتنا في آخر البيت، وسكتّ . ومع ذلك كنت أصلي للمسيح بحرقة أن

يغفر لي وكنت واثقا أنه غير غاضب مني . ويئس جدي من البحث عنها، وسلم أمره ، وكان متحيرا ولكنه لم يسـألني قط، مباشرة .

وكانت إسكندرة قد نبشت في ردغة الأرض المبلولة تحت حنفية الماء، وتحت شجرة التوت الكبيرة فـي حـوش بيتهم، واستخرجت الدور اللازج الدسم الشكل، ووضعته فـي حق مستطيل وأخفته تحت السرير، جنب البوصة، فأخذتُـه، بسرعة، وأخذت إسكندرة من يدها، وخرجنا .

جرينا في الشوارع الخالية تقريبـا، ومررنـا أمـام زرائب الجاموس برائحتها النفاذة وأقراص الجلـة الطريـة تجف في الشمس أمامها، بعد صف من صفائح اللبن الضخمة المرصوصة، فارغة، ونفذنا من ثقب ضيق كنا نعرفـه فـي سور السكة الحديد، وعبرنا القضبان وسـرنا بـين الهـيش والحلفاء، والبوص والزلط حتى وصلنا إلى شـط الملاحـة المترقرق الضحل، والماء عليه ساكن وفضي وثقيل الشكل .

ومشينا قليلا بحذاء الشاطيء حتى وصلنا إلى مرتفع صغير في رمله حصى مضلّع ومتراوح الأشـكال، مـدبب ومنبعج ومدور ومسطح، يعطي للرمل استمسـاكا وقوامـا،

وتحت المرتفع جونة ماء عميقة تبدأ صغيرة عند الشـطّ ثـم تتسع وهي داخلة في الملاحة، لونها أكثـر زرقـة وماؤهـا يترجرج بسيولة أكثر وكانت الشمس قد بدأت تحمى، وجلست إسكندرة بجانبي على ركبتيها، فوق أكمة الرمل، فأحمر جلد ساقيها، الحصى الصلب الأملس، بينما وقفت وذهبت حتـى حافة التلة الصغيرة وخلعت حذائي وأدليـت رجلـي حتـى أوشكت قدماي – اللتان أحسست فجأة برطوبة الهواء عليهما – أن تلامسا الماء .

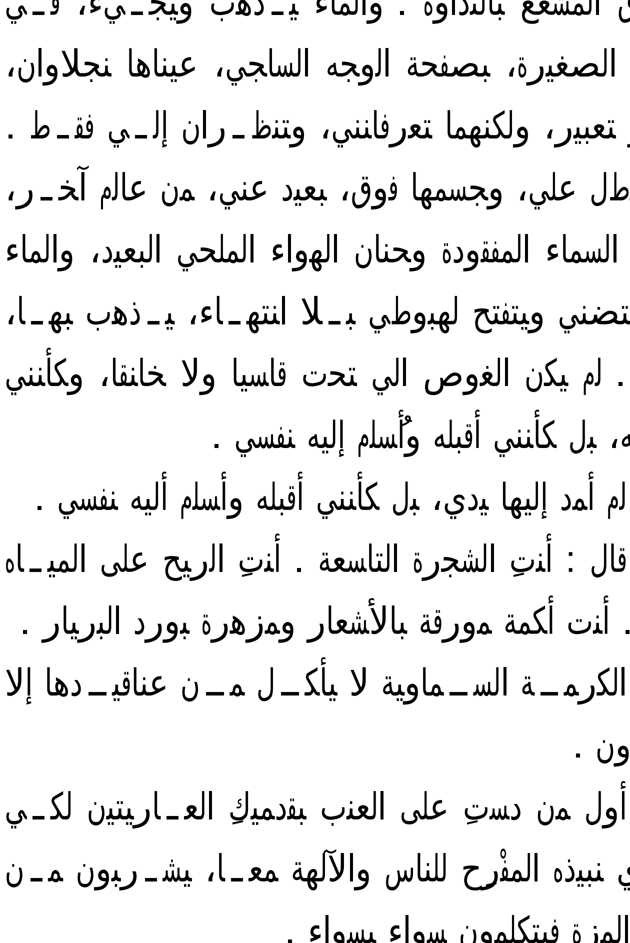
رشقت جسم الدودة المتنزية الزلقة بين أصابعي، في سن السنارة الحادة التي نفذت من الناحية الأخرى، ورفعـت البوصة، وسقطت السنارة في الماء وطفت الفلينة بعد لحظة، باهتة اللون، في فضة الماء السائلة . وانتظرت .

مذا حدث ؟ كيف سقطت ؟

أحسست نفسي في الماء، وكأنني أطفو، ثم أغـوص بهدوء في عمق يبدو أنه من غير قرار . وكان الماء حـولي دافئا ومحيطا وحنونا وشاملا ومن غير نهاية، ولم أكن أشهق ولا أطلب النَفَس ولا أتخبط، ولم أكن قلقـا ولا مرتاعـا ولا مختنقا، وكان هذا العنصر الرفيق الثقيل يحملني ويسندني في

نزولي الذي لا زمن فيه . والضوء حولي داكن وشفاف معا، رازح ومشع معا، كأنني في غرفة مائيـة شاسـعة المـدى، وخصاص نوافذها تنساب منه صفحات رقيقة النسيج متتاليـة من النور والماء ممتزجين معا . وكان سطح المـاء فـوقي يومض بابر فضية دقيقة ومتموجة لا عـداد لهـا، تظهـر وتختفي .

الماء يتخلل تكعيبة العنب، ويغمرها، والعناقيد الثـرة الداكنة الحمرة حباتها الغضة المدورة ملتئمة متضامة بعضها حول بعض، وتتدلّى كأنها نهود متضـرجة كثيـرة ترفعهـا الموجات الصغيرة برفق بين يديها، والورق حولها وفوقهـا شفّاف الخضرة تتلـوى عروقـه خيوطـا لدنـة متشـرجة الالتفافات، يمر بها الماء فتهتز، مطاوعة ومستسلمة، مـن الأغصان المبتلة العقَد . وعلى الموج المضيء وجهها، بـين ظلال تعريشة العناقيـد والأوراق والأغصـان المتعرجـة، خمري اللون ورخيما، يصعد إليه وينيره في السـيولة، مـن تحت، إشعاع نور متّقد في قلب الماء، مـن شـمعة كبيـرة ذُبالتها المشتعلة يهتز بها الموج كأنها أيقونة مخضلة البشرة، وفيها حياة أخرى، وشعرها الذهبي مفكوك مسترسل منثـور



ومليء الخُصل يحمله الماء فيصطدم بوجنتيها دون صـوت، وقد أخذ لونه يدكن قليلا من البلل، ويميل إلى لون الكهرمان المحروق المشعع بالنداوة . والماء يـذهب ويجـيء، فـي مويجاته الصغيرة، بصفحة الوجه الساجي، عيناها نجلاوان، من غير تعبير، ولكنهما تعرفانني، وتنظـران إلـي فقـط . وكأنها تطل علي، وجسمها فوق، بعيد عني، من عالم آخـر، فيه رقة السماء المفقودة وحنان الهواء الملحي البعيد، والماء الذي يحتضني ويتفتح لهبوطي بـلا انتهـاء، يـذهب بهـا، ويجيء . لم يكن الغوص الي تحت قاسيا ولا خانقا، وكأنني لا أقاومه، بل كأنني أقبله وُأسلم إليه نفسي .

لم أمد إليها يدي، بل كأنني أقبله وأسلم أليه نفسي .

قال : أنتِ الشجرة التاسعة . أنتِ الريح على الميـاه العميقة . أنت أكمة مورقة بالأشعار ومزهرة بورد البريار .

الكرمـة السـماوية لا يأكـل مـن عناقيـدها إلا المغبوطون .

أول من دستِ على العنب بقدميكِ العـاريتين لكـي تعتصري نبيذه المفْرح للناس والآلهة معـا، يشـربون مـن عذوبته المزة فيتكلمون سواء بسواء .

أُوزير واقفٌ في هيكله، مطوي الـذراعين، مكفّـن بالبياض، والعناقيد تتدلى في اتجاه وجهـه المنحـوت مـن الديوريت الأخضر، قريبة جدا من فمه الظامي .

قال : وعرفت أنه سيكون ما لابد أن يكون، وأننـي في الزمان الثاني سوف أمنح أن أنهل من جني العناقيد، لأن العنب قد نضج .

سقطت حبات العنب من عيون الصقر حور، ونَطَف الدم من العناقيد .

٩) رفرفة الحمام المشتعل

كان الطفل يجري إلي بيت أم توتو " الجريجية " في تقاطع شارعي البان والنرجس، كأنه يلوذ بمكان مسحور .

لم يكن في حسه، تماما معنى أنها " جريجية " .

كان الاختلاف حينئذ، عنده، من طبيعة الأشياء .

كان يشري الفول من " التركي " بشاربه الأبيض الكبير المصفر قليلا عند أطرافه من الدخان، وكان عندما يدخل بيوت جيرانهم المسلمين يحس شيئا من الرهبة، وكان الكونستابل المالطي الذي ينطلق بالموتوسيكل في شارع الترامواي يوقف عربات الحنطور والكارو ويرسل الخيل والحمير المقَرحة الجنُوب إلى الشفخانة ويتشم العربجية شتيمة بذيئة ويشخر لهم بالإسكندرانية الفصحى . وكان عم حسن التونسي بياع اللبن يسكن في حارة وراءهم، وعنده في البيت ثلاث جواميس وحمار أبيض فاره ويلبس البرنس المغربي السمني الناصع يلقي طرطوره وراء عنقه، شعره الناعم أبيض ولحيته بيضاء كاللبن، وكان زوج خالته عم مقار أسود لامع السواد وكان الصعايدة في الزرائب، وفي وابور الطحين، والفلاحون الذين يبيعون الخس والجرجير

والليمون والكرات على حميرهم، لا يلبسون إلا قميصا داكن الزرقة قصيرا مربوطا بحبل علـى الوسـط، والصـيادون بلباسهم الإسكندراني الأسود المنفوخ والصدرية ذات الأزرار الكثيرة على الفانلة الطويلة الكمين، يبيعـون السـمك فـي مقاطف من الخوص المجدول يحملونهـا علـى رؤوسـهم المعممة بطاقية صغيرة ملفوفة بالشاش الأبيض عدة مـرات، والأفندية بالجاكتات الطويلة والبنطونات الضيقة فـي آخـر الرجلين، وكانوا جميعا يجعلون العالم مكانا غنيـا ومتقلـب الألوان، مخيفا إلى حد ما، وجذابا أيضا .

كان بيت أم توتو من دورين، ولكنه عـال، يحسـه دائما مغلقا على سـره، منيعـا،متين الحجر،نوافـذه كبيـرة خضراء وله سور صغير من الحديد المشغول يحيط بجنينـة صغيرة مزروعة بعناية، فيها شجر نبـق ملتـف الفـروع وارف، غليظ الخشب، وشجرة موز واحدة، قصيرة، أوراقها عريضة، غضرة، سميكة، ومشققة مشـعثة عنـد حوافهـا المصفرة .

وكان أمام البيت دكان جزارة كله مبلط بالقيشـاني، الجدران والأرض تلمع، وأنصاف العجول والذبائح الأخرى

مشقوقة، مفتوحة البطون، بأقفاصها العظمية الداخلية الفاتحة الاحمرار، معلقة بخطاطيف أمـام البـاب تحـت اليافطـة الزجاجية السوداء المكتوب عليها بخط ثلث ذهبي فخم طويل الحروف، وكان قد تعلم القراءة وربط الحـروف، وقـرأ : جزارة محمد محمود البهنساوي .

وكانت أمه هي الوحيدة من بين خالاته التي تزور أم توتو وتحبها، ويحس كأن بينهما نوعا من الفهم، ويتحـدثان معا طويلا، بهمس، بينما يذهب غلى غرفة توتو الصـغيرة التي تكبره قليلا في السن وفي الجسـم، ويناديهـا باسـمها الأصلي كاترينا لأنه كان يحـب مدرسـتَه مـس كـاترين، فتضحك البنت، وتعطيه ليأكل البرقوق المسكر المجفف الذي يستطعمه بلذة، يستمرىء جسمه اللين المتغضـن، المحمـر الملتف على نواته الصلبة، الغـارق فـي عسـله الـداخلي الناشف .

كانت أمه تتركه أحيانا، بعد ظهريات بأكملها، عند أم توتو وتذهب لزيارة حبايبها أم فلة، أو أم أليس، ولا تعود إلا عندما يهبط الليل .

لماذا ذهبت أنا يومها إلى بيت أم توتو ؟

قالت لي ستي أماليا بصوت غضوب ومكبوح : روح انده خالك يونان من عند اللى تتقرص في بطنهـا أم توتـو الجريجية . قل له يجي لي عايزاه .

فتحت لي أم توتو الباب، وأزاحت الستارة الكروشية المخرمة التى تنسدل عليه مباشرة من جوه، أحسسـت خِفـة جسم الستارة على واهتزازها، ونسيت غضـبي مـن سـتي عندما انحنت علي أم توتو، بوجهها الأبيض الرفيع الـدقيق الملامح وقبلتني في فمي قبلة خفيفة، بحركـة أُلْفَـةٍ وحنـان بسيط خالص كما تفعل دائما، كما لا تقبلني أمي أبدا، وملأت صدري بعبق عطرها النافذ ورائحة جسمها النظيف والبودرة التي لم أكن أشم فوحها الخاص إلا عندها .

قلت لأم توتو : عايز خالي يونان في كلمة .

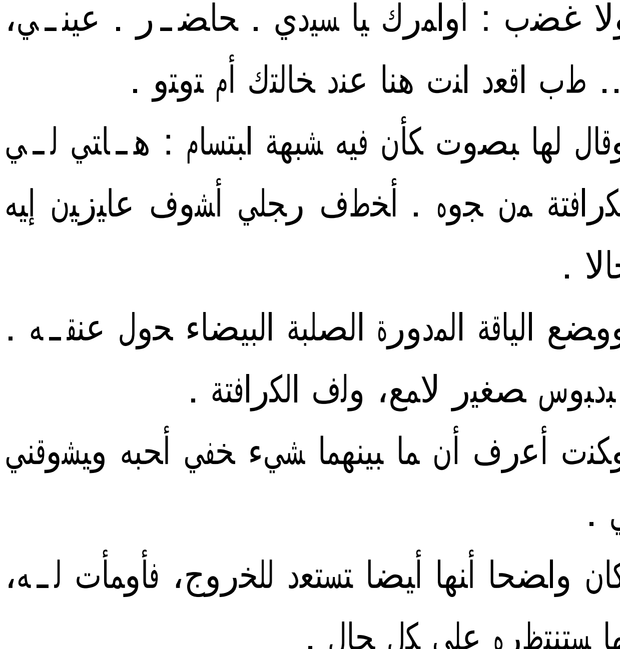
قالت لي، حانية : عاوز تقول له أيه يا حبيبي ؟

وكان في نبرتها أهون إيحاءات الجريج . كانت بنت بلد تقريبا في كلامها، ولكن برقّة خاصـة، وأقـل تخفيـف للأصوات الحادة .

قلت لها، خجلاً : عايزه في كلمة سر .

فابتسمت بعذوبة، وتسليم .

خرج خالي يونان من غرفة داخلية أقفل بابها وراءه، وجاء إلى الفسحة وهو بالقميص الحريـر المخطـط بـأقلام زرقاء رفيعة، من غير ياقة، والبنطلون الذي لـه حمـالات أستيك طويلة، وفي يده جاكتته، وكان فارع القامة، خطواتـه هادئة بطيئة الوقع، وسيم السمرة، شامخ الوجه، ومال برأسه قليلا إلي يسمع ما علي أن أقول، وأجاب في غير تعجل ولا سخرية ولا غضب : أوامرك يا سيدي . حاضـر . عينـي، بس كده .. طب اقعد انت هنا عند خالتك أم توتو .



وقال لها بصوت كأن فيه شبهة ابتسام : هـاتي لـي الياقة والكرافتة من جوه . أخطف رجلي أشوف عايزين إيه وارجع حالا .

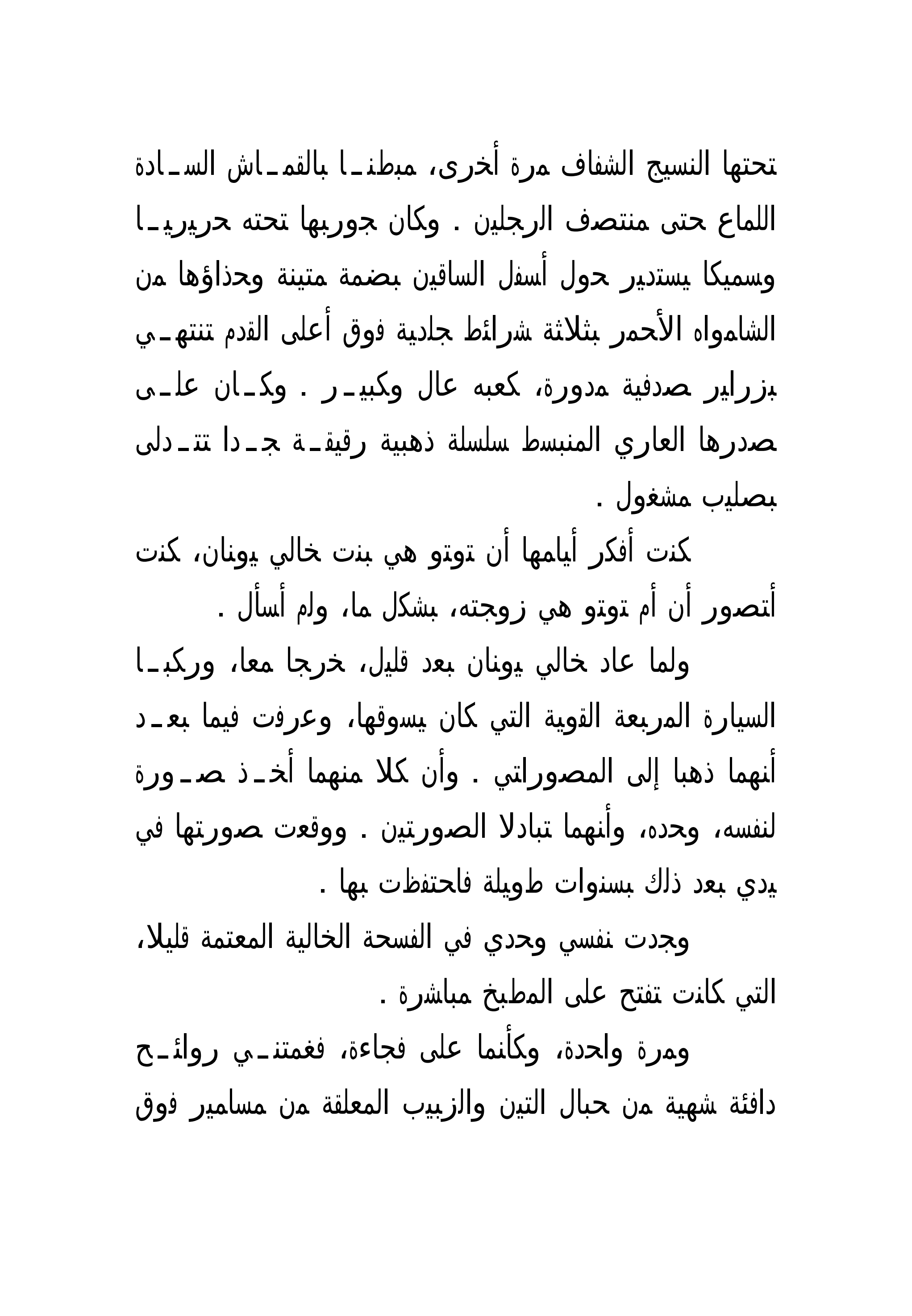
ووضع الياقة المدورة الصلبة البيضاء حول عنقـه . وزررها بدبوس صغير لامع، ولف الكرافتة .

وكنت أعرف أن ما بينهما شيء خفي أحبه ويشوقني ويسحرني .

كان واضحا أنها أيضا تستعد للخروج، فأومأت لـه، وقالت إنها ستنتظره على كل حال .

كانت في عز ازدهارها، نحيلة الوجه، رقيقة الجسم، في عينيها دائما نظرة مطاردة، متوسلة وتوشـك أن تكـون مقهورة، ولكنها جذابة، نسـوية جـدا، مطالِبـة، وانحنـاءة حاجبيها عليهما غير واسعة، وخطّهما مليء وناعم التقـويس وكان شعرها الصغير " ألا جارسون " مفروقا على اليمـين، عقصت خصلة منه على هيئة كعكة صـغيرة علـى أذنهـا اليمنى، كان لونه بنيا ذهبيا داكنا بحيوية غضـة . شـفتاها مرهفتان سريعتان إلى الارتعاش، وأنفها مستقيم طويل، كان بياض وجهها مشوبا بخمرية صافية شفافة، وكـان نهـداها صغيرين مخروطين، تحت فستانها الأحمر الغريب الذي لـم أستطع أن أرفع عنه عيني .

كان النصف العلوي من فستانها من نسـيج خفيـف هفهاف، واسع الفتحة عند أعلى الصدر وبينما كماه الواسعان يشفّان عن ذراعيها البيضاوين، لحمها البض قليل ومتماسـك وممشوق وقد اكتسب حمرة خفيفة من لون النسيج الشـفاف، كان الصدر من قماش حريري، من اللـون نفسـه ولكنـه " ساتان " لامع غير شفاف، ينزل كالحرملـة علـى صـدرها بنقوش رقيقة تنتهي هذه الحرملة فوق الركبتين بقليل، ليبـدأ



تحتها النسيج الشفاف مرة أخرى، مبطنا بالقماش السادة اللماع حتى منتصف الرجلين . وكان جوربها تحته حريريا وسميكا يستدير حول أسفل الساقين بضمة متينة وحذاؤها من الشامواه الأحمر بثلاثة شرائط جلدية فوق أعلى القدم تنتهي بزراير صدفية مدورة، كعبه عال وكبير . وكان على صدرها العاري المنبسط سلسلة ذهبية رقيقة جدا تتدلى بصليب مشغول .

كنت أفكر أيامها أن توتو هي بنت خالي يونان، كنت أتصور أن أم توتو هي زوجته، بشكل ما، ولم أسأل .

ولما عاد خالي يونان بعد قليل، خرجا معا، وركبا السيارة المربعة القوية التي كان يسوقها، وعرفت فيما بعد أنهما ذهبا إلى المصوراتي . وأن كلا منهما أخذ صورة لنفسه، وحده، وأنهما تبادلا الصورتين . ووقعت صورتها في يدي بعد ذلك بسنوات طويلة فاحتفظت بها .

وجدت نفسي وحدي في الفسحة الخالية المعتمة قليلا، التي كانت تفتح على المطبخ مباشرة .

ومرة واحدة، وكأنما على فجاءة، فغمتني روائح دافئة شهية من حبال التين والزبيب المعلقة من مسامير فوق

نافذة المطبخ، تجفّ في الشمس من وراء زجـاج النافـذة . وكانت برطمانات المربي البيتية، والفواكه المجففة المسكرة، على الرفوق، غارقة في سوائلها الكثيفـة داخـل الزجـاج البلوري المضلع الذي يمتص النور ويعكسه من جديد مشققا، متكسرا، وليس في المطبخ ذبابة واحدة .

هبت نفحات غريبة باهتة الحلاوة، كأنها لم تكن هناك من قبل أزهار كبيرة بيضاء، عروقها طرية وقوية تبتل فـي الماء الصافي الذي ثبت كأنه جامد وشـفاف، فـي "فـازة" زرقاء رقيقة الزجاج، بطنها الكبير المدور عليه رسوم تنانين حمراء وصفراء ذهبية ملتوية الذيول، ألسنتها طويلة رفيعـة مشقوقة نصفين منطلقة بقوة من أفواهها الجميلة المفتوحـة، ونفث رائحة المفرش القديم الباهت الخضرة، الدسم الملمس، شراريبة المنقوشة الكثيرة متلاصقة تهتز حول رخامة المائدة المدورة، وأرجل المائدة الخشبية لامعة ومشغولة وتنتهي بما يشبه أقدام الأسد، مقوسة المخالب . وسحرتني مرة أخـرى، كما تسحرني دائما، القوقعة . بيضاء هائلة الشـكل رابضـة تحت " الفازة " الكبيرة حلزونية وملتفة بنعومة، وفـي آخـر دوراتها المتراكبة التي تضيق بالتدريج، طرف مدبب طويل،

لبني اللون والجلد الداخلي في القوقعة أملس محمـر حولهـا شقيقاتها، فواقع أصغر، سطحها الخـارجي بياضـه محبـب وأكثر خشونة .

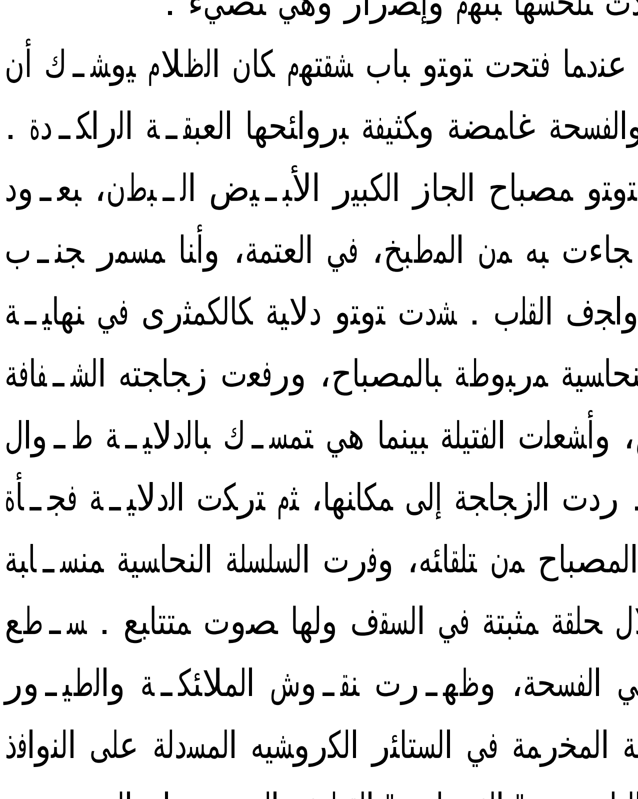
جريت، كأنني أفر، أبحث عن توتـو فـي غرفتهـا الصغيرة التي لم يكن لها نافذة، وحيطانها من الأرض للشقف مغطاة بورق أصفر باهت وله لمعة معا، وفيه نقوش وزهور حمراء دقيقة جدا، أوراقها محددة جدا، خطوطهـا القاطعـة المسننة بلون أكثر حمرة من أجسام وريقات الزهور . وكانت توتو تلازم هذه الغرفة لا تكد تبرحها . وجدتها تذاكر علـى مكتب صغير مسند إلى الحائط، فوثبت وجلست على سريرها أنظر إليها وهي تكتب دروسها بالحروف اليونانية الغريبـة على كراسة ورقها فيه مربعات خطوطهـا طفيفـة جـدا . أصابعها الصغيرة البيضاء تلتفّ بعنق الريشـة المسـحوب، ورأيت على أطراف أناملها بقع حبر بنفسجي اللون .

كانت توتو، على عكس أمها، مدورة الوجة باستدارة كاملة وطازجة الخدين، عيناها واسعتان في خضرتهما نقـط صفراء ثاقبة متوهجة كإبر من النور، وصموتا جدا لا تتكلم إلا نادرا، ولم أرها تلعب أبدا .

قالت توتو : تعال نطلع عند تيته .

فأومأت برأسي، ووثبت نازلا من السرير واندفعنا نجري يسابق أحدنا الآخر على السلالم الحمراء الرخامية الباهرة النظافة، إلى الدور الثاني .

وما إن فتحت جدتها الباب حتى انقلبت الدنيا، أمسكت بيد توتو بشدة، بينما تواثبت حولنا القطط، لا عداد لها، سمينة وجافة القد، سوداء حالكة وخضراء رقطاء، صغيرة واهنة زاحفة، وشاحبة البياض، تموء وتصيء، وقوية متواثبة تزمجر وتفح، مقشعرة، وصفرتها حريرية ناصعة، تقرقر وتهر مربربة زاكية تزوم، وعيونها تتقد، وتركب بعضها بعضا، وكأنها، كلها، ستهاجمنا بضراوة . والجدة القليلة الجسم، ملفوفة بـ " روب " حريري قديم سابغ عليها تصوصو بصوت رفيع حاد، آمر وحنون في الوقت نفسه، ممطوط وأغن ولا أفهمه، حتى تفيء القطط إلى هدوء نسبي، وتأوي إلى أماكنها المختلفة في شتى أرجاء البيت . وتظل توتو تتحدث إلى جدتها باليونانية، بينما رائحة القطط الحيوانية التي تملأ البيت تفغمني وكأنني أستطعم على لساني كثافتها وخصوبتها . ثم ذهبت تيته، تتدأدأ في مشيتها

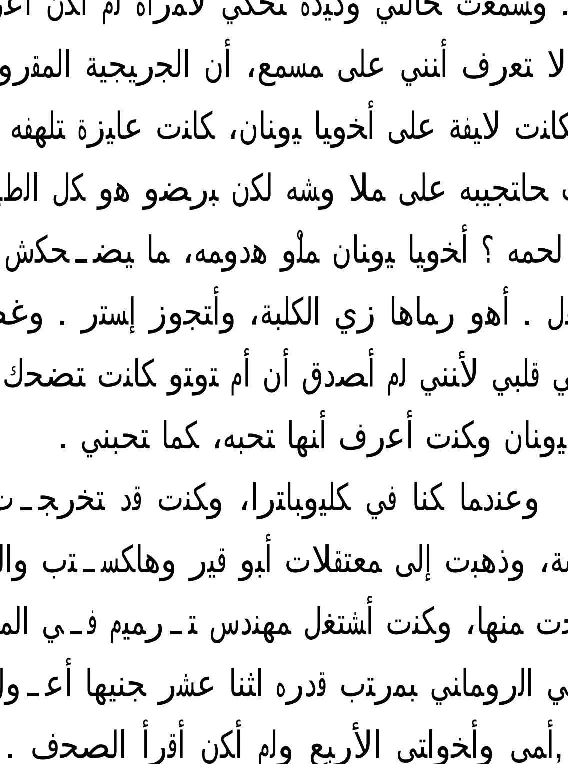


بخطواتها الصغيرة، وجاءت ببلح مقشور مصفي من النـوى غارق في عسله ومحشو بالجوز وبالبندق، وأعطت أصابعها الرقيقة الشفافة، عليها عسل مربى البلح، إلى قطة صـغيرة جدا أخذت تلحسها بنهم وإصرار وهي تصيء .

عندما فتحت توتو باب شقتهم كان الظلام يوشـك أن يهبط، والفسحة غامضة وكثيفة بروائحها العبقـة الراكـدة . أوقدت توتو مصباح الجاز الكبير الأبـيض الـبطن، بعـود كبريت جاءت به من المطبخ، في العتمة، وأنا مسمر جنـب الباب، واجف القلب . شدت توتو دلاية كالكمثرى في نهايـة سلسلة نحاسية مربوطة بالمصباح، ورفعت زجاجته الشـفافة بحرص، وأشعلت الفتيلة بينما هي تمسـك بالدلايـة طـوال الوقت . ردت الزجاجة إلى مكانها، ثم تركت الدلايـة فجـأة فارتفع المصباح من تلقائه، وفرت السلسلة النحاسية منسـابة من خلال حلقة مثبتة في السقف ولها صوت متتابع . سـطع النور في الفسحة، وظهـرت نقـوش الملائكـة والطيـور المرفرفة المخرمة في الستائر الكروشيه المسدلة على النوافذ وعلى الباب، و " الفوتيات " القطيفة الخضـراء المتموجـة

اللمعة . قفزت إلى " فوتي " كبير منها فغاص بـي، وهـو يقاومني قليلا بتنجيده الطيع والقوي .

جاءت توتو، دون تردد، وجلست معي في "الفـوتي" العريض . وأحسست جسمها يلتصق بي . اسـتدارت إلـي، ونظرت إلي طويلا، وقلت لنفسي إنها عزيزة علي جدا وفجأة عانقتني . أحسست ذراعيها العاريتين، رفيعتين وقصيرتين، حول عنقي، تحبسان وجهي، وأحسسـت صـدرها الطفـل يهتز . وضعت راسها خلف وجهي ملتصقا به، وأحسسـتها تبكي، بصمت وإصرار، كأنها لن تفرغ أبدا، وترفرف بـين ذراعي . كنت أحيط خصرها، وكأنني ألجأ إليها، منهـا، لا أقول شيئا وكأنني أقول إن بكاءها يهد العالم علـي . حتـى سكتت فجأة ، واستراحت . عرفت، بعد ذلك بـثلاث أربـع سنين، عندما تزوج خالي يونان فعلا، أن أم توتو كانت قـد تزوجت، من زمان بالجزار الذي كنت أرى محله أمام بيتها، وأراه يقف في المحل المبلط كله بالقيشاني، ساعداه المفتولان قد شمر عنهما، قويا، وصدره صخري تنفتح عنـه تقـويره الصديري اللامع الكثير الأزرار المحبوك يبدو مـن الشـق الطويل في أعلى جلابيته الواسعة التي جفت عليها نقط الـدم



المتناثرة، أنه طلقها بعد أن خلفت كاترينا التي كنا نقول لها توتو . وسمعت خالتي وديدة تحكي لامرأة لم أكن أعرفها، وهي لا تعرف أنني على مسمع، أن الجريجية المقروصة أم توتو كانت لايفة على أخويا يونان، كانت عايزة تلهفه ياختي، وكانت حاتجيبه على ملا وشه لكن برضو هو كل الطير اللى يتاكل لحمه ؟ أخويا يونان ملو هدومه، ما يضحكش عليه بالساهل . أهو رماها زي الكلبة، وأتجوز إستر . وغضبت جدا في قلبي لأنني لم أصدق أن أم توتو كانت تضحك على خالي يونان وكنت أعرف أنها تحبه، كما تحبني .

وعندما كنا في كليوباترا، وكنت قد تخرجت في الهندسة، وذهبت إلى معتقلات أبو قير وهاكستب والطور وخرجت منها، وكنت أشتغل مهندس ترميم في المتحف اليوناني الروماني بمرتب قدره اثنا عشر جنيها أعول بها نفسي ,أمي وأخواتي الأربع ولم أكن أقرأ الصحف . بينما كنت في المتحف، مهموما بالشغل ذات يوم سمعت شائعة أن الجيش في القاهرة قام بحركة ضد الملك، وأن الدبابات في الكورنيش، ولم أهتم يومها كثيرا بأخطر حدث في تاريخنا لفترة طويلة، ولكنني عندما طرد الملك من إسكندرية نزلت

في الشوارع مع صاحبي عبد القـادر نصـر ا وشـربنا العرقسوس الذي كان يوزعه البائع عند كوم الدكـة مجانـا، وابتهاجا وتيمنا بالخلاص . وكنت أُحِب أيامها حبا لا أعرف كيف الخلاص منه ولا كيف الخلوص إليه . وفي آخر المساء عدت إلى بيتنا وكلي قلق وفرح وتوفّز، وطرق باب شـقتنا، ودخلت امرأة جميلة ممتلئة مدورة الجسم، بيضـاء غزيـرة الشعر، في فستان فقير الشكل تحمل على ذراعها طفلة فـي الثانية، وراعتني عيناها الخضراوان كأنهما وحشـيتان مـن ضغط القهر، كحيوان . ولم أعرفها، وسـلمت علـي بيـد أحسستها مليئة مرتخية كأنها لا تعرفني، وعندما جاءت أمي إلى الباب رحبت بها وأخذتها في حضنها وقالت لها : أهلا يا توتو يا بنتي أهلا بيك، اتفضلي، ازيك ياضـنايا، اذّيـك يـا ريحة الحبايب . تدهور قلبي وامتلآ وجهي بالدم . وجسـلت المرأة الغريبة، مهدودة ومستكينة، وعرفت أنها تزوجت من عامل في "الفابريكة" اسمه حسن، وأنه كان حشاشا ومتلافـا وأنه طلقها بعد أن خلفت ابنتها وأن اسم ابنتهـا فتحيـة وأن أمها ماتت من زمان طويل وأنها تشتغل الآن بياعة في هانو وليس لها أحد في الدنيا وكنت جريحا، وأدركـت، متـأخرا

جدا، ومن غير جدوى، مدى قسوة بكاء الطفلة التي كانـت، على تفي، وأن هذه الطفلة لم تندثر ولن يكف بكاؤها أبدا .

تزوج خالي يونان،وجاءت امرأة خالي إستر إلى بيتنا الذي رأيت شرفته مرة تسقط في ليل الحلم مليئة بالنـاس لا صوت لهم، أمام مدرسة البنات الداخلية، وإلى جانبها وابور الطحين .

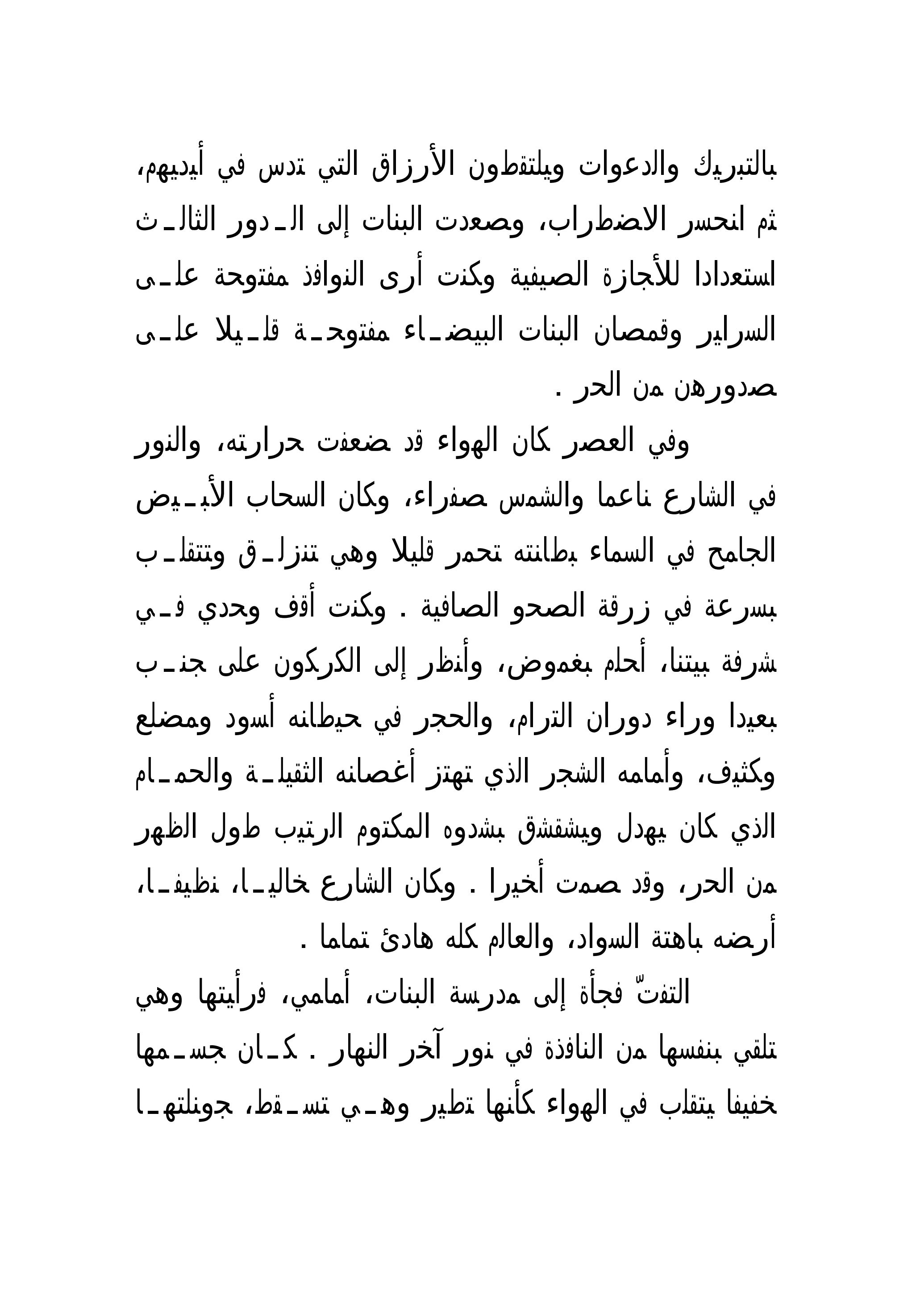
كانت البنات ينمن في الدور الثالث مـن المدرسـة، أعلى من بيتنا . كانت أنوار المدرسة تطفأ في تمام السـاعة التاسعة بالليل، وتصمت الأصوات القليلة المضـطربة بعـد ذلك، وأصداء ضحكات البنات، ويحل الظلام في المدرسـة، وأرى في نور الغاز المشع من عمود الشارع، تكعيبة العنب في حديقة المدرسة، أخشابها واضحة معرقة وسط دغـلات أوراقها الكثيفة، وطبقة تراب خفيفة في النور، على أغصان شجر التوت والنبق الوارفة وكنت أرى البنات أحيانـا، فـي أول الصبح، عندما أرفع بصري من شـرفة بيتنـا، وهـن يخطفن أمام النوافذ المفتوحة، في قمصان نـومهن الخفيفـة الملونة، وشعرهن مبلول ومفكوك، ثم يختفين .

كانت امرأة خالي عروسا جديدة، ولم تخلف بعد، وافرة الجسم، تضحك كثيرا ودافئة الصوت، وكلها معابثة وشيطنة وجرأة حسية بالكلام والإشارات والنظرات، وجهها كامل الاستدارة وخمري جدا، عيناها مليئتان، وحاجباها رفيعان جدا كقوسين، على جفنين متخمرين قليلا وكنت أهرب إليها إذا ضربتني أمي، فتحضنني وتلاعبني وتمسح دموعي في ذيل فستناها وتقول لأمي : هو الملاك ده بيرضو له ضرب ياختي ! وفي مرة نسيت أن أقفل باب الحمام ورائي، وانفتح الباب فجأة عندما استدرت مفزوعا رأيتها على الباب تسدل فستانها على فخذيها المكتنزتين السمراوين بدون اهتمام، وضحكت بصوت عال وهي تصفق بيديها وعيناها مرحتان لامعتان : هيه .. وشفت الحمامة .. ! وبعد أن كدت أن أموت من الخجل ضحكت أنا أيضا وكان ذلك بدون أهمية ولكنه كان سرا بيننا .

كان خالي يونان قد حصل على رخصة دولية وسافر إلى إنجلترا مع خالي ناثان يجربان حظهما، وكان يشتغل هناك سائق لوري بالليل، والتحق بمدرسة نقابية بعد الظهر، وعاد واشترى سيارة أجرة مربعة الشكل يسوقها ويكسب

ذهبا وكان فخورا بعمله، وانتخـب رئيسـا لنقابـة سـواقي الملاكي والتاكسي والأوتوبيس، وكان وفديا عندئذ ثم أصـبح صديقا للبرنس عباس حليم وعمـل معـه، وكـان البـرنس شخصيا يزوره في النقابة ويخرج معه، في التاكسي، وهـو يجلس بجانبه، وكان عندئذ قد رافق أم توتو، ثم تركها، وكان أنيقا وله مهابة في البيت، ويجيـد الكـلام ويعـرف اللغـة الإنجليزية وسافر مرة إلى جنيف ليحضر مـؤتمرا عماليـا دوليا . وسمعت جدي ساويرس مرة يقول:إن ابنـه يونـان "خطيب يخلب لب السامعين" بينما ناثنـان قصـير ومكيـر وخباص ولكن قلبه كالحليب، أما سوريال أصغر أخوالي فقال عنه إنه حشاش ولكنه ابن حلال وابن صنعة ويـده تصـوغ الذهب من الخشب .

كنا في أول الصيف، وكانت الشـهادة قـد جـاءت بالبريد أنني انتقلت إلى السنة الثانيـة فـي مدرسـة النيـل الابتدائية، وفي الصبح رأيت البنـات وأمهـاتهن وآبـاءهن يتزاحمون حول قوائم الناجحات التي علقت علـى لوحـات كبيرة داخل باب المدرسة الحديدي، أمام تكعيبة العنب، وكان الفراشون يحومون حول البنات وآبـائهن يتهـافتون علـيهم



بالتبريك والدعوات ويلتقطون الأرزاق التي تدس في أيديهم، ثم انحسر الاضطراب، وصعدت البنات إلى الدور الثالث استعدادا للأجازة الصيفية وكنت أرى النوافذ مفتوحة على السراير وقمصان البنات البيضاء مفتوحة قليلا على صدورهن من الحر .

وفي العصر كان الهواء قد ضعفت حرارته، والنور في الشارع ناعما والشمس صفراء، وكان السحاب الأبيض الجامح في السماء بطانته تحمر قليلا وهي تنزلق وتتقلب بسرعة في زرقة الصحو الصافية . وكنت أقف وحدي في شرفة بيتنا، أحلم بغموض، وأنظر إلى الكركون على جنب بعيدا وراء دوران الترام، والحجر في حيطانه أسود ومضلع وكثيف، وأمامه الشجر الذي تهتز أغصانه الثقيلة والحمام الذي كان يهدل ويشقشق بشدوه المكتوم الرتيب طول الظهر من الحر، وقد صمت أخيرا . وكان الشارع خاليا، نظيفا، أرضه باهتة السواد، والعالم كله هادئ تماما .

التفتّ فجأة إلى مدرسة البنات، أمامي، فرأيتها وهي تلقي بنفسها من النافذة في نور آخر النهار . كان جسمها خفيفا يتقلب في الهواء كأنها تطير وهي تسقط، جونلتها

الزرقاء الداكنة تنحسر عن رجلين تضطربان وتصـطدمان كأنهما بلا وزن، وكانت صامتة .

سمعت خبطة الجسم في تكعيبة العنب صدمة جافـة، ولها فرقعة مكتومة، وخشخشة الورق، والاحتكاك الصـلب، بينما الجسم يثب إلى أعلى وثبة صغيرة من رجع الصـدمة، ثم ينقلب ويسقط على بلاط الممر بصوت ارتطـام مسـدود، نهائي، كومة مهتدلة، ذراعاها ملتويتان، تحت رأسها، كأنهـا بلا عظام .

فزع الحمام الذي كان يأوي إلي وكناته الخفية وسط الشجر وطار يرفرف بأجنحته الطويلة التي مسـتها حمـرة الغروب فاشتعلت، في السماء .

وسمعت على الفور صوت القيء، تشنجات متقبضة ثم انفجارا متحشرجا، والجسم يهتز علـى الأرض، الـرأس الملتصق بالبلاط يندفع منه سائل لزج ثقيل محمر الرغوة .

ثم الصمت .

لحظة واحدة من الصمت الكامل، التام .

هل كانت صرختي القصيرة، لم أسمعها، هي التـي أتت بخالتي سارة وخالتي وديدة وامرأة خالي إستر، كلهـن،

يجرين إلي، أم صرخات البنات التـي ارتفعـت، مروعـة، ونداءات المشرفة والفراشين الذين أخذوا يخرجون متلاحقين من باب المدرسة الداخلي ؟

كانت على الباب لمة صغيرة من النـاس، جـاءت عربة الإسعاف بجرسها المجلجل، ودخل المتطوعان، بالكاب الأحمر والحلة الصفراء، وحملاها على نقالة وأدخلاها فـي جوف السيارة التي انطلقت ودقات الجرس السريعة تصلصل بإلحاح .

لم أترك الشرفة، ولم أتعش، أين كانت أمي، وخالتي وديدة وستي أماليا ؟

عندما تقدم الليل كانت قريباتي كلهن جالسات علـى حصيرة في الشرفة، وكنت ملتصقا بحديد سورها، وكان قلبي موحشا وعيناي مغلقتين .

نادتني امرأة خالي إستر، من بينهن جميعـا، كـان شعرها في الليل عاريا وقصيرا وغامض السواد، ووجههـا المدور الأسيل السمرة صافيا في نور الليل الصافي، وكانت عيناها النجلاوان منتفختين قليلا، وتومضان .

وقالت لي فجأة، بلهفة : ياضنايا .. مالك ؟ تعـالَ .. تعالَ نم على حجري هنا .

وضعت رأسي بين فخذيها الطـريتين الممتلئتـين، وكانت ناعمة تحت وجهي، ودافئة، ونفح جسـمها الأنثـوي حميما، ونزلت بيدها الرخصة فضغطت على وجهي، بحنـو ورفق، على حجرها . ونمت .

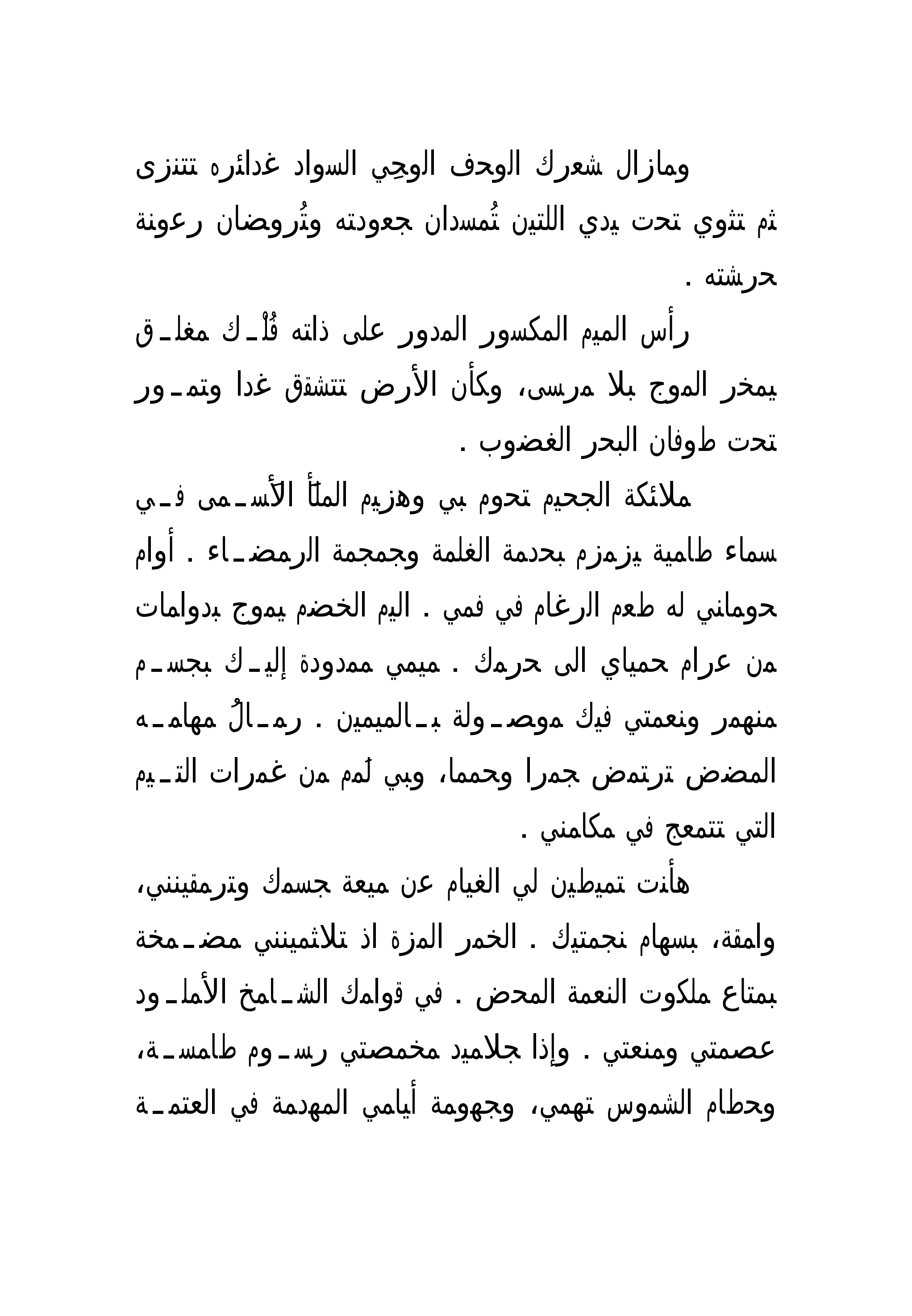
في آخر أيام السنة، في غسق القاهرة الفاطمية، وفي غسق العشق الأخير قال لها : عندئذ، كان هذا الطفـل، فـي السابعة من عمره، قد عرفك، ونام في حنو جسدك .

قالت له : كانت طفولتك مدللة .

قال : كان الموت فيها كثيرا .

واحدة حمامتي، كاملة، مشتعلة بين العناقيد والحسك، طالعة أبدا من ساحة قلبي كعمود دخان معطر بالمر واللبان، لا تهب زعازع الزمن الهوج بنشرها العِبق، نارها سـوداء ومتقدة، لا تنطفئ .

الزبد على أصابعك السمراء المكتنزة ناصع كرغـوة البحر في موجته التاسعة والأخيرة .

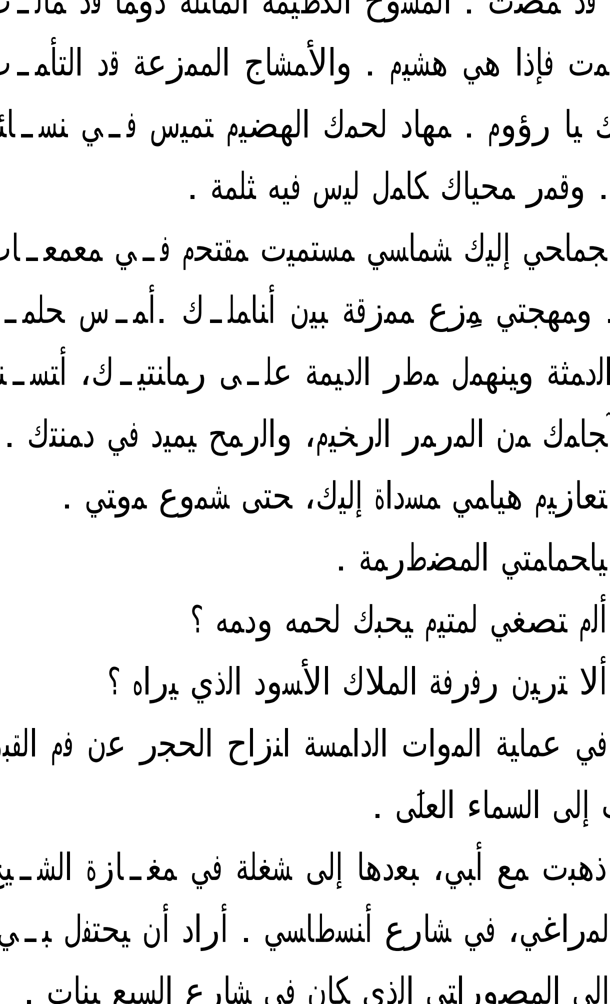


ومازال شعرك الوحف الوحِي السواد غدائره تتنزى ثم تثوي تحت يدي اللتين تُمسدان جعودته وتُروضان رعونة حرشته .

رأس الميم المكسور المدور على ذاته فُلْـك مغلـق يمخر الموج بلا مرسى، وكأن الأرض تتشقق غدا وتمـور تحت طوفان البحر الغضوب .

ملائكة الجحيم تحوم بي وهزيم الملأ الأسـمى فـي سماء طامية يزمزم بحدمة الغلمة وجمجمة الرمضـاء . أوام حوماني له طعم الرغام في فمي . اليم الخضم يموج بدوامات من عرام حمياي الى حرمك . ميمي ممدودة إليـك بجسـم منهمر ونعمتي فيك موصـولة بـالميمين . رمـالُ مهامـه المضض ترتمض جمرا وحمما، وبي لمم من غمرات التـيم التي تتمعج في مكامني .

هأنت تميطين لي الغيام عن ميعة جسمك وترمقينني، وامقة، بسهام نجمتيك . الخمر المزة اذ تلاثمينني مضـمخة بمتاع ملكوت النعمة المحض . في قوامك الشـامخ الأملـود عصمتي ومنعتي . وإذا جلاميد مخمصتي رسـوم طامسـة، وحطام الشموس تهمي، وجهومة أيامي المهدمة في العتمـة



المدلهمة قد مضت . المسوخ الكظيمة الماثلة دوما قد مالـت ثم انحطمت فإذا هي هشيم . والأمشاج الممزعة قد التأمـت بمعجزتك يا رؤوم . مهاد لحمك الهضيم تميس فـي نسـائم الرحمة . وقمر محياك كامل ليس فيه ثلمة .

جماحي إليك شماسي مستميت مقتحم فـي معمعـات المحبة . ومهجتي مِزع ممزقة بين أناملـك .أمـس حلمـة أكمتيك الدمثة وينهمل مطر الديمة علـى رمانتيـك، أتسـنم عمدان آجامك من المرمر الرخيم، والرمح يميد في دمنتك .

تعازيم هيامي مسداة إليك، حتى شموع موتي .

ياحمامتي المضطرمة .

ألم تصغي لمتيم يحبك لحمه ودمه ؟

ألا ترين رفرفة الملاك الأسود الذي يراه ؟

في عماية الموات الدامسة انزاح الحجر عن فم القبر وصعدت إلى السماء العلى .

ذهبت مع أبي، بعدها إلى شغلة في مغـازة الشـيخ شاهين المراغي، في شارع أنسطاسي . أراد أن يحتفل بـي، فأخذني إلى المصوراتي الذي كان في شارع السبع بنات .

كانت " المغازة " مخزنا ومحلا ومكتبا لبيع وشـراء البيض والبصل والسـمن البلـدي، وتوريـدها للخواجـات والمصدرين أو لتجار الجملة من أولاد البلد، وكنت أعـرف أن تجارة أبي قد كسدت، وأنه باعها للشيخ شاهين المراغـي ودخل معه شريكا بالعمل بثلث الأرباح، وكنت أتصور أنهـم في آخر كل شهر يجمعون النقود الفضة والمعـدن ريـالات وأنصاف ريالات وأنصـاف فرنكـات وقروشـا وملالـيم، ويقسمونها ثلاثة أقسام يأخذ أبي واحدا منها، وأحس في ذلك ظلما غير مفهوم .

كانت المغازة فسيحة ومعتمة ورطبة وأرضها مـن الإسفلت الأسود وفيها أعمدة حجرية عالية، ورأيت فيها ناسا غامضين صامتين، بملابـس الشـيالين الزرقـاء وعممهـم وطواقيهم، جالسين علـى خـيش مفـروش علـى الأرض، أذرعهم مرمية على ركبهم بتعب، بين أكوام مرصوصة من شوالات البصل لها عبق نفـاذ مهـاجم، وأقفـاص البـيض الأبيض يلمع وسط القش الذي تخرج أعواده الرفيعة كشـوك هش من بين القضبان الخشبية وتذكرني برائحـة الفـراخ .

وفي آخر المغازة، في الظلام، تومض صفائح السمن بعضها فوق بعض، شكلها ثقيل وثابت .

سلم علي الشيخ شاهين، كان له وجه مـدور غنـي داكن السمرة، وابتسم لي فغارت عيناه الصغيرتان اللامعتان مدفونتين إلى أعمق في دسم ملامحه، وكانت علـى رأسـه عمامة يلتف حولها شاش ناصع البياض حريري الشكل لـه شراشيب رفيعة وراء أذنه، وسلم علي أيضا ابنه الشاب الذي نظر إلي بلا مبالاة، وكان يلـبس بدلـة صـوف إنجليـزي مربعات، وكرافتة رفيعة جدا محزوقة بإحكـام فـي الياقـة البيضاء المنشاة، وعلى رأسه قبعة رمادية كالخواجات، يلفها شريط حريري رمادي أيضا . وقال لي الشيخ شـاهين، مـا شاء ا .. ربنا يطرح فيك البركة يابني، وتاخـد الشـهادة، ونبعتك بلاد الإنجليز تكمل علامك زي أحمد أفنـدى ابنـي كده .. ومرت في ذهني صور غامضة لبلاد باردة ينزل فيها الثلج كالمطر وفيها عساكر كثيـرون علـى موتوسـيكلات ونساؤها مثل أم توتو، ثيابهن قصيرة وشـفافة وأجسـامهن رقيقة ناعمة، ولكني مع ذلك لم أصفح في قلبي عن الشـيخ شاهين ولا عن ابنه .

ولم يكن الشيخ شاهين يعرف القـراءة ولا الكتابـة، وكان هذا يحيرني جدا وكان أبي هو الذي يكتب ويحسـب، وكنت فخورا به، وكان مكتب أبي كبيرا، بجانب باب المغازة وعليه دفاتر الحسابات مرصوصة ومفتوحة ومجلدة بالأسود وفيها خطوط مموجة بالأزرق والأحمر على حواف الـورق السميك وهي مقفلة، وسحرتني مكنة نسخ الخطابات والفواتير المكتوبة بالبالوظة البنفسجي، حديدها الغليظ المتين له يد تدار على قائم حلزوني الحلقات، فتنزل الحديدة العلوية المسـطحة على الورق الشفاف المبلول بللا خفيفا، فـوق ورق نشـاف فاتح الحمرة، حتى تنطبق انطباقا محكما على قاعدة المكنـة الصلبة الراسخة، وعندما ترتفـع الحديـدة العلويـة تظهـر الصورة مقلوبة على الورق الخفيف المبلول .

تسللت ودخلت مكتب الشيخ شاهين، وكان نظيفا جدا وخاليا وفيه رائحة تراب وهواء محبوس وله مهابة، وكـان النصف العلوي من بابه زجاجيا محببا مبيضا وعليـه اسـم الشيخ شاهين أحمد المراغي، وتحت اسم أبي، وتحتهما تجار البيض والبصل والسمن البلدي بالجملـة والقطـاعي، كلهـا بالخط الثلث حروفه قائمة بكبرياء وشموخ، بالأسود والذهب،

أقرؤها من الداخل مقلوبة على الزجاج المبيض، ونقلت اسم أبي على ورق أبيض، مرة معدولا ومرة مقلوبا، وأحسسـت تحت يدي لدونة الجوخة الخضراء على المكتـب، مسـمرة بمسامير صفراء غليظة على إطار خشبي لامع مموج وداكن يدور بأطراف المكتب الأربعة، وعندما خرجنا أخذت معـي ظرفا كبيرا فيه مجموعة من الفواتير والخطابـات البيضـاء عليه اسم أبي، واستخدمتها بعد ذلك في كتابة الشـعر، أيـام الحرب .

في محل المصوراتي دخلنا إلـى الغرفـة الداخليـة الفسيحة المعتمة، وأضاء الرجل مصـابيح كهربائيـة قويـة كثيرة من عدة زوايا، وكان الهدوء ثقيلا ووقف أبـي، بيـده عصا الأبنوس ذات المقبض العاجي، وفمه مزموم ونظرتـه متأملة وعميقة وصافية جدا، ورفعني المصوراتي وأجلسـني على مائدة عالية صغيرة بجانب أبي . وكنت ألبس قمـيص الحرير الأبيض الواسع الياقة والبنطلون القطيفة الأسود الذي له حمالات فيها زراير بيضاء كبيرة، وحذائي الأبيض الجديد الذي له نعل مطاطي رمادي يغوص قليلا تحت قدمي عندما أمشي، وجوربي الأسود المرفوع مضموم على ساقي وحـده

ليس فيه أستيك، ووضعت يدا على يد، وكان شعري ناعمـا ومفروقا، وقال لي المصوراتي أن أنظر في عـين الكـاميرا الكبيرة المعدنية المحدبة التي كانت تـومض فـي الأنـوار القوية، وكنت مستقرا في فـراغ الهـواء العـالي وآمنـا، وأحسست نفسي بعيدا جدا على الأرض ولـم أكـن أخشـى السقوط ولم أكن أخاف من الموت وكنت أرى رفرفة البنـت التي تسقط، وهي تطير، ولا تصل أبدا إلى تكعيبـة العنـب الكثة الشرسة تحتها . وكان المصوراتي يلبس جاكيتة قماش سوداء خفيفة على قميص، ولها كم منفوخ مضموم على أعلى ذراعه بحلقة أستيك سميكة، وأدخل رأسـه تحـت القماشـة السوداء التي انسدلت خلف الكاميرا، ووقـف بـين القـوائم الحديدية المثلثة، وسمعناه من تحت خيمته الداكنة يقول لنـا بصوت مكتوم : كويس .. كويس .. بصو لي هنا في عـين المكنة على اليمين شوية .. كويس كـده، واحـد.. اتـين.. خليكوا كده من غير حركة .. وخرج بسرعة، وأزاح غطاء مدورا من على فتحة العدسة ثم أعاده بصوت صفقة نهائيـة وقال : مبروك .

ولما عدنا بالترام في أول الليل، كان الميدان الصغير في آخر شارع راغب باشا خاليا، وكان الدخاخني، بمنصـته الرخامية الرمادية الطويلة الخارجية في الشارع، مغلقا، ولكن السينما، التي بنيت في عنبر صفيح عريض مثلـث السـقف وبوابتها شبكة حديدية جرارة، كانت منيرة بِعِقْدٍ طويل مـن المصابيح الكهربائية مدلّى على الباب، ويضيء إعلانا ملونا فيه حصان أحمر يجري عليه راعي بقـر قبعتـه عريضـة مستديرة زرقاء، باهتة على وجهه الناصع الزرقـة، ويرفـع سوطا طويلا في الهواء . وكنت أتأمل الإعلانـات الملونـة المصورة على هذه السينما في طريقي للمدرسة كل صـباح، وأقرأ عناوين الأفلام وأسـماء الأبطـال، وأتخيـل أحـداث الروايات طويلا، وما يدور فيها وأحلم كثيرا بأن أدخل هـذه السينما . ولم أدخلها أبدا .

رأيت أنني أسير إلى كوم الدكة، وفي الطريق ذهبت إلى الجنينة الواسعة التي تقع على المحمودية والتـي كنـت أشتري منها، الآن وأنا صغير، الخس والجرجيـر والبصـل الأخضر والكرات والملوخية والكرفس والبقدونس والخبيزي والفجل والسلق للقلقاس، وفي كل مرة أسير إليهـا مـتمهلا،

متأملا أمر بسياج خشبي عال فيه ثغرات طويلة من الخشب، أضع عليها عيني ولا أكاد أرى وراء أسرار هـذا المبنـى الغامض البعيد الشاحب البياض، وله أعمدة مدورة وشـبابيك طويلة، ولا أكاد أرى حديقته الواسعة، معتمة بأشجار وارفة أثيثة الأغصان متشابكة وكأنها وحشية . وأقول لنفسي كم من الأسرار وراء كم من الأسوار حدستها ولم أعرفها أبدا وشـد ما أَحِن إلى معرفتها، موقنا أنني لن أعرفها أبدا وأن الشـوق سيظل مع ذلك أبدا في روحـي، برعمـا خامـا مزدحمـا بعصارته الكثيفة وجائعا إلى التفتق والازدهار .

ودخلت جنينة الخضار من باب خشبي مفتوح دائمـا مخلوع المفصلات، وأحسست بالأرض كاملة ترف بـأنواع الخضرة منها القصيرة اليانعة،والفارعة الطـول، والداكنـة الملتفة، والرقيقة المتكاثفة والمرهفة السنان كأنها شفافة، أمر على مدق ترابي ضيق من تحت تعريشة العنـب المورقـة القائمة على أعمدة من خشب التفّت بهـا أغصـان الكـروم الملتوية ذات العقَد الخشنة وأسمع الحمام يزقو ويهدل بترجيع رتيب الإيقاع، مختبئا في الشجر الكثيف الـداكن الـورق لا ينتهي إيقاع ترتيله وليس لشجوه انقضاء، وأنفذ مـن جانـب

البقرة التي تدور بالساقية في وسط الجنينة، ببطء وإصـرار، مغماة العينين، تجتر وينزل اللعاب من خطمها فـي خيـوط فضية طويلة، وأسير على المسقى الطويل الذي يتسلسل فيـه الماء من الساقية على القاع الرملي الطيني الصـلب الفـاتح اللون، ويترقرق، وتضوء الشمس على مويجاتـه المنسـربة بخرير موسيقي تفتح أبواب القلب في الهواء الطلـق النقـي العبق برائحة الخضر وروث البقر والسباخ البلدي والنعنـاع والريحان معا .

خرج إلي الفلاح القصير المدكوك الجسم من خصـه الطيني الضيق كأنه يطلع من تحت الأرض . وجهه مجدور وعميق الغضون ومحروق ويده قصيرة الأصابع خشنة، حش لي الخضار بمنجل صغير مقوس وحاد السن وأحسست مدى رهافة حركته ورقتها وحنوها وكفاءتهـا فـي وقـت معـا، وأحسست أن في جسم هذا الرجل جـدي سـاويرس وأبـي وأولاد عمتي بقطر ورفلة، وأخوالي الثلاثة يونـان وناثـان وسوريال، وأن نظرتهم جميعا معا، فـي عينيـه الغـائرتين الثاقبتين، وأنني لا أنفصل عنه ولا عنهم، وأن في يديه تربة قلبي الملوثة الغمقة المعجونة بالطين لا تجف أبدا، وأن هـذه

الجنينة هب بستان ألف ليلة وليلة المسحور الذي طالما التقى فيه المحبون خفية، وعرفوا – كما عرفت – من فنون العشق ما لم يعرفه من قبل بشر .

ورأيت أنني صعدت إلى أعلى تلّة كوم الدكة القديمة، وقد جلا عنها الجنود الإنجليز سرا في الليل . ولأول مـرة منذ وعيت لم يكن اليونيون جاك يرفرف على ذروة التلـة، وكنت أعرف مع ذلك بغموض أن كوم الدكة القديم قد أزيـل وحلت محله ساحة مسفلتة ومبانٍ حكومية، وأننا كنا ننطلـق في جماهيرنا الغفيرة، منذ الصـباح البـاكر، نرتفـع علـى طرقات كوم الدكة الخالية التي كانت محرمـة علينـا وقـد أصبحت في هذا الصبح حلالا، جماعات جماعات، أصـوات هتافاتنا مبحوحة في الهواء النقي : الجـلاء الجـلاء يسـقط الاستعمار يسقط الاستغلال . وكانت عنابر الجنود الإنجليـز خاوية على عروشها، ولم يتحرك الجيش المرابط لاحتلالهـا بعد، ودخلناها ورنّت أصداء أحذيتنا في فراغ حيطانها، وكان بلاط أرضها متربا قليلا وعليه قصاصات ورق ممزق وبقايا القشّ، وكان اليوم عيـد، وجماعـات المتظـاهرين كـأنهم يرقصون رقصات جماعية، يشورون وينشدون من الفرح .

وكانت الأشجار المشذبة علـى جـانبي الممـرات الترابية كأنها رؤوس من الأغصان كثيفة جعدة منذرة ومهددة وشرسة، وعندما طوفنا بكل أنحاء القلعة المهجورة الموحشة، ونزلنا، وجدنا جنود بلوك النظام صفوفا متراصة تحت سفح كوم الدكة، وفي أيديهم دروعهم الخشبية الخضراء القائمـة، على رؤوسهم خوذات حديدية صدئة، ركبهم مدورة سـوداء بارزة تحـت الشـورتات الكـاكي " الطويلـة "، وشـرائط "الألشين" تلتف بسيقانهم النحيلة حتى تغيب تحـت الأحذيـة الميري الضخمة المتربة بجلادها الخشن المقبـب، وانتظمـت الجموع بقيادة صديقي عبد القادر نصر ا الذي كان مازال في كلية الطب بينما قد تخرجت سنتها في كليـة الهندسـة، وكان قد انضم إلى جماعتنا الثورية الصغيرة . ورأيت على جانبي شارع النبي دانيال جثث الأطفـال المرميـة هامـدة، حمراء لها قشرة لامعة، كأنها " جنبري " مسـلوق ضـخم، أيديها وأرجلها ثلاثية الأصابع مبتورة ومتورمـة ومـدورة وحول رؤوسها غلاف صدفي شفاف تحدق من وراء زجاجة عيونها المفتوحةالمتهمة . وكانت المظاهرة تشق طريقها، مع ذلك، بحرص، بين صفي الجثث الطفلية تحـاذر أن تمسـها

وعندما وصلنا إلى واجهة كأنها بوابة فندق منيـف، ناطحـة سحاب، ألواحها زجاجية مدخنة، شاسـعة، تقطعهـا أعمـدة الألمونيوم المصقولة، هجم جنود بلـوك النظـام فجـأة دون إنذار، وسمعنا في الوقت نفسه فرقعات الرصاص في الهواء كأنها غير جدية لا تحمل خطرا آتيـة مـن نوافـذ البنايـة الزجاجية الشاهقة، ورأيت الناس يسقطون بصمت مضروبين بالرصاص، وتمر عليهم الأقدام المتلاحقـة،، والنـاس قـد انطلقت تجري في كل اتجاه، وكانت موجة النـاس تصـعد وتهبط، ورأيت الأجسام التي أمسكت بها النـار تلقـى مـن النوافذ العالية، وتتقلب في الهواء، وتسقط بعيدا في البحـر، وكانت الرؤوس تطفو فوق الأمواج مفتوحة الأفواه بصرخة لن تصمت أبدا، ورأيت وجهها الذي أحبه، ويرودني في حلم مستمر، يسبح في مياه حبي التي لا تغيض، ساطعا بسـمرته الخمرية وسط زبد الرؤوس المتلاطم مـن غيـر صـوت، وأحسست الطعنة في قلبي من عينيها الواسـعتين بموجهـا المخضر الثبج، وسقطت في الغمر، ولما أفقت كانت الطعنة مازالت تغوص في عمقي الذي ينصهر ويتقد ويفيض حممـا كالبحار الوحشية الجموح تنسكب متوهجة تئج باللظى وتغرق

جسمي في ضرام اللهب، وأحسست أجنحة الحمام المشتعل بوهيج النار ترفرف حولي وتصعد بي، في زرقة السماء الصحو الناعمة، محترقا من غير انتهاء .

(تمت)